الحقائق والدقائق

في المعارف الإلهية

الحقائق والدقائق

في المعارف الإلهية

الإمامة

حقيقتها وخصائصها الإلهية وحقوقها في الأمة

الجزء الأول

الشيخ

فَاضِل الصّفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم من الجن والإنس أجمعين.

معارف

الإمامة

حقيقتها وخصائصها الإلهية وحقوقها في الأمة

وفيه فصول:

الفصل الأول: في حقيقة الإمامة وضروراتها واختلاف الآراء فيها

الفصل الثاني: في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام بالأدلة العقلية والنقلية

الفصل الثالث: في صفات الإمام ومقاماته الإلهية

الفصل الرابع: في خصائص الإمام المهدي ومقاماته الإلهية

الفصل الخامس: في واجبات الأمة تجاه إمام زمانها

الفَصلُ الأوّلُ

في حقيقة الإمامة وضروراتها واختلاف الآراء فيها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في حقيقة الإمامة وضروراتها

المبحث الثاني: في الآراء في الإمامة

المبحث الأول
في حقيقة الإمامة وضروراتها

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: في حقيقة الإمامة

اطلق لفظ الإمامة على معان عديدة، ولعل المعنى الجامع لها هو أنها مقام معنوي يقتدى به ويتخذ مثالاً يحتذى في العلم والعمل، ومن هنا سمي الرئيس والقائد والخليفة إماماً؛ لأن الناس يأتمون بهم ويتبعونهم في الأمور[1] محقين كانوا أو مبطلين وجمعه أئمة وفي التنزيل قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[2] أي يقتدى بك في أفعالك وأقوالك[3]، وأما في المصطلح فقد عرفت الإمامة بتعاريف كثيرة[4] ناظرة إلى الحد التام، وكان

---

١ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٣، (أم)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٧، (أم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٤، (أمم)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٢٧، (أم).

٢ – سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٣ – مجمع البيان: ج١، ص٣٧٦، تفسير الآية المزبورة.

٤ – توضيح المراد: ج٢، ص٦٧٢؛ انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج١، ص٢٥٩.

الأوْلى الاكتفاء بالإشارة إلى ابرز خصوصياتها لاسيما عند المتشرعة وعلماء الحكمة والكلام؛ لأنها من المعاني الواضحة التي لا تحتاج إلى مزيد بيان، ولا إلى نقض وإبرام، ومن هنا استغنى عن ذكر التعريف جماعة[١]، وانتحال هذا المقام من قبل جماعة من الغاصبين والكاذبين لا يستدعي تقييدها بقيود إضافية كالقول بأنها خلافة بأمر الله؛ لأجل إخراج الخلافة بأمر الناس، أو بأمر الهوى والشيطان؛ لأن سوء التطبيق أو تحريف المعنى لا يضر بأصله، وحيث إن الألفاظ تحمل على المعاني الحقيقية يعرف بأن المراد من الخلافة عن النبوة الخلافة الحقة لا المنتحلة. نعم هي في المنظور الكلامي الشرعي خلافة إلهية عن النبوة في هداية العباد إلى صلاحهم في الدين والدنيا، والإمام هو خليفة الرسول في مهامه ومناصبه، وبقيد الخلافة الإلهية عن النبوة اتضح أن الإمامة منصب إلهي يتعين بالنص الإلهي لا بالاختيار، كما هو الحال في النبوة، فلا فرق بين الإمام والنبي في مقاماتهما سوى الوحي، فإن النبي ﷺ يوحى إليه بالوحي الخاص وأما الإمام فلا، كما أن فعلية إمامة الإمام تكون بعد الرسول لا قبله ولا معه، فالإمام عليه السلام تابع للنبي ﷺ، وبقيد الهداية إلى الصلاح تتضح شروطها الخاصة من علم وعصمة لتوقف الهداية بمعناها التام عليها، وبقيد الدين والدنيا يتضح أن الإمامة هداية في جميع أنظمة المجتمع والدولة، ولا تقتصر على العقيدة وفروع الأحكام، وبذلك تخرج الخلافة السياسية والإمارة والإمامة في مثل الصلاة ونحوها عن المعنى المقصود هنا، وبقيد المهام والمناصب تخرج عاديات النبي ﷺ وخصائصه، كما يتضح أن للإمام وظائف:

١- انظر كشف المراد: ص٣٨٨؛ القول السديد: ص٣٤٥.

الوظيفة الأولى: خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتمثيله في مقاماته المعنوية ومناصبه الإلهية، بل هما نور واحد ونفس واحدة لا فرق بينهما إلاّ في ثلاث:

أحدها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوحى له بالوحي الإلهي الخاص وليس كذلك الإمام عليه السلام.

ثانيها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم متبوع والإمام تابع له.

ثالثها: أن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خصائص تشريعية في بعض الأحكام الخاصة التي خصه الله سبحانه بها دون سائر الخلق على ما قرر في الفقه، وأما في غير ذلك فالإمام والنبي متحدان في المقامات والغايات والمهام الإلهية.

الوظيفة الثانية: أنه المقتدى في أفعاله وأقواله في الدين والدنيا.

والوظيفة الثالثة: أنه الحاكم الأعلى الذي بيده تدبير الأمة وسياستها، والقيام بأمورها، وتأديب جناتها، وتنصيب ولاتها، وإقامة الحدود على مستحقيها، والدفاع عنها، والاهتمام برقيها المادي والمعنوي، ولا شرعية لغيره في حكم أو حكومة.

وباعتبار الوظيفة الأولى تختص الإمامة بمن عينهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لخلافته، وهم عترته الأطهار عليهم السلام كما تواترت به النصوص ويقضي به العقل.

وباعتبار الثانية يكون كل نبي إماماً، وباعتبار الثالثة تختص الإمامة ببعض الأنبياء الذين أمروا بتدبير سياسة الأمة وإقامة الدين بدولة وحكومة شاملة، وبهذا ينحل الخلاف القائم في بيان العلاقة بين النبوة والإمامة، كما يتضح معنى قول الإمامية أن الإمامة أعلى من النبوة، فإذا أمر النبي بإقامة نظام الدين وتدبير الأمة كان إماماً، وحينئذ تكون إمامته أعلى من نبوته.

كما يتضح معنى أن إمامة المصطفى ﷺ أعلى من إمامة كل الأنبياء، وكذلك إمامة عترته الطاهرة عليهم السلام؛ لأن إمامتهم خلافة للنبي ﷺ في كل شؤونه ومقاماته الربانية، وذواتهم هي ذات النبي متحدون نوراً، ومتعددون أشخاصاً، فهم أشرف من سائر الأنبياء عليهم السلام ذاتاً، وأعلاهم مقاماً ورتبة.

كما يتضح أن المحور الذي تدور عليه الأبحاث العقدية هو الإمامة بمعناها الخاص، أي خلافة النبي المصطفى ﷺ في مقاماته ومناصبه الإلهية، وفيها وقع الخلاف والجدل بين المسلمين، ومنه نشأت الفرق والمذاهب الكلامية والفقهية، وكيف كان فغاية البحث في الإمامة تعود إلى أمرين:

الأول: معرفة الإمامة وخصوصياتها الإلهية، ثم الاعتقاد بها كأصل من أصول الدين، ووجوب عقد القلب عليها.

الثاني: معرفة الإمام الذي يحظى بمقام الإمامة بعينه وشخصه بالعلم التفصيلي، ثم الاعتقاد به واتباعه والتسليم له في شؤون الدين والدنيا، والبحث في الأول كبروي مفهومي، بينما في الثاني صغروي مصداقي، ويجب على المسلم أن يعتقد بالاثنين معاً؛ إذ لا يكفي أن يعتقد الإنسان بالإمامة وأهميتها ولا يعتقد بالإمام الذي عينه الباري عز وجل لها، ولا يكفي أن يعتقد بشخص الإمام ولا يعتقد بمقاماته وأدنى ما يجب أن يعتقد به هو أنه إمام مفترض الطاعة، فالإمامة منصب حقوقي وحقيقي معاً لا يكتمل الإيمان إلاّ به، ولذا تعتبر من أشرف المعارف في أصول الدين.

ولا يخفى أن الإمامة قسمان: إمامة هدى وإمامة ضلال، وإمام الهدى

يدعو إلى الله تعالى، وإمام الضلال يدعو إلى النار، والمقصود بالتعريف هو الأول لا الثاني؛ لأن إطلاق لفظ الإمام على الثاني من باب المعنى اللغوي لا الاصطلاحي كما هو واضح، ولا ينقض ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1]، بدعوى أن الجعل الإلهي يفيد أن الإمامة الباطلة يعينها الباري عز وجل، ولازم ذلك عدم وجوب إطاعتها وعدم الخروج عليها؛ لأن الجعل في الآية تكويني لا تشريعي، ويراد به أنه سبحانه يخلي بين أئمة الضلال وبين مقاصدهم فلا يمنعهم، أو يحول دون ما يريدون بالتصرف الإعجازي؛ لأنه يتنافى مع سنة الله سبحانه الجارية في تدبير الكون على نظام الأسباب والمسببات تتميماً لسنّة الاختبار والامتحان.

فالجعل هنا بمعنى الإذن التكويني ورفع المانع لا بمعنى التنصيب والتكليف بالطاعة والاتباع لهم كما هو الحال في رفع الموانع أمام أفعال العباد، فلا يحول دون صدورها منهم، كيف وقد نهى سبحانه عن الركون إلى الظالمين، ونهى عن إطاعة أمر المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[3] فضلًا عن القبح المترتب عليه.

هذا وليس البحث في الإمامة في هذا اليوم من المباحث التأريخية التي لا علاقة لها بحاضر الإنسان ولا في مستقبله، بل هي من أهم المباحث

---

١ - سورة القصص: الآية ٤١.

٢ - سورة الشعراء: الآية ١٥١.

٣ - سورة الإنسان: الآية ٢٤.

التي تصنع حاضره، وتبني مستقبله وتقوّم هويته؛ لأن الإمامة تحدد إيمان الإنسان وفكره ومنهجه وما يتفرع عليه من مواقف عملية في كل جوانب حياته الخاصة والعامة، فإن عبادات الإنسان ومعاملاته ونظامه السلوكي والأخلاقي في الحياة فضلاً عن نظامه السياسي والاقتصادي يتبع الإمام الذي يقتدي به، كما أن نظمه ونظامه وطعامه ومنامه يستقيه من إمامه.

وسيتضح فيما يأتي أهمية الإمامة في حياة الإنسان والمجتمع، وهنا نلفت النظر إلى حقائق:

الحقيقة الأولى: أن أول خلاف واسع وقع بين المسلمين منذ صدر الإسلام هو الخلاف في مسألة الإمامة، حيث انقسم الناس على الإيمان بنبوة النبي ﷺ إلى مؤمن وكافر ومنافق، وصارت الأمة بذلك فرقتين كما ذكر ذلك القرآن الكريم، وتواتر فيه التاريخ، وكان هذا الخلاف على أصل المعتقد والإيمان بالنبي وبدعوته المباركة.

واستمر هذا الخلاف بعد رحيل رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، ولكن لم يكن على أصل الإيمان به هذه المرة، وإنما على من يخلفه ويمثله في الأقوال والأفعال، ويكون حجة على الناس، وانقسم المؤمنون برسول الله ﷺ إلى فرقتين، فرقة تثبت خلافة النبي ﷺ في أهل بيته عليهم السلام، أي في علي أمير المؤمنين عليه السلام وأبنائه الطاهرين عليهم السلام، وفرقة تثبت ذلك لصحابته، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي عليه السلام على حسب الترتيب الزمني في خلافتهم.

الحقيقة الثانية: أن هذا الخلاف لازال قائماً بين المسلمين اليوم، فأمة كبيرة منهم تقول: إن الإمامة للصحابة وهي مستمرة فيهم، وأمة كبيرة منهم تقول:

إن الإمامة لأهل البيت عليهم السلام وهي مستمرة فيهم، وهي اليوم لمولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف كآخر الأوصياء من أهل بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولازال هذا الانقسام في أمر الإمامة أحد أهم عوامل الخلاف بين فرق المسلمين.

الحقيقة الثالثة: ليس البحث في الإمامة اليوم وتشخيص الموقف الصائب في هذا الأمر يقود إلى الفرقة والتناحر؛ لأن البحث عن الحقيقة أمر لابد منه في الحياة الإنسانية، وإلاّ خرجت عن النهج القويم، ووقعت في الخرافة أو الكذب والخداع. **هذا أولاً**.

وثانياً: لأنه لا ينبغي أن يمنع من البحث العلمي الحر أو يكف عنه بحجة وبأخرى؛ لأن العلم لا يقود إلى التناحر والنزاع، وإنما الذي يقود إلى ذلك هو التعصب الأعمى، والتمسك بالمواقف من دون تحقيق وبحث، أو الاستبداد بالرأي ومنازعة الحقيقة لأجل العناد والمكابرة، وأما البحث الموضوعي والمناقشة الهادئة المستندة إلى الأدلة والمنهج العلمي فتقود إلى الصواب والتلاحم والائتلاف. قال تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

الحقيقة الرابعة: أن البحث في الإمامة له بعدان:

أحدهما: تأريخي يتعلق بنقل الأحداث التي وقعت في أمر الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والدخول في تفاصيلها، وهذا أمر لا يرتبط بعلم الكلام، وإنما يختص به التأريخ وكتب السير فلا نخوض فيه هنا. وقد فصلنا بعض أبحاثه في كتابنا (الخلفاء والملوك).

١- سورة البقرة: الآية ١١١.

ثانيهما: ديني، تبتني عليه حياة الإنسان وسلوكه الشخصي والاجتماعي في مختلف مجالات الحياة الدينية والدنيوية؛ لأن الإمامة رئاسة إلهية عامة في شؤون الدين والدنيا، وبالتالي فالبحث فيها بحث عن المرجعية الشرعية التي يرجع إليها في الدين والحياة في الشؤون الخاصة والعامة، وهذا أمر يجب على كل مسلم، بل كل إنسان أن يخوض فيه ويدرسه دراسة علمية مستفيضة لكي يتنزه عن الخرافة والجهل في المعتقد أولاً، ثم يبني حياته ضمن المنهج الصحيح ثانياً. هذا فضلاً عن أن الإمامة من أهم أصول الدين؛ لأن الاعتقاد بها يستدعي الاعتقاد بالتوحيد والنبوة بالضرورة، بخلاف غيرها، فهي الأصل الذي يجمع سائر الأصول، والأدلة المثبتة لهذه الحقيقة كثيرة جداً نكتفي هنا بدليلين:

الدليل الأول: عقلي، فإن الذي يلتفت إلى معنى الإمامة وموقعها في الدين والآثار الكبيرة المترتبة على الإيمان بها في مقابل الأضرار الخطيرة المترتبة على الجحود بها أو الخروج عليها يجزم بأنها كالنبوة من المسائل التي يقوم عليها الدين والعقيدة، وبسببها يدخل العبد الإيمان كما يخرج منه بسببها؛ بداهة أن كل الدواعي والأغراض الشرعية والعقلية التي تلزم العباد بالاعتقاد بالنبوة والنبي موجودة في الإمامة والإمام، فكما لا تقوم للشريعة قائمة لولا النبوة فكذلك الإمامة، وهذا الاشتراك في الغاية والأثر يوجب الاشتراك في الحكم، ولا خلاف بين المسلمين في أن النبوة من أصول الدين، فكذلك الإمامة.

ولعل من هنا أدرجت مباحثها في ضمن مباحث أصول الدين لا فروعه، وتعرضوا إلى تفاصيل موضوعها وأحكامها ونتائجها في المسائل الإعتقادية لا الفقهية، وتؤيد ذلك شواهد:

الشاهد الأول: التعاريف التي ذكروها للإمامة، فإنها في مجملها تتناسب مع المسائل الأصولية لا الفرعية.

الشاهد الثاني: اتفاق الكلمة على عدم جواز الاجتهاد في الإمامة، وذلك بأن يجتهد البعض وينصب أحداً للإمامة أو يعزل إماماً استناداً إلى اجتهاده الظني، ومن هنا كفّر المسلمون من يقول بإمامة غير علي عليه السلام والعباس وأبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم [١] على اختلاف مذاهبهم، وبعضهم أفتى بقتل من لا يقول بإمامة أبي بكر، واستحل ماله وعرضه كما هو معروف في التاريخ[٢].

وهذا من موارد التناقض الكبير الذي وقع فيه الفكر غير الإمامي، حيث قالوا - بحسب المشهور بينهم - بأن الإمامة من الفروع، وفي عين الحال كفّروا من أنكر الإمام وإن لم ينكر الإمامة. هذا فضلاً عن تصريح جماعة من أعلام الجمهور بأن الإمامة من أعظم أصول الدين الذي مخالفته توجب الكفر والبدعة[٣].

الشاهد الثالث: اتفاق الكلمة على أن الإمامة هي العلة المُبقية للدين والنبوة، ولولاها لضاعت الشريعة واندرست آثار النبوة، وما يبنى عليه الأصل لابد وأن يكون أصلاً أيضاً، وإلاّ لزم الدور؛ بداهة أن الفرع يبتني على الأصل، فلو بني الأصل وهو الدين والنبوة على الفرع كان دوراً وخلفاً أيضاً.

---

١ - انظر توضيح المراد: ج٢، ص٦٧٣.
٢ - انظر توضيح المراد: ج٢، ص٦٧٤.
٣ - انظر توضيح المراد: ج٢، ص٦٧٤.

وتوضيحه: أنه لو لم تكن الإمامة من الأصول لوجب أن تكون من الفروع؛ لعدم وجود ضد ثالث لهما، فلو بني الدين والنبوة على الإمامة لزم بناء الأصل على الفرع، وهو محال؛ لأن الفرع يبنى على الأصل؛ إذ لولا الأصل لم يكن فرع، فإذا توقف الأصل على الفرع كان دوراً، بل خلفاً؛ لأن ما فرض أنه أصل للأصل جعل فرعاً وهو خلف.

الدليل الثاني: نقلي؛ إذ تواتر بطرق الفريقين عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية[١]، والمراد من ميتة الجاهلية ميتة الكفر موضوعاً أو حكماً، ولازم ذلك أن الإمامة من أصول الإيمان وعقيدة التوحيد والنبوة.

كما تواتر بطرق الفريقين أن أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ارتدوا بعده على أدبارهم القهقرى، وسيذادون عن الحوض يوم القيامة، ولا يشفع لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنهم يخرجون عن أمته[٢]، والسبب في ذلك كله هو إنكارهم إمامة علي عليه السلام التي نصبها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمر الأمة باتباعها.

ولو كانت الإمامة من الفروع لكان في إنكارها وعصيانها ارتكاباً للكبيرة، والكبائر مشفوع فيها في الآخرة كما نص عليه عموم القرآن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٣] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ادخرت الشفاعة

١ - الرسائل العشر: ص٣١٧؛ كمال الدين: ص٤٠٩؛ كشف الغمة: ج٣، ص٣٣٥؛ ينابيع المودة: ج٣، ص٣٧٢، ح٣.
٢ - البخاري: ج٧، ص٢٠٨.
٣ - سورة النساء: الآية ٤٨.

لأهل الكبائر من أمتي»[١].

هذا فضلاً عن تواتر القرآن والسنة على أن إطاعة الإمام هي إطاعة لله سبحانه وإطاعة للرسول، وولايته هي ولايتهما، وحيث إن إنكار الخالق والنبي كفر وخروج من الدين فكذلك الإمام؛ لأن حكم الأمثال واحد.

وسنمر خلال البحث على أدلة كثيرة تعزز هذه الحقيقة وتثبتها.

والخلاصة: أن الاعتقاد بالإمامة لابد وأن يكون في سياق الاعتقاد بسائر أصول الدين، فلا يجوز أن يخلو عنها زمان أو مكان، أو يتهاون فيها، أو يجحدها مسلم موحد.

ويجب على كل مكلف أن يعتقد بوجود إمام كامل معصوم في كل عصر هو ولي الله على عباده، وهو خليفة النبي ووصيه، وبيده جميع ما كان للنبي من المناصب والحقوق إلاّ النبوة من باب الولاية الإلهية على العباد بالنص والتعبد الشرعي، ولا يجوز للأمة أن تتدخل في تقديمه أو تأخيره أو تخالفه في قول أو فعل.

---

١ - ذكر اخبار إصبهان: ج١، ص١٦٣.

المطلب الثاني: في ضرورات الإمامة

هناك أكثر من ضرورة تدعو إلى معرفة الإمامة ثم الإيمان بها واتباعها. نكتفي ببيان خمس منها:

الأولى: الضرورة التكوينية

لا يقتصر دور الإمام في حياة البشر على البعد السياسي أو الفكري والاجتماعي، بل هناك دور أقوى مكانة وابلغ تأثيراً، بل هو الأصل لسائر الأدوار نعبر عنه بالدور التكويني، فإن الإمامعليه السلام جعله الله سبحانه قطب رحى الوجود في حركاته وسكناته وآثاره وتأثيراته؛ لأنه الواسطة في الفيوضات الإلهية، فكل نعمة في الوجود يمنّ الله سبحانه بها يوصلها إلى مستحقيها بواسطة الإمامعليه السلام؛ لأن الإمام وعاء المشيئة الإلهية والإرادة الربانية، وهذا ما قامت عليه ضرورة التكوين، ودلت عليه الأدلة العقلية والنقلية[1]، ويمكن أن نقرب غير المحسوس بمثالين من المحسوس:

---

١ - انظر الخرائج والجرائح: ج١، ص٤٥٩؛ الهداية الكبرى: ص٣٥٩؛ تفسير نور الثقلين: ج٨، ص٨٢-٨٣، ح٦٥- ح٦٦.

الأول: الشمس، فإنها حقيقة كونية ثابتة أوجدها الباري عز وجل لتكون مصدراً للنور والحرارة والخير على الأرض، كما أنها تحفظ التوازن في الكواكب والأفلاك، فلو اختفت الشمس وانطفأت أو انعدمت اختل نظام الكون.

والثاني: الماء، فإنه منشأ حياة الموجودات الحية، وهذا التأثير تأثير حقيقي لا اعتباري، فلا يمكن لأي كائن حي أن يعيش من دون ماء، ولو انعدم الماء في يومٍ ما أدى ذلك إلى انعدام الحياة.

ونلاحظ من خلال هذين المثالين أن للشمس وللماء دوراً تكوينياً في هذا العالم، فلا يعقل أن يبقى للوجود نظام من غير شمس، كما لا يعقل أن يبقى للوجود حياة بلا ماء، فالشمس سبب لحفظ النظام، والماء سبب للحياة.

وهذه الخصوصية التي ثبتت للشمس وثبتت للماء ليست ناشئة من ذاتهما، بل من الله سبحانه، إلاّ أن إرادة الله سبحانه اقتضت أن يجعل الشمس مصدراً لحفظ النظام والماء مصدراً للحياة في هذه الطبيعة، وهكذا أراد الله سبحانه للإمام أن يكون له دور تكويني في هذا الوجود، فيكون منشأ لنظام الوجود، وحافظاً لموازينه، ومصدراً لخيراته وبركاته، وهذا أمر تفرضه طبيعة الأشياء وبديهة العقل والسنن الإلهية، وذلك لأن عالم التكوين يتقوم بركنين هما: الماديات والمعنويات.

فكما أن للماديات مصادر للحياة والخير والبركة كالشمس والماء فلابد وأن يكون للمعنويات كذلك، وهذه المصادر لابد وأن تكون إلهية المنشأ وإلهية التأثير؛ إذ لا حياة ولا خير ولا بركة إلاّ منه تبارك وتعالى، وذلك يتجلى في أرقى مظاهره في الأنبياء والأئمة عليهم السلام، لا سيما أئمتهم وساداتهم

محمد وأهل بيته عليهم السلام، وقد أكد الباري هذه الحقيقة بالملائكة حيث جعلهم الوسائل في تدبير أمر الكون، وأشاد بمكانتهم ودورهم التكويني في هذا الوجود، ووصفهم بـ ﴿فَٱلْمُدَبِّرَاتِ﴾[١] و﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾[٢] و﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾[٣] وغيرها من الأوصاف المشيرة إلى أدوارهم التكوينية؛ ليكون الأمر أقرب إلى العقول، ومقبولاً لدى الأفهام العادية التي تؤمن بالمحسوس أكثر أو أسرع من غيره، كما يؤكد القرآن الحكيم هذه الحقيقة في مواضع كثيرة نكتفي منها بآيات ثلاث:

الأولى: آية الخلافة

فقد وصف الباري عز وجل أول مخلوق بشري بالخليفة فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٤] لأن الخليفة هو النائب عنه تبارك وتعالى في السلطة والتدبير على ما يقتضيه المعنى اللغوي للخلافة[٥]، ولذا يقال للسلطان الأعظم خليفة[٦].

وفي الأخبار المتضافرة بل المتواترة وصف الإمام عليه السلام بأنه يد الله وعينه ومظهر قدرته وإرادته وعن الصادق عليه السلام في ذكر صفات الأئمة عليهم السلام قال: «أن الله عز وجل أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا عن دينه، وأبلج

١ - سورة النازعات: الآية ٥.
٢ - سورة الذاريات: الآية ٤.
٣ - سورة النازعات: الآية ١.
٤- سورة البقرة: الآية ٣٠.
٥ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٤، (خلف).
٦- بصائر ذوي التمييز: ص٥٦٢، (خلف).

بهم عن سبيل منهاجه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، فمن عرف من أمة محمد صلى الله عليه وآله واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه، وعَلِمَ فضل طلاوة إسلامه؛ لإن الله تبارك وتعالى نصب الإمام علماً لخلقه، وجعله حجة على أهل مواده وعالمه، وألبسه الله تاج الوقار، وغشاه من نور الجبار، يمد بسبب إلى السماء، ولا ينقطع عنه مواده، ولا ينال ما عند الله إلاّ بجهة أسبابه، ولا يقبل الله أعمال العباد إلاّ بمعرفته، فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الدجى، ومعميات السنن، ومشبهات الفتن، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين عليه السلام من عقب كل إمام، يصطفيهم لذلك ويجتبيهم، ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم، كلما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً، علماً بيّناً، وهادياً منيراً، وإماماً قيّماً، وحجة عالماً، أئمة من الله يهدون بالحق، وبه يعدلون، حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد، وتستهل بنورهم البلاد، وينمو ببركتهم التلاد، جعلهم الله حياة للأنام، ومصابيح للظلام، ومفاتيح للكلام، ودعائم للإسلام، جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها»[1] ويستفاد من الحديث أمور:

أحدها: أن كل ما للإمام عليه السلام من الطاقات والمؤهلات الإلهية فهي من الله سبحانه لا من نفسه، بل الله سبحانه اختار الإمام وجعله في هذه المكانة العالية وهو بهذا المعنى يكون خليفة الله في أرضه وحجته على عباده.

وثانيها: أن الإمام عليه السلام هو الواسطة بين الله وبين خلقه، فبواسطة الإمام تحيا البلاد، وتنمو البركات، وتجري المقدرات.

---

١ - أصول الكافي: ج١، ص٢٠٣- ٢٠٤، ح٢.

وثالثها: أن الإمام عليه السلام هو حجة الله على خلقه، به يهتدي المهتدون إلى الحق والسعادة، وبالتخلي عنه يضل الضالون ويشقون.

ورابعها: أن الأئمة عليهم السلام الذين جعلهم الله حجة على عباده ومظهراً لإرادته وخيراته هم محمد وأهل بيته عليهم السلام من ذرية الحسين عليه السلام لا غير.

الثانية: آية الإطاعة

فقد وصف القرآن آل محمد عليهم السلام بأنهم ولاة الأمر، وأمر العباد بطاعتهم وجعلها امتداداً لطاعة رسوله صلى الله عليه وآله التي هي الأخرى امتداد لطاعة الله سبحانه؛ إذ قال سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[1] والأمر إذا أطلق يشمل الأمور التكوينية والتشريعية. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾[2] أي يجري أمر الله وحكمه بينهن، ويدبر تدبيراً فيهن، وقد روي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر»[3] أي مبثوث في جميع أقطار الأرض إلى كل نفس بما قدر الله لها من زيادة ونقصان في العمر والمال والحياة والولد وغير ذلك[4]، كما تتنزل الملائكة بأوامره إلى الأنبياء[5] سواء التكوينية أو التشريعية؛ لوضوح أن نزول الملائكة يتوقف على وجود منزل ومنزل عليه،

١- سورة النساء: الآية ٥٩.

٢ - سورة الطلاق: الآية ١٢.

٣ - شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج١، ص٣١٢.

٤- مجمع البحرين: ج٣، ص٢٠٩، (أمر).

٥- انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٤١٠؛ تفسير القرطبي: ج١٠، ص٣٦٨؛ الكشاف: ج٤، ص٦١٧؛ تفسير الرازي: ج١١، ص٣٤، تفسير الآية المباركة.

وليس اشرف وأعلى رتبة من النبي والأئمةعليهم السلام تنزل عليهم الملائكة كما في بعض الآيات[١]، ولذا وصفهم بولاة الأمر، أي الأولى بتدبيره والتصرف فيه على ما يفيده معنى الولي والولاية لغة وعرفاً[٢].

وباختصار: أن اطلاق الأمر في القرآن يشمل التكوين والتشريع كما عرفت، ولا يحمل على أحدهما إلاّ بسبب القرينة المعيّنة كما في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٣] فأن قرينة المقابلة تقتضي حمل الخلق على التكوين والأمر على التشريع، وحيث إن الآيات وصفت آل محمدعليهم السلام بأنهم ولاة الأمر فأن إطلاقه يشمل التكوين والتشريع معاً.

الثالثة: آية القدر

في سورة القدر نص الباري تعالى على نزول الأمر فيها؛ إذ قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[٤] وقد اتفق علماء الإسلام على أن الذي قدر ونزل فيها هو كل ما يتعلق بشؤون الخلق من الإحياء والإماتة والرزق والشفاء والزواج والولد وغيرها من المنافع والخيرات والبركات[٥]، وهو المروي عن أئمة الحقعليهم السلام في روايات متواترة في المعنى[٦]، وفي رواية

١ - انظر سورة النحل: الآية٢.

٢- انظر معجم مقاييس اللغة: ص١٠٦٥، (ولي)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٥، (ولي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٦٢، (ولي).

٣ - سورة الأعراف: الآية ٥٤.

٤- سورة القدر: الآية ٤.

٥ - مجمع البيان: ج١٠، ص٥٠، تفسير الآية المزبورة.

٦- انظر تفسير نور الثقلين: ج٨، ص٢٦٥- ٢٦٧، ح٨٢- ح٩٠.

الجواد عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لابن عباس: «إن ليلة القدر في كل سنة، وإنه ينزل في تلك الليلة أمر السنة، ولذلك الأمر ولاة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال ابن عباس: من هم؟ قال: أنا وأحد عشر من صلبي»[(١)] والأحاديث كثيرة بهذا المضمون[(٢)].

وهذا ما أكدته سورة الدخان في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾[(٣)].

وقد أجمع المفسرون على أن الليلة هي ليلة القدر، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام، والتفريق بين الأمور هو فصل بعضها عن بعض، وتمييز كل منها عن غيره بصفاته وخصوصياته، وصيغة المضارع تفيد الاستمرار، فلذا تختص الدلالة بالأمور التكوينية، وأما الأمور التشريعية من قبيل الأحكام الإلهية فإنه بعد نزولها مفصلة لا يبقى موجب لتكرار تفصيلها.

ومن الواضح أن القضاء الإلهي في التكوينيات له مرحلتان:

الإجمال: وهي مرحلة تعلق الإرادة الإلهية بالإيجاد.

التفصيل: وهي مرحلة التقدير والتقييد بحسب تلك الإرادة.

وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[(٤)] والتنزل في ليلة القدر، ومقتضى الجمع بين هذه الآيات وآية

---

١ - الكافي: ج١، ص٥٣٢، ح١١.

٢- انظر الكافي: ج١، ص٢٤٨ -٢٥١؛ ح٤، ح٦، ح٧، ح٨.

٣ - سورة الدخان: الآية ٣- ٥.

٤- سورة الحجر: الآية ٢١.

القدر يدلنا على أن المقدرات الإلهية في ليلة القدر تفصل، ولذا وصف الأمر بالحكيم من الإحكام والحكمة معاً، فكل موجود يقع على حسب ما قدره الله سبحانه له بلا زيادة أو نقصان، كما أنه يقع بمقتضى المصلحة والحكمة، فلا عبثية في الخلق والإيجاد.

وفي صحيحة حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن معنى قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1] قال: «يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل: خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق، فما قدر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم، ولله عزّ وجل فيه المشيئة»[2].

وفي الدر المنثور بسنده عن ابن عباس في معنى الآية قال: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج: يحج فلان ويحج فلان[3]، وكل ذلك بإذن الله وبأمره، ولذا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾[4].

والمستفاد من مجموع هذه الآيات المباركة أمور:

الأول: أن أمور التكوين كأمور التشريع لها أولياء يدبرونها ويفصلون فيها، وهم رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من بعده بما أنهم خلفاء الله وولاة أمر الله ومظاهر قدرته وأوعية مشيئته، وهم الذين تنزل عليهم الملائكة في ليلة القدر فيفرقون فيها كل أمر حكيم بأمر الله وإذنه وبذلك يتضح أن الضرورة

١- سورة الدخان: الآية ٤.

٢ - الكافي: ج٤، ص ١٥٧ - ١٥٨، ح٦.

٣- انظر الدر المنثور: ج٦، ص٢٥.

٤ - سورة الدخان: الآية ٥.

إلى الإمام واقعية تكوينية لا تشريعية فقط فلولا الإمام لم يكن وجود لعالم الإمكان فضلاً عن الحكومة والسلطة فيه.

والثاني: عصمة أولي الأمر، حيث قرن طاعتهم بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المطلقة، وهذا ما اتفقت عليه كلمة علماء الإسلام من حيث الكبرى، وإنما وقع الاختلاف في الصغرى، فإن أكثر الجمهور ذهبوا إلى أن مصداق أولي الأمر هم العلماء أو الحكام، واتفقت كلمة الإمامية على أنهم الأئمة عليهم السلام، والصواب هو الثاني؛ لما عرفت من أن الأمر بالطاعة المطلقة لأولي الأمر وجعل طاعتهم أمتداداً لإطاعة الرسول يستدعي عصمتهم، ولا أحد من العلماء أو الحكام معصوماً باتفاق الكلمة، فيخرجون عن مدلول الآية خروجاً موضوعياً، فينحصر المعنى بالأئمة الطاهرين عليهم السلام.

والثالث: أن أولي الأمر هم أعلم الأمة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بداهة أن من فرضت طاعته المطلقة على جميع الأمة لابد وأن يكون عالماً بجميع الأمور، وإلاّ كان الأمر بإطاعته مخالفاً للحكمة.

والرابع: أن أولي الأمر من هذه الأمة أناس معلومون ومحددون، وهم الذين تنزل عليهم الملائكة في ليلة القدر، والذين أمرت الأمة بإطاعتهم، والذين يحددهم النص في القرآن والسنة، وبهذا تبطل نظرية اختيار الأمة لولاتها بالبيعة أو بالشورى أو بالتعيين أو بالغلبة.

فولاة أمر الله هم الذين عينهم الله سبحانه واختارهم مظاهر لقدرته، وأعلاماً لدينه، واركاناً لبلاده، ومناراً لعباده، بهم ينتفع العباد في معاشهم، وبهم يهتدون في معادهم.

وهنا ربما يثار السؤال التالي: هل هذه المكانة الإلهية أعطيت لأئمة أهل البيت عليهم السلام جزافاً أم وفق موازين الحكمة البالغة؟

وفي الجواب نقول: قد يتوهم البعض أن هذا حصل عن إرادة الله سبحانه من دون حكمة ولا سنّة أو قانون، وذلك لأن الله سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1] إلّا أن هذا التوهم باطل؛ لأنه يتنافى مع قانون العقل الذي ينفي العبثية عن فعل الباري عز وجل كما عرفته في بحث التوحيد، كما يتنافى مع صريح القرآن الذي ينص على أن الإمامة الإلهية تعطى بحسب موازين الحكمة لمن يستحق، وقد نص القرآن على ثلاثة أمور جعلها شروطاً لتولي مقام الإمامة:

الأول: اليقين بالله سبحانه.

الثاني: الصبر في الابتلاء الإلهي.

الثالث: العصمة من الظلم.

هذه الشروط الثلاثة تصنع إنساناً كاملاً في علمه ومعتقده، نزيهاً في نفسه، مجالداً في أداء مهامه ووظائفه، وذلك هو ولي الله وحجته على خلقه، ففي الشرطين الأولين قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2] والجعل أي الإيجاد والإحداث[3]، ونسبته إلى

١- سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

٢ - سورة السجدة: الآية ٢٤.

٣-مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٩٧، (جعل)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣٥٦، (١٥١٧).

الله سبحانه يدل على أنه اختيار إلهي لا بشري، وتضمنت الآية الإشارة إلى أمرين:

أحدهما: وظيفة الأئمة وهي هداية الخلق وإرشادهم إلى مطلوبهم، وإيصالهم إلى ذلك يتضمن الهداية التشريعية بالأديان والشرائع والأحكام، والتكوينية بإيصال ما ينفعهم ويحقق مصالحهم في حياتهم الدينية والدنيوية، والتعبير عن هذه الوظيفة بالفعل المضارع يدل على العزم والاستمرار عليها من دون تخل أو انقطاع، فكل هداية وتوفيق وخير يناله الناس إنما يصلهم بفضل الإمام، وتؤكد الآية أن الوظيفة التي ينهض بأعبائها الإمام ترجع إلى إذن الله سبحانه وتوفيقه؛ لذا قال تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ إذ لا يمكن أن يكون الإمام هادياً ومرشداً من دون إذن وتوفيق من الله سبحانه.

ثانيهما: مؤهلات الأئمة، فإن فعل الله سبحانه منزه عن الجزاف والعبث، فلا يعقل أن يختار للخلق إماماً ويجعله حجة عليهم من دون سبب، وقد أشارت الآية إلى أن السبب يعود لأمرين هما يقينهم وعلمهم بالله سبحانه، وصبرهم على بلائه، وفي آية أخرى ذكر السبب الثالث وهو العصمة من الظلم، وبهذا تبطل دعوى الجبر في الإمامة أو في عصمتها، وهنا تفاصيل تتعلق بهذه الشروط لا بد من الوقوف عندها:

١ـ العلم واليقين

وصفت الآية المباركة الأئمة الذين يهدون بأمر الله بأنهم: ﴿وَكَانُوا

بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] ولم تصفهم بأنهم يؤمنون لأن مرتبة اليقين تفوق الإيمان، وقد تضمنت ثلاث دلالات هامة:

الأولى: دلالة كان في قوله: ﴿وَكَانُواْ﴾ فإنها تامة وليست ناقصة، فتفيد أن الأئمة وجدوا موقنين، فعلمهم ويقينهم لا ينفك عن ذواتهم، وهذا يتوافق مع مضامين الأخبار المتضافرة بل المتواترة معنى والدالة على أن أول ما خلق الله سبحانه الحجة، وأن النبي والأئمة عليهم السلام كانوا عابدين مسبحين منذ أن خلق الله سبحانه أرواحهم، وقد علّموا الملائكة التهليل والتسبيح.

الثانية: دلالة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإن الآيات في اللغة هي العلامات[2]، ونسبتها إلى الله سبحانه بواسطة ضمير الجمع (نا) إضافة تشريفية، ولعل وجه الجمع في الضمير يعود إلى متعلق اليقين وهو عموم الأفعال والصفات الإلهية، واليقين بوجود الذات ملازم لليقين بآثارها؛ لاستحالة أن يحيط المخلوق بذات الخالق، أو يدرك حقيقته، فانحصر طريق العلم به بواسطة آثاره وأفعاله، ولذا قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ولم يقل: «بنا يوقنون» وقال في غاية معراج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السموات: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾[3] فيكون علمه الإلهي في أعلى مراتبه لاشتراك العقل والنظر فيه، وهو ما يعبر عنه بحق اليقين.

الثالثة: دلالة الفعل المضارع (يوقنون) فإنها تفيد أن علمهم مستمر منذ أن

---

١ - سورة السجدة: الآية ٢٤.

٢- انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨٥،(أي)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٠١، (أي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٣٩، (أيا).

٣- سورة الإسراء: الآية ١.

وجدوا، وأن هذا اليقين والاستمرار عليه واقع بإرادتهم واختيارهم لما يتضمنه الفعل المضارع من الدلالة في المعنى والمضمون، ومن هنا انحصر التعبير به ولم يرد بصيغة أخرى كاسم الفاعل مثلاً فيقول: (موقنون) أو (متيقنون).

ويعضد هذه الحقيقة التعبير عن العلم باليقين، فقال: (يوقنون) ولم يقل: (يعلمون) لأن اليقين لغة وشرعاً وعرفاً ما يصل إلى القلب ويستقر فيه، بحيث لا يداخله احتمال أو شك[١]، وهو فوق المعرفة والدراية وأخواتها[٢] كالإدراك والفهم والاعتقاد، فاليقين ما يزيل الشك دون غيره من المفردات الدالة على العلم والمعرفة[٣]، ولهذا لا يجوز أن يوصف علم الباري سبحانه باليقين لعدم تطرق الشك والاحتمال إليه سبحانه، كما أنهم يجعلون اليقين في مقابل الشك فيقولون شك ويقين، ولا يقال شك وعلم[٤].

والحاصل: لقد وصف القرآن الكريم أئمة الهدى الذين يحظون بالمكانة الإلهية بأنهم يوقنون بآيات الله، وهذا اليقين مستقر في قلوبهم بحيث لا يزيله شك أو يداخله ضعف، وهو ما يؤكده قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[٥] ولسائل أن يقول هنا: ما هي حقيقة اليقين الذي يعد شرطاً في الإمامة الإلهية؟

١- انظر مجمع البحرين: ج٦، ص١٢١،(علم)؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٨١٣، (اليقينيات).

٢- مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٩٢، (يقن).

٣ - معجم الفروق اللغوية: ص٣٧٤، (١٥١٠).

٤ - معجم الفروق اللغوية: ص٣٧٤، (١٥١٠).

٥- منتهى المطلب: ج٣، ص٤٤؛ المناقب (لابن شهر اشوب): ج١، ص٣١٧؛ مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص١٦٣.

والجواب: أن المراد من العلم هنا هو العلم بالله سبحانه وبشؤونه تبارك وتعالى وصفاته وأفعاله ومخلوقاته، وهذا العلم ليس من العلوم الحصولية التي يكتسبها الإنسان بالتحصيل والدراسة، بل هو علم روحاني يصل إليه العبد من خلال سمو النفس وقربه من ربه تبارك وتعالى وإخلاص العبودية له، فهو مرتبة عالية من مراتب العلم الحضوري على قول الأكثر، أو هو مرتبة عليا من اليقين والعلم اللدني على ما ستعرفه في مبحث علم الإمام عليه السلام، ولذا وصفته الآية باليقين، وأرادت به حق اليقين لا علمه أو عينه.

وتوضيح ذلك: يتم ببيان مقدمتين:

الأولى: أن العالم على قسمين: عالم الغيب وعالم الشهادة، والمراد من عالم الغيب الوجود الغائب عن الحس، ولا يدركه الإنسان عبر حواسه المادية ولا بالعقول البدائية، فيشمل الحقائق المجردة والمعنوية من صفات الباري عز وجل وأفعاله والملائكة والبرزخ والجنة والنار وكل ما لا يدرك بالحواس، وهو قسمان: قسم أختص الباري سبحانه به ولم ينصب عليه دليلاً لا عقلياً ولا سمعياً، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ**﴾[1] وقسم نصب عليه الدليل العقلي أو السمعي كالصانع وصفاته، ويوم الآخرة وأحواله، ولذا جعله من أبرز صفات الإيمان والمؤمنين في قوله تعالى: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ**﴾[2] وعالم الشهادة عكسه مأخوذ من الشهود أي الحضور مع

١- سورة الأنعام: الآية٥٩.

٢ - سورة البقرة: الاية٣.

المشاهدة[١]، وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[٢] أي عالم بما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بهما[٣].

الثانية: أن اليقين على ثلاث مراتب هي: علم اليقين وهو ما حصل عن نظر واستدلال، وعين اليقين وهو ما حصل عن مشاهدة وعيان، وحق اليقين وهو ما حصل عن إدراك حسي وعقلي معاً، فعلم اليقين كمن علم بوجود النار من خلال معرفة دخانها، وعين اليقين كمن مشى ووقف عندها وعاينها، وحق اليقين كمن اصطلى بها واحترق.

والفرق بين المراتب الثلاث كبير، فإن علم اليقين لا يمنع من مداخلة الشك فيه بحكم أن الإنسان لم ير عين النار، بل رأى آثارها ولذا يمكن أن يشك في أن هذا الأثر كان للنار أم لغيرها.

وعين اليقين هو الآخر لا يمنع من وقوع الوهم، فإن من وقف عند النار ورآها بعينه ولم يحس بحرارتها يمكن أن يكون قد توهم النار، وربما هو شيء آخر له صورة النار، كمن يرى صورة النار في المرآة فإنها من حيث الشكل نار إلاّ أنها ليست حقيقية.

وأما حق اليقين فهو اليقين الحقيقي؛ لأنه ملازم للإحساس بالنار بحكم أنه ناشئ من الاحتراق بها والإحساس بحرارتها، ومع هذا الإحساس لا يبقى مجال للشك أو الوهم فيها.

١ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٦٥،(شهد).

٢ – سورة السجدة: الآية٦.

٣– انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٦٦،(شهد).

والعلم بالحقائق الغيبة كذلك، فإن الشخص الذي يعلم بأن الله موجود وواحد فعنده يقين به إلاّ أن خبره من البعيد، فلذا يكون عنده علم اليقين، وأما من يصل بالكشف الروحي والخفي وتتجلى عليه الصفات بلغ عين اليقين، وهو صاحب مكاشفة ومشاهدة، وأما الشخص الذي وصل إلى التجلي الذاتي والمشاهدة الذاتية فهذا عنده حق اليقين، وصار صاحب وصال واتصال[١]، وربما إليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام في جواب السؤال هل رأيت ربك؟ قال: «وكيف أعبد رباً لم أره»[٢] وفي قول آخر: «وما شيئا إلّا ورأيت رأيت الله قبله وبعده ومعه»[٣].

وبهذا يختلف نور الإيمان عن نور اليقين، فإن نور الإيمان يقع من وراء الحجاب، ونور اليقين عند كشف الحجاب، وكذا وصف المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب لا يوقنون به، ومثل الفرق بين النورين مثل الأعمى والبصير إذ أخبرا بطلوع الشمس، فأن إخبار البصير بالمشاهدة ورفع الحجاب بخلاف إخبار الأعمى.

ومن خلال هاتين المقدمتين نعرف أن اليقين الملازم للإمامة الإلهية هو حق اليقين الذي لا يداخله شك أو وهم في كلا العالمين، وهو الذي أشار إليه القرآن الكريم في إبراهيم عليه السلام إذ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[٤] والملكوت له إطلاقان أدبي وهو

١ - كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٨١٤.
٢ - نهج السعادة: ج٨، ص٤١.
٣ - اللمعة البيضاء (للتبريزي الانصاري): ص١٦٩.
٤ - سورة الأنعام: الآية ٧٥.

مصدر يرد للمبالغة إشعاراً بالإكثار مأخوذ من الملك كالرحموت والجبروت، فإذا نسب إلى الخالق تبارك وتعالى دل على تأكد الملك وقوة تصرفه فيه؛ إذ الملك عنده سبحانه حقيقي واقعي لا يشوبه نقص ولا مشاركة ولا زوال، كما لا يقبل النقل أو التفويض بحيث ينقطع الانتساب إليه سبحانه، والإطلاق الثاني اصطلاحي يطلق بلحاظ إبصار الحقائق المعنوية والتصرف فيها فضلاً عن الحقائق الظاهرة[1].

ولا شك في أن الذي يرى حقائق الأشياء ظاهرها وباطنها ينتهي إلى التوحيد، ويذعن للربوبية؛ إذ إن جميع الأشياء مظاهر لقدرة الخالق وآثار لعلمه وحكمته، وإطلاق الآية يشمل الاثنين معاً، واللام في الآية للتعليل، فتدل على أن الغاية من إراءة الملكوت هو الوصول إلى اليقين.

يؤكد هذا المعنى بالحديث الطويل الذي رواه الطبرسي قدس سره في الاحتجاج عن النبي الخاتم صلى الله عليه وآله في محاورته لأبي جهل في معنى إراءة الملكوت لإبراهيم عليه السلام، وقد ورد فيه: «قوى الله بصره لما رفعه دون السماء حتى أبصر الأرض ومن عليها ظاهرين ومستترين»[2] وفي رواية زرارة عن أبي

١ - في اصطلاحات الصوفية الملك عبارة عن عالم الشهادة، والملكوت عالم الغيب، والجبروت عالم الأنوار، واللاهوت ذات الحق.

وقيل أن كل شيء من الأشياء الوجودية ينقسم بين ثلاثة أقسام، قسم ظاهر ويسمى بالملك، وقسم باطن ويسمى بالملكوت، وقسم ثالث هو المنزه عن الملك والملكوت ويسمى بالجبروت، وهو ما يتعلق بالحق تعالى، انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٦٤٣.

٢ - الاحتجاج: ج١، ص٦٥.

جعفر(عليه السلام) قال: «أعطى بصره من القوة ما بعد السموات والأرض، فرأى السموات وما فيها، ورأى العرش وما فوقه، ورأى الأرض وما تحتها»[١].

وصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٢] تدل على أن هذا اليقين هو الرتبة العالية منه التي لا تقبل الشك أو الوهم، وذلك لأن من تأهل لرؤية ملكوت السموات والأرض لابد وأن يكون على مستوى من العلم واليقين، فإن انكشاف أسرار العوالم لا تليق بالجاهل أو الشاك، ونسبة الإراءة إلى الله سبحانه دالة على وجود استعداد ولياقة كبيرة في إبراهيم(عليه السلام) حتى يكافئه الباري عز وجل بإطلاعه على عالم الملكوت الذي هو من عالم الغيب، فكان مشاهداً له متحسساً بحقائقه، فتدل الآية على أن إبراهيم(عليه السلام) كان موقناً، ورؤيته لعالم الملكوت جعلت يقينه حقاً، وهذا اليقين هو الذي يصل إلى الشهود بسبب الدنو والقرب المعنوي كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٣] ونستنتج من الآية عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن أفضلية إبراهيم(عليه السلام) على سائر الأنبياء إلاّ النبي الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) حتى جعله الله إماماً نشأت من قوة يقينه، وتجلده وصبره على رد الشرك، وإبطال مزاعم المشركين، وهداية الناس إلى التوحيد والفطرة.

الحقيقة الثانية: أن الإفاضات الربانية مستمرة على إبراهيم(عليه السلام)، فإن من يحمل رسالة إلهية كبرى لابد وأن يعده ربه إعدادا كاملاً، فينور عقله، ويزكي

١ - تفسير العياشي: ج١، ص٣٦٤، ح٣٦.
٢ - سورة الأنعام: الآية ٧٥.
٣- سورة المطففين: الآية ١٨-٢١.

قلبه، ويشد أزره، ويقوي عزمه وصبره، كما قال سبحانه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِى﴾(١) وكانت إراءة الملكوت وأمره بذبح ولده وابتعاده عن أهله وولده ثم إلقاؤه في النار من المقدمات الإعدادية لذلك، وهذا يؤكد أن النجاح في الابتلاء الإلهي هو شرط الإمامة.

الحقيقة الثالثة: أن العلم الذي يوصل صاحبه إلى مقام الولاية والإمامة هو النافذ في حقائق الأشياء وخصوصياتها وآثارها وعلاقاتها مع بعضها وارتباطها بخالقها ومكونها، فإن هذه الرتبة من العلم تكشف عن كماله وجماله وسائر صفاته الجمالية والجلالية، فيكون الإيمان به إيماناً راسخاً لا يناله شك أو وهم، ويبلغ بها العبد درجة اليقين، وقد عبرت عنه الآية برؤية الملكوت التي تقوده هي الأخرى إلى صفاء القلب والتنزه من العيوب والنقائص والتفاني في التوحيد والعبودية وخلوص النية والصبر في الدعوة إليه.

الحقيقية الرابعة: أن هذه الفيوضات الربانية ومشاهدة الملكوت لا تختص بإبراهيم عليه السلام، بل تشمل من كان أقرب منه مكاناً وأعلى رتبة وهو الحبيب المصطفى محمد وآله المعصومون، وهذا ما تؤكده الروايات الكثيرة المعتبرة سنداً والصريحة دلالة.

ومنها: ما رواه الكليني رحمه الله في جواب أمير المؤمنين عليه السلام لسؤال للجاثليق عن العرش وحملته ورد فيه: «وهو الملكوت الذي أراه الله أصفياءه، وأراه

١ - سورة طه: الآية ٤١.

خليله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾(١)»(٢).

ومنها: ما ورد في تفسير علي بن إبراهيم في بيان كيفية رؤية الملكوت برواية صحيحة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كشط له عن الأرض - أي كشف له ذلك - ومن عليها، وعن السماء ومن فيها، والملك الذي يحملها، و العرش ومن عليه، وفعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام»(٣).

ومنها: ما روي في الخرائج والجرائح أن أبا بصير سأل الصادق عليه السلام: هل رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ملكوت السماوات والأرض كما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام؟ قال: «نعم وصاحبكم والأئمة من بعده»(٤) كما ورد هذا المعنى عن الباقر(٥) عليه السلام.

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره في الخصال عن الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام ورد فيه: «والله لقد أعطاني الله تبارك وتعالى تسعة أشياء لم يعطها أحد قبلي خلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لقد فتحت لي السبل، وعلمت الانساب، وأجري لي السحاب، وعلمت المنايا والبلايا وفصل الخطاب، ولقد نظرت في الملكوت بإذن ربي جل جلاله فما غاب عني ما كان قبلي وما يأتي بعدي»(٦).

ومنها: ما رواه الصدوق قدس سره بسنده عن ثابت بن دينار قال: سألت زين

١- سورة الأنعام: الآية ٧٥.
٢- الكافي: ج١، ص١٢٩، ح٤؛ بحار الأنوار: ج٣٠، ص٧١؛ ج٥٥، ص١٠، ح٨.
٣ - تفسير القمي: ج١، ص٢١٢- ٢١٣ سورة الأنعام.
٤ - الخرائج والجرائح: ج٢، ص٨٦٦، ح٨١.
٥- الخرائج والجرائح: ج٢، ص٨٦٧، ح٨٣.
٦ - الخصال: ج٢، ص٤١٤-٤١٥، ح٤.

العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: «تعالى عن ذلك» قلت: فلم أسري بنبيه محمد صلى الله عليه وآله إلى السماء؟ قال: «ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه» قلت: فقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[1] قال: «ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات، ثم تدلى عليه السلام فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب كقاب قوسين أو أدنى»[2].

ومن مجموع هذه الروايات نتوصل إلى أن الإمامة الإلهية على الخلق تتقوم بالعلم واليقين بالله سبحانه وبشؤونه وقدرته النافذة في جميع الأشياء ظاهرها وباطنها، وهذا ما تعضده الآيات المباركة الدالة على أن حجج الله يتمتعون بعلم الكتاب، وأن هذا العلم له مراتب عديدة وبمقدار ما يمتلكون من علم الكتاب تتسع ولايتهم وإمامتهم، فمثلاً آصف بن بلخيا وزير سليمان أحضر عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين بأسرع من غمضة عين بسبب ما كان يمتلكه من علم بالكتاب التكويني كما قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[3] وهذا العلم لم يكن واسعاً يشمل كل أبعاد الكتاب التكويني، بل هو شطر من العلم كما تؤكده (من) حيث قال ﴿عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وبحدود هذا العلم كانت لآصف ولاية إلهية على الأشياء كعرش بلقيس.

١ - سورة النجم: الآية ٨-٩.
٢ - علل الشرائع: ج١، ص١٣١-١٣٢، ح١؛ الأمالي (للصدوق): ص٢١٤، ح٢٣٨.
٣ - سورة النمل: الآية ٤٠.

وفي آية أخرى أكد القرآن أن بعض الأولياء يملكون علم الكتاب كله لا بعضه، ففي مقام مناقشة الكفار الذين كانوا يتمردون على حقائق الإيمان وينكرون كل ما يأتي لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من براهين ومعاجز على التوحيد أمره سبحانه أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1] وقد وردت الروايات المتضافرة بل المتواترة بطرق الفريقين في أن الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين عليه السلام[2].

منها: رواية أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله جل ثناؤه: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: «ذاك وصي أخي سليمان بن داود» فقلت له: يا رسول الله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: «ذاك أخي علي بن أبي طالب»[3].

ومنها: ما في تفسير علي بن إبراهيم قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلاّ إن العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم النبيين في عترة خاتم النبيين»[4].

ومنها: معتبرة عبد الله بن بكير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كنت عنده فذكروا سليمان وما أعطي من العلم، وما أوتي من الملك، فقال لي: «وما أعطي سليمان بن داود إنما كان عنده حرف واحد من الاسم الأعظم

١ - سورة الرعد: الآية ٤٣.

٢- انظر آيات العقائد: ص٣٧٦.

٣- الأمالي (للصدوق): ص٦٥٩، ح٨٩٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٦٣، ح٢١٧؛ وانظر مجمع البيان: ج٦، ص٥٣- ٥٤، تفسير الآية المزبورة.

٤ - تفسير القمي: ج١، ص٣٦٧؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٦٢، ح٢١٠.

وصاحبكم الذي قال الله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وكان والله عندعلي عليه السلام علم الكتاب»[١].

وفي رواية بريد بن معاوية عن أبي جعفر عليه السلام في معنى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: «إيّانا عنى، وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة[٣].

٢ـ الصبر في الابتلاء الإلهي

أشار قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[٤] إلى أن للصبر قيمة عليا في الإمامة الإلهية بعد العلم واليقين، وذلك لأن الاختبار يصقل حقيقة الإنسان، ويظهر معدنه، كما أنه يربيه ويعلمه على تحمل المسؤولية وأداء الواجب، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد جعله الله سبحانه إماماً بسبب نجاحه في الابتلاء الذي ابتلاه الله به، فقد صبر وسلم أمره إلى الله فنال مقام الإمامة على الأنبياء طراً إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٥] والابتلاء في الأصل التكليف بالأمر الشاق مأخوذ

١ - بصائر الدرجات: ص٢٣٢، ح١.
٢ - أصول الكافي: ج١، باب ٩٢، ص١٣١، ح٦١٢.
٣ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤٦٠- ٤٦٣، الأحاديث ٢٠٣- ٢١٩؛ ينابيع المودة: ص١٠٢؛ آيات العقائد: ص٣٧٥- ٣٧٦.
٤ - سورة السجدة: الآية ٢٤.
٥ - سورة البقرة: الآية ١٢٤.

من البلاء[١] وقد وقع ابتلاء إبراهيمعليه السلام واختباره في قضايا متنوعة تحمل فيها وصبر وسلّم أمره إلى الله سبحانه.

منها: سلامة العقيدة؛ إذ نزه الخالق من التشبيه والتجسيم واستخلص المعرفة بالتوحيد حين نظر إلى الكوكب والقمر والشمس، فلما أفلت قال: لا أحب الآفلين وتوجه إلى رب العالمين الدائم القائم الذي لا يناله ضعف أو أفول، وكان هذا امتحان في سلامة المعتقد واليقين بالمعبود.

ومنها: التجلد والشجاعة في إبطال الأنداد، حيث تصدى للكفار وآلهتهم بمفرده، وجعل الأصنام جذاذاً إلاّ كبيراً منها، ثم حطم مكانته بإظهار عجزه وقصوره في كل شيء ليقود الناس إلى الإله الواحد القوي العزيز، وكان هذا امتحان في تحمل مسؤولية الرسالة والتضحية في سبيلها، وقد صبرعليه السلام وتحلم في ذات الله ولم يبال بما ناله من الأذى، فوصفه تعالى بأنه: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٢].

ومنها: انفراده وعزلته الاجتماعية عن العشيرة بل اسرته الخاصة كأبيه أو عمه كل ذلك لأجل رسالته، وهي من أشق التحديات التي تواجه الإنسان الذي هو اجتماعي ومدني بطبعه؛ إذ قال لهم: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٣].

ومنها: سماحته وسعة صدره مع أبيه، حيث قال له: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ

١ – انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٣؛ تفسير كنز الدقائق: ج٢، ص١٣٥، تفسير الآية المزبورة.
٢ – سورة هود: الآية ٧٥.
٣ – سورة مريم: الآية ٤٨.

لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[١] وصبره على سوء خلق زوجته كما في بعض الأخبار[٢].

ومنها: صبره في المحنة والعذاب حين جعل في المنجنيق وقذف في النار المستعرة ولم يلن عزمه، أو يطلب العون إلاّ من الله سبحانه.

ومنها: تسليمه لأمر الله حينما أمره بذبح ولده إسماعيل عليه السلام، وهذا الامتحان الأصعب، فلبى نداء ربه ولم يلتفت إلى مشاعره الإنسانية أو مصالحه الخاصة، وقد واجه كل ذلك بحب وإخلاص وتفانٍ بلا تردد أو شك، وقد أشار القرآن إلى ذلك في سورة الصافات؛ إذ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي

١- سورة مريم: الآية ٤٦- ٤٧.

٢- مجمع البيان: ج١، ص٣٧٦، تفسير الآية المزبورة.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١] والكلمات التي وقع الابتلاء بهن فسرت بتفسيرين:

الأول: الرؤية التي رآها إبراهيم عليه السلام في نومه من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب فأتمها إبراهيم، وعزم عليها، وسلم لأمر الله روي هذا عن الصادق عليه السلام [٢]، ولذا وصف الباري عز وجل هذا البلاء بالشدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾ ولشدته يكون مبيناً؛ لأنه يظهر أثره على المبتلى، ومما زاده شدة أنه وقع في كبر إبراهيم عليه السلام، فإن وطأة الضغوط النفسية على الكبير في السن أبلغ أثراً، لاسيما وأن ولادة إسماعيل جاءت بعد أن شاخ إبراهيم ومسه الكبر، وكذلك زوجته كما تحدث القرآن في سورتي الحجر وهود[٣]، وفي مثل هذا السن تزداد شفقة الأب ورحمة الأم لزيادة رقة الروح وشفافيتها.

وقد روي أنه بعد أن أمر بذبح ولده قال لولده: بني خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه فقال: يا أبت أشدد رباطي حتى لا اضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح من دمي شيئاً فتراه أمي، واشحذ شفرتك وأسرع من السكين على حلقي ليكون أهون عليّ، فإن الموت شديد، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله[٤].

والثاني: أنه ابتلاه بثلاثين خصلة من شرائع الإسلام لم يبتل أحداً بها،

١- سورة الصافات: الآيات ٨٣- ١١٠.

٢- انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٣، تفسير الآية المزبورة.

٣- انظر سورة الحجر: الآية ٥٤؛ وسورة هود: الآية ٧٢.

٤- انظر تفسير الميزان: ج١٧، ص١٥٦- ١٦٧، تفسير الآية ١١٥ من سورة الصافات.

فأقامها كلها إبراهيم فأتمهن، فكتب له البراءة، فقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[1] كما أنه ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس والختان وبذبح ابنه وبالنار وبالهجرة وقد وفى بها جميعاً[2].

والحاصل: أن بقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ قضايا ابتلي بها وعهود إلهية أريدت منه كان ما ذكر منها وقد سلم فيها جميعاً إلى الله سبحانه، ولعل السبب الذي لم يبين الباري عز وجل حقيقة هذه الكلمات هو أن المذكورات من باب المثال وليس لخصوصية فيها، وفيه إشارة إلى أن الله لابد وأن يمتحن أنبياءه، ولابد أن يكونوا في أعلى درجات الصبر والتسليم ليحظوا بالمقامات العالية.

وقوله سبحانه في نهاية الآيات المتقدمة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ قد يكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن سنّة الله سبحانه جرت في إعطاء المقامات المعنوية، ومنها مقام الإمامة على الاختبارات الصعبة والابتلاءات الشاقة، فان أتموا الابتلاء جازاهم بأحسن الجزاء في الدنيا والآخرة.

والإتمام في اللغة له معان عديدة، وما يناسب المقام منها الوفاء في مقابل التخلي والتقصير[3]، ومرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ يحتمل أمرين أيضاً:

أحدهما: إبراهيم عليه السلام، فيكون المعنى أن إبراهيم عليه السلام أتم ما طلب منه، وامتثل الأمر الإلهي بها.

---

١ - سورة النجم: الآية٣٧.

٢ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٤.

٣- انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٢.

وثانيهما: أنه الباري عز وجل، فيكون المعنى أنه سبحانه وفق إبراهيم واستجاب دعاءه فأوصله إلى مقام الإمامة بعد أن نجح في الاختبار، وهو المروي عن الصادقعليه السلام، فقد سأله المفضل بن عمر عن الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم؟ قالعليه السلام: «هي الكلمات التي تلقاها آدمعليه السلام من ربه فتاب عليه، وهو أنه قال: يا ربَّ! أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليّ، فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم» فقلت له: يا بن رسول الله فما يعني بقوله ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: «أتمهن إلى القائم اثني عشر إماماً، تسعة من ولد الحسينعليه السلام» قال المفضل: فقلت له: يا بن رسول الله! فأخبرني عن كلمة الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[1] قالعليه السلام: «يعني بذلك الإمامة، جعلها الله في عقب الحسين إلى يوم القيامة»[2].

وكلا المعنيين يدلان على أن الامتحان الإلهي سنّة إلهية في أنبيائه فلا ينال أحدهم مقام الإمامة إلاّ بعد امتحان وابتلاء عظيم.

ويؤكد هذا المعنى ما ورد عنهم عليهم السلام في دعاء الندبة الشريف المشهور رواية وعملاً؛ إذ جاء فيه: «أللهم لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في

---

١ - سورة الزخرف: الآية ٢٨.

٢ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٥ تفسير الآية المزبورة، وقد ورد في تتمة الرواية: فقلت له: يا بن رسول الله! فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسنعليه السلام وهما جميعاً ولدا رسول اللهصلى الله عليه وآله وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة؟ فقال: «إن موسى وهارون نبيان مرسلان أخوان فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى ولم يكن لأحد أن يقول: لم فعل الله ذلك؟ وإن الإمامة خلافة الله عز وجل ليس لأحد أن يقول: لم جعلها الله في صلب الحسين دون صلب الحسن؛ لأن الله عز وجل وهو الحكيم في أفعاله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون».

أوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك؛ إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها، فشرطوا لك ذلك، وعلمت منهم الوفاء به، فقبلتهم وقرّبتهم وقدمت لهم الذكر العلي والثناء الجلي، واهبطت عليهم ملائكتك، وكرمتهم بوحيك، ورفدتهم بعلمك، وجعلتهم الذرائع إليك والوسيلة إلى رضوانك»[١] وتشير الفقرة الشريفة إلى حقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: وجود ملازمة بين الاصطفاء الإلهي لأولياء الله سبحانه وبين صبرهم في الطاعة والزهد في الدنيا ومجالدتهم على مكارهها وصعوباتها.

الحقيقة الثانية: أن التزام الأولياء بهذا الشرط ووفاءهم به أعطاهم أهلية الولاية، وصيرهم محلاً للفيوضات الربانية، فبادلهم الله سبحانه الالتزام بأن جعلهم أولياءه وأحباءه، يذكرهم ويذكرونه، يعبدونه حباً وإخلاصاً لا خوفاً ولا طمعاً، وأهبط عليهم ملائكته تحدثهم وتعلمهم وتبلغهم عن الله ما يشاء، ورفدهم بالعلوم الإلهية فكانوا منابع العلم ومصادر الحكمة، وأيضاً جعلهم وسائط بينه وبين خلقه بواسطتهم يتقرب العباد إلى الله، وبهم ينالون خيره وفضله ورضوانه، فأولياء الله هم أحباؤه ومهبط ملائكته ومنابع علومه وشفعاء خلقه، لا ينال ما عند الله إلاّ بواسطتهم وهذه المقامات العالية، لا ينالونها عبثاً أو اعتباطاً، بل بالمؤهلات الذاتية التي من أهمها الزهد في الدنيا والصبر على بلائها.

---

١ - انظر أوائل المقالات: ص٥٨؛ المزار الكبير: ص٥٧٤؛ بحار الأنوار: ج٩٩، ص١٠٤، أقول.

والخلاصة: أن أولياء الله يمتحنون امتحانات إلهية عدة بعضها أشد من بعض، فإن صبروا استحقوا مقام الولاية، ولذا قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[١] ليدل على أن أولي العزم من الأنبياء صبروا وتحملوا فنالوا هذا المقام. نعم تتفاوت درجاتهم ومقاماتهم بحسب مراتب صبرهم وتحملهم، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»[٢] ولذا كان مقامه فوق جميع الأنبياء.

ونلاحظ أنه وبالرغم من الأذى الشديد الذي لقيه في سبيل دعوته المباركة لاسيما من قومه ومجتمعه إلاّ أنه لم يدع عليهم، بل كان يدعو لهم ويقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[٣]بل ويبكي عليهم، ويحرص على نجاتهم ويتحسر بسبب تعرضهم للهلاك في الضلالة حتى قال عنه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[٤].

بينما نبي الله نوح طلب من الله اهلاك قومه والعفو عن المؤمنين من قومه فقط: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[٥].

وهذه إحدى جهات الفرق بين مقام نبي الله نوح عليه السلام وبين مقام خاتم

١ – سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

٢ – انظر كشف الغمة: ج٢، ص٥٣٧.

٣ – انظر بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢١.

٤ – سورة فاطر: الآية ٨.

٥ – سورة نوح: الآية ٢٦– ٢٨.

النبيين﴿عليهم السلام﴾، فانه كلما كان البلاء شديداً والصبر عليه كذلك كان المقام ارفع والإمامة أوسع، ولذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١] وقد أشار القرآن الكريم إلى أن النبي آدم نال الدرجة الأدنى بالقياس إلى سائر الأنبياء؛ لأنه لم يصبر كما صبر غيره؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[٢].

ومن ذلك يتضح أن التفضيل بين الأنبياء كالتفضيل بين البشر لم يكن جزافاً بلا قانون أو حكمة، بل يخضع لسنّة الابتلاء والامتحان الإلهي، وبحسب تفاوت درجات الصبر والنجاح تتفاوت الدرجات.

٣- العصمة من الظلم

وهذا ما أكده القرآن في دعوة إبراهيم﴿عليه السلام﴾، فإنه بعد أن نجح في امتحانه اصطفاه الله سبحانه للإمامة، وجعلها في ذريته غير الظالمين منهم، فجعل العصمة من الظلم شرطاً لنيل هذا المقام؛ إذ قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣] والظلم هو التجاوز عن الحد بزيادة عنه أو بنقصان منه[٤]، والعهد هو الإمامة بقرينة السياق والنصوص الواردة عن الأئمة﴿عليهم السلام﴾[٥]،

---

١ – سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

٢ – سورة طه: الآية ١١٥.

٣ – سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٤ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٣٧، (ظلم)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٦١٧، (ظلم).

٥– انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٧؛ كنز الدقائق: ح٢، ص١٣٨، تفسير الآية المزبورة.

وعليه أكثر المفسرين[1]، وفي الآية دلالة واضحة على أمرين:

أحدهما: أن الإمام لابد وأن يكون معصوماً من الظلم بجميع مراتبه، فإن الظلم على أصناف ثلاثة:

الأول: ظلم الإنسان لنفسه بأن يتجاوز عليها ويضعها في غير موضعها اللائق.

الثاني: ظلم الإنسان لربه بأن يتجاوز على حدوده بخساً أو تعدياً.

والثالث: ظلم الإنسان لغيره.

والعقل يستقل بالحكم بقبح الظلم بجميع مراتبه، وهو ما قررته الفطرة والشرائع برمتها.

وثانيهما: أن الظالم غير مؤهل للإمامة والقيادة، فلا يليق أن يكون مقتدى للناس في دينهم ودنياهم، ويكفي في اتصاف الشخص بالظلم هو تجاوزه عن الحد في واحد من أصناف الظلم الثلاثة، وغير المعصوم لا ينفك عن الوقوع في واحدة منها عمداً أو جهلاً،

فلا يليق بهذا المنصب الإلهي العظيم، كما أن إطلاق الآية يدل على أن الظلم مانع من الإمامة سواء كان في رتبة الإمكان والاقتضاء أو في رتبة الوقوع؛ لأن الظالم لا يليق بهذا المقام وإن تاب فيما بعد.

وهذا ما دلت عليه الأخبار الشريفة، ففي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام

١- انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٧٧؛ الكشاف: ج١، ص١٧١؛ تفسير الرازي: ج١، ص٤١، تفسير الآية المزبورة.

حديث طويل ورد في معنى الآية: «قد حظر على من ماسه الكفر تقلد ما فوضه إلى أنبيائه وأوليائه، بقوله لإبراهيم ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين؛ لأنه سمى الظلم شركاً بقوله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] فلما علم إبراهيم أن عهد الله تبارك وتعالى اسمه بالإمامة لا ينال عبدة الأصنام قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[2]»[3].

وروى ابن المغازلي بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم» قال: قلت: كيف صرت دعوة أبيك إبراهيم؟ قال: «إن الله أوحى إلى إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فاستخف به الفرح، فقال: يا رب ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أئمة مثلي؟ فأوحى الله - عز وجل- إليه: يا إبراهيم! إني لا أعطيك عهداً لا أفي لك به. قال: يا رب! وما العهد الذي لا تفي به؟ قال: لا أعطيك لظالم من ذريتك عهداً، فقال: إبراهيم عندها: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾[4] ثم قال النبي ﷺ: فانتهت الدعوة إليّ وإلى علي لم يسجد أحدنا لصنم فاتخذني نبياً، وأتخذ علياً وصياً، وفي معنى هذه الدعوة قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

١ - سورة لقمان: الآية ١٣.
٢ - سورة إبراهيم: الآية ٣٥.
٣ - الاحتجاج: ج١، ص٣٧٣؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص١٢، ح٣٤٤؛ بحار الأنوار: ج٩٠، ص١٦، وفيه: «قد حظر على من ماسه الكفر».
٤ - سورة إبراهيم: الآية ٣٥- ٣٦.

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١]»[٢].

وفي رواية زيد الشحام قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؟ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: لا يكون السفيه إمام التقي»[٣].

والمراد من السفيه هو الخفيف في نفسه أو عقله أو جسده، وقد أطلق لفظ السفه في الكثير من الأخبار على كل من أحب الدنيا من حيث هي، وركن إليها، وهو وجيه؛ لأن حب الدنيا في أي مرتبة منه يوجب الضعف والخفة؛ لأنه رأس كل خطيئة[٤] كما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام، ومن الواضح أن من اتصف بالسفه لا يعقل أن يكون إماماً لغيره؛ لأنه يوجب نقض غرض الإمامة المجعولة للاقتداء والاتباع.

وتشير الآية المباركة والأخبار الشريفة إلى حقائق عدة:

الحقيقة الأولى: أن منصب الإمامة من المناصب الإلهية العظمى، بل هي من أرقى المناصب التي لا ينالها إلاّ معصوم، بل هي أرقى مراتب العصمة

١ - سورة البقرة: الآية ١٢٩.
٢ - انظر تأويل الآيات: ج١، ص٧٨- ٧٩.
٣ - الكافي: ج١، ص١٧٥، ح٢.
٤ - الفتاوى الميسرة: ص٣٨٨.

واليقين والصبر، فالعلاقة الرابطة بين الإمامة وبين العصمة هي علاقة الملازمة بل الاتحاد أو العينية.

الحقيقة الثانية: أن هذا المنصب العظيم أمره بيد الله سبحانه يعطيه من يشاء من عباده ممن توفرت فيه المؤهلات المتقدمة، فلا ينال باختيار الناس أو ببيعتهم أو بالتوريث والتعيين.

الحقيقة الثالثة: أن الإمامة أرقى رتبة من النبوة إذا قيستا؛ لأن الآية دلت على أن الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعد أن كان نبياً، إذ كانت في آخر عمره بعد أن صار له أولاد، ويشهد له اسم الفاعل (جاعل) الدال على الاستقبال. وهذا ما تؤكده رواية زيد الشحام عن الصادق عليه السلام المتقدمة، وقد أشار الإمام عليه السلام في فقراتها إلى طرق الرقي البشري في المراتب المعنوية والوصول إلى المقامات الإلهية الرفيعة؛ إذ قال عليه السلام: «أن الله تعالى اتخذ إبراهيم عليه السلام عبداً قبل أن يتخذه نبياً» فإن العبودية هي أول درجات الارتقاء، بل الأساس الذي تقوم عليه سائر المراتب والمقامات.

والمراد من العبودية هنا ليس التكوينية؛ لأنها من لوازم جميع المخلوقات، ولا تختص بإبراهيم عليه السلام فقط ، بل العبودية العملية التي بها يصير العبد فانياً في ظل الحي القيوم.

فالنبوة والرسالة والخلة والإمامة متفرعة عن هذا المقام العظيم، كما أن المقامات السبعة التي ذكرها علماء الكلام واشترطوا وجودها في الإمام وهي تنصيبه الإلهي وعصمته، وعدم حجب أعمال العباد عنه، وعلمه بجميع ما يحتاج الناس إليه، واستحالة وجود الأفضل منه، وكونه مؤيداً من الله

تعالى، وعدم خلو الأرض منه هي الأخرى متفرعة عن مقام عبوديتهم لله سبحانه[١].

ولعل من هنا وصف النبي المصطفى صلى الله عليه وآله بالعبودية، وجعله في تشهد الصلاة من دون سائر أوصافه، وتقدم على رسالته، حيث يتشهد المسلمون في صلواتهم كل يوم وليلة بقولهم: (واشهد أن محمداً عبده ورسوله) فإنه لا يمكن أن يكون الرسول رسولاً قبل أن يكون عبداً لله، مطيعاً له، مسلماً لأمره.

الحقيقة الرابعة: أن مقام الإمامة يتدرج في ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لأن إبراهيم عليه السلام دعا أن تكون في ذريته بعد أن جعلها الله سبحانه له: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ولم يرد الباري عز وجل هذا الطلب الإبراهيمي، بل أقره ولكنه استثنى الظالمين منهم فقط، وأما غير الظالم فيناله العهد الإلهي، وهذا العنوان لا ينطبق إلاّ في محمد وآل محمد عليهم السلام؛ لأنهم من ذرية إبراهيم عليه السلام في خاتمة الزمان والأديان وطهرهم الله من الظلم بأصنافه، وهذا ما أكدته رواية ابن المغازلي المتقدمة، وعلى هذا فإن الآية المباركة دلت على أمرين آخرين:

أحدهما: أن محمداً وآل محمد عليهم السلام معصومون من كل قبح ونقص.

وثانيهما: إن إمامة إبراهيم عليه السلام الإلهية مجعولة لهم لا لغيرهم.

الحقيقة الخامسة: أن الإمامة الإلهية ليست أمراً اعتبارياً يجعل باختيار الناس أو تفرضه السياسة أو أنظمة الدول بل هي سنّة إلهية تكوينية وتشريعية جعلها الله سبحانه في هذا الوجود تهدي وتعلم وتتوسط الفيوضات الإلهية

١ - انظر مواهب الرحمن: ج٢، ص١٦؛ تفسير الميزان: ج١، ص٢٧٥.

إلى العباد، ولذا كانت الحجة قبل الخليقة ومعها وبعدها، ولم تخل الأرض من الإمام، بل لو بقي اثنان لكان أحدهما الحجة على صاحبه[١].

وهذا ما أكدته الروايات المعتبرة المستفيضة بل المتواترة، ففي الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام إلاّ وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده»[٢].

ووجهه: أن الغاية من الخلق لا سيما خلق الجن والإنس هو العبادة والوصول إلى مقام القرب والمعرفة الإلهية. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] وقال في آية أخرى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[٤] أي إن وصول الإنسان إلى مقام العبودية هو من غايات خلقه وإيجاده، فما دام على الأرض إنسان فهو منشد إلى هذا الهدف سائر باتجاهه إلاّ أن وصوله إليه يتعذر إلاّ بإمام يهتدي به، ويستضيء بنور علمه، فلذا وجب أن يقترن وجود الإنسان بوجود الإمام، وأن لا تخلو الأرض منه أبداً، ولولا وجود الإمام يصبح الوجود عبثاً وبلا هدف، وهذا ما يتنافى مع حكمة الخالق، وكذا وردت الروايات لتؤكد هذه الحقيقة، وأن نظام الوجود قائم بالإمام، ولولا الإمام لساخت الأرض وبطل الخلق.

ففي رواية أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أتبقى الأرض بغير

١ – الكافي: ج١، ص١٧٩، ح٢.
٢ – الكافي: ج١، ص١٧٩، ح٨.
٣ – سورة الذاريات: الآية ٥٦.
٤ – سورة الحجر: الآية ٩٩.

إمام؟ قال: «لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت»[١] أي انخسفت بأهلها.

وفي رواية محمد بن الفضيل عن الإمام الرضا عليه السلام قال: قلت له: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: «لا» قلت: فإنا نروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنها لا تبقى بغير إمام إلاّ أن يسخط الله تعالى على أهل الأرض أو على العباد، فقال: «لا، لا تبقى إذا لساخت»[٢].

ومن كل هذه الحقائق نستنتج نتيجتين هامتين:

النتيجة الأولى: أن الإمامة من حيث مكانتها ودورها في حياتنا بل في حياة الكون باقية إلى أبد الدهر؛ لأنها الحقيقة التي يقوم عليها نظام الوجود، وتدور عليها رحى الممكنات، وبهذا يجاب عن سؤال البعض عن فائدة وجود الإمام الغائب عليه السلام في هذه الأزمنة، كما يجاب عن سؤال البعض الآخر القائل إن الإمام إذا كان غائباً ولا يحكم العباد فما الفائدة من الاعتقاد بوجوده.

كما يجاب عن إشكال البعض القائل بأن مسألة الإمامة قضية مضت وانتهت في زمانها، فما الداعي إلى بحث الإمامة أو الإصرار على مناقشة مسائلها وآثارها في الجوامع العلمية، فإنه بناء على الحقائق المتقدمة يظهر بأن البحث في الإمامة والوقوف عند مسائلها من أهم المباحث التي لا ينبغي أن تهمل ما دام هناك منكر لها، أو ضعيف الإيمان بها، أو ما دام للإنسان حاجة إلى الكمال والوصول إلى غاياته الإلهية.

النتيجة الثانية: أن الإمامة حقيقة كونية قائمة، والإيمان بها يقود إلى

---

١ - الكافي: ج١، ص١٧٩، ح١٠.
٢ - الكافي: ج١، ص١٧٩، ح١١.

التوازن مع نظام الوجود، ويهدي الإنسان إلى السعادة الحقيقية، وإنكارها يوجب الخروج عن موازين الوجود، فيقود إلى الضلالة والبؤس والشقاء، وبذلك نعرف أن الإمامة حقيقة كونية واقعية لا اعتبارية، فلا تثبت إلاّ بالنص التنصيبي والجعل الإلهي كما هو الحال في سائر السنن الإلهية الكونية، فلا تنالها أيدي البشر في الاختيار أو التعيين، كما أنها ميزان السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة.

الثانية: الضرورة الاعتقادية

لا شك أننا كبشر نحتاج إلى إمام نقتدي به، ونستضيء بنور علمه. كما نحتاج إلى مأوى وملجأ نعتصم به في الفكر والمعتقد يوحد كلمتنا، ويجمع شملنا في العمل وتطبيق القوانين، ولولا هذا الإمام لسادت فينا الفوضى، وانتشر الظلم والفساد، وهذه حقيقة فطرية يحكم بها كل عقل سليم؛ إذ لا يختلف العقلاء في أي ملة أو مذهب على ضرورة وجود إمام لهم يهديهم إلى سبيل الصلاح، ويقودهم إلى مصالحهم، ويدفع عنهم الأضرار، ويرفع بينهم النزاع والتخاصم، فما بالك بالشرائع السماوية التي أنزلها الله سبحانه لهداية عباده إلى كمالهم العلمي والعملي، وأراد لها أن تبقى، ولاسيما شريعة الإسلام خاتم الأديان وأكملها؟

ومن الواضح أن بقاء الدين لا يمكن إلاّ بسبب، وسببه هو النبي ثم الإمام من بعده، وفي الواقع أن واسطة حدوث الدين هو النبي، وواسطة بقائه واستمراره هو الإمام، ولولا النبي والإمام لمحق الدين، وزيفته السياسة والأهواء، إذاً لابد للرسالة من النبي، ولابد للنبي من إمام يكمل

دوره، ويواصل مسيرته، ويسدد تعاليمه، ويطبق نهجه وأحكامه، ولولا ذلك انتقض غرض الخلق والبعثة.

فالإمام هو الهادي بعد النبي، وهو القائم بوظائفه، والمتولي لشؤونه ومناصبه، إلاّ الوحي، ومناصب النبي - غير ولايته التكوينية على الوجود الامكاني - هي:

١- الولاية العامة المطلقة على جميع الناس. قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.[١]

٢- القدوة التي يجب إطاعتها في جميع الأمور. قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢].

٣- الحاكم بين الناس، والقاضي في منازعاتهم. قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[٣].

٤- التبليغ عن الله سبحانه والدعوة إليه والتذكير به. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾.[٤]

٥- التقويم والشهادة. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٥].

١- سورة الأحزاب: الآية ٦.

٢ - سورة النساء: الآية ٥٩.

٣ - سورة ص: الآية ٢٦.

٤- سورة الغاشية: الآية ٢١.

٥ - سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٦- الولاية على العقول والارواح وهدايتها إلى الحياة السعيدة. قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١].

إلى غير ذلك من شؤون النبوة والنبي صلى الله عليه وآله التي تقدم بيانها في بحث النبوة، هذه جميعها يقوم الإمام بها بعد النبي، ومن هنا يحكم العقل والشرع معاً بوجوب الاعتقاد به واتباعه، ويعد هذا الاعتقاد من أصول الإيمان والمعتقد.

ففي رواية أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالاً» قلت: جعلت فداك! فما معرفة الله؟ قال: «تصديق الله عز وجل، وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله، وموالاة علي عليه السلام والإئتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام، والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم، هكذا يعرف الله عز وجل»[٢] وفي الحديث المتواتر بطرق الفريقين: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[٣].

والمقصود بالإمام هو من ينوب مناب النبي في الدين والدنيا، وهو إمام الحق الذي يترتب على عدم معرفته الضرر الكبير لا كل إمام؛ بداهة أن معرفة غيره ليست واجبة؛ لأن الجهل به لا يضر بدين الإنسان ولا دنياه.

ومن هنا نلاحظ أهمية الإمامة في حياتنا الاعتقادية، فإن عدم الإيمان بالإمامة أو عدم معرفة إمام الحق يعود بنا إلى عدم الإيمان، بل يظهر من الحديث السابق أن عدم معرفة الإمام ينتهي بالإنسان إلى الضلال ويميته ميتة الجاهلية.

١- سورة الأنفال: الآية ٢٤.

٢- الكافي: ج١، ص١٨٠، ح١.

٣- انظر الكافي: ج١، ص٣٧٧، ح٣؛ مسند أحمد: ج٤، ص٩٦؛ صحيح مسلم: ج٨، ص١٠٧؛ ينابيع المودة: ج٣، ص٣٧٢، ح٣؛ كنز العمال: ج١، ص١٠٣، ح٤٦٤.

وهل المراد منها أن يموت الإنسان كافراً كما كان الناس يموتون في جاهليتهم قبل الإسلام؟ أم يعاقب معاقبة أهل الجاهلية لأنهم ماتوا ولم يعرفوا أئمة الحق فكفروا بالأنبياء والرسل؟ أم يموت على غير بصيرة وهدى؟ احتمالات ثلاثة وإطلاق الحديث وما يستفاد من الأدلة الأخرى يدلان على جميع هذه المعاني المحتملة، وعليه فلا يمكن لمسلم أن يكتفي بالاعتقاد بالإسلام وبرسوله ﷺ ويتوقف في إيمانه بالإمامة.

كما لا يمكن لمؤمن بالإسلام وبرسوله وبالإمامة أن يتوقف في إيمانه بالإمام، أو يؤمن بغير إمام الحق؛ لأن كل إيمان لا يعتصم بذلك لا يمكن إن يكون كاملاً. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] لأن الإمامة من أصول الإسلام، وإنكارها كأصل وعقيدة، أو إنكار إمام الحق يعني عدم الإيمان بالإسلام بشكله الذي أنزله الله سبحانه وأراده، وهو يلازم الجحود؛ لأن إنكار البعض إنكار للكل في الأصول والمعتقدات، وهذا ما يؤكده الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ. قال: قال رسول الله ﷺ: «بي أنذرتم، وبعلي بن أبي طالب اهتديتم، وقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[3] وبالحسن أعطيتم الإحسان، وبالحسين تسعدون، وبه تشقون، إلّا وإن الحسين باب من أبواب الجنة من عانده حرم الله عليه ريح الجنة»[4].

١ - سورة آل عمران: الآية ١٩.
٢ - سورة آل عمران: الآية٨٥.
٣ - سورة الرعد: الآية ٧.
٤ - غاية المرام: ج٣، ص٦، السادس.

الثالثة: الضرورة العلمية

إن الإسلام مدرسة علمية كبرى تتضمن مختلف العلوم والمعارف ابتداءً من الأفلاك والسموات إلى الأرضين والبحار والسهول والجبال إلى حقيقة الإنسان وكيانه الروحي والجسدي وما يصلحه وما يفسده، فما من شيء في هذا الوجود إلاّ وللإسلام فيه حكم أو توجيه، ومن هنا كانت معجزة الإسلام الكتاب، ورسوله صلى الله عليه وآله يقول: «بعثت معلماً»[1] و: «بالتعليم أرسلت»[2].

وقد تضمن كتاب الله الآيات المحكمة والمتشابهة، وحوى الكثير من الأحكام والدلائل في الفروع والأصول، فكيف يمكن التوصل إلى فهمه حتى يتسنى العمل به؟ إن كتب الدراسات العلمية والموسوعات الجامعية بالرغم من أنها من نتائج عقول البشر لا يمكننا فهمها من دون معلم ومرشد وفي مدة تطول سنوات عديدة، فكيف يمكننا أن نفهم كتاب الله الذي عجز الجن والإنس عن مثله من دون معلم ومرجع نرجع إليه في ذلك؟

والسؤال الأهم هو مَنْ المرجع العلمي الموثوق للمسلمين ليأخذوا منه علوم الإسلام ومعارفه، ويتعلموا القرآن وأحكامه، ويحتكموا إليه عند تعارض الآراء واختلافها؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال انقسم المسلمون إلى قولين: فقال العامة: إن المرجع هم الصحابة، وكانوا ولازالوا يؤمنون ويعملون بهذا، فلا يأخذون

---

١ - سنن ابن ماجة: ج١، ص٨٣، ح٢٢٩؛ كنز العمال: ح١٠، ص١٤٧، ح٢٨٠٧٥١؛ أحكام القرآن: ج٣، ص٤٦٧.

٢ - منية المريد: ص١٠٦؛ بحار الأنوار: ج١، ص٢٠٦، ح٣٥؛ المجموع: ج١، ص٢٠.

العلم إلاّ من الصحابة ثم تابعيهم وهكذا، وقال الشيعة الإمامية: المرجع هم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وعترته، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ثم الأئمة من ذرية الحسين عليه السلام إلى قائمهم الحجة المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، هذا والذي ينظر إلى المسألة بعين الحياد والإنصاف يلحظ ، أمرين:

الأول: أن قول عمر: حسبنا كتاب الله(١) للإشارة إلى عدم الحاجة إلى الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله لم يستند إلى دليل علمي أو شاهد تاريخي ولا يتوافق مع منطق العقل، فإن أول من خالف هذا القول هو عمر نفسه، حيث وجد أن الكثير من الفروع والمسائل التي حدثت واستجدت لم يجد لها دليلاً صريحاً في الكتاب، فاضطر إلى الرجوع إلى الإمام علي عليه السلام ليأخذ منه الرأي والحكم حتى قال: لولا علي لهلك عمر(٢) في أكثر من سبعين موضعاً حتى اشتهرت في الأمثال كما ذكر عن صاحب الكشاف(٣) وقال أيضاً: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن، وقد تكرر هذا القول منه كثيراً في قضايا مختلفة أحصاها العلامة الأميني رحمه الله في كتاب الغدير(٤).

الثاني: أن كتاب الله يحتاج إلى مبيّن ومفسر وشارح، ولا يعقل أن يكون الشارح محتاجاً إلى من يشرحه له من البشر، دفعاً للتسلسل والدور، وليس

١ – مسند احمد: ج١، ص٣٢٥؛ صحيح البخاري: ج٥، ص١٣٨؛ ج٧، ص٩.
٢- الكافي: ج٧، ص٤٢٤، ح٦؛ دعائم الإسلام: ج٢، ص٤٥٣، ح١٥٨٤؛ نظم درر السمطين: ص١٣٢.
٣ – انظر الأنوار النعمانية: ج١، ص٤٦.
٤ – الغدير: ج٦، ص٨٣ فما بعد.

إلاّ النبي ثم الإمام المعصوم، وهذا ما نص عليه الكتاب والسنّة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].

وأما السنّة فالروايات النبوية المستفيضة، بل المتواترة التي قرنت الكتاب بالعترة، وأوجبت على المسلمين ملازمتها، وعدم التفريق بينهما، ولا الافتراق عنهما.

منها: حديث الثقلين الذي رواه الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تكرر منه في مواطن أربعة هي: يوم عرفة على ناقته القصوى، وفي مسجد الخيف، وفي خطبة يوم الغدير في حجة الوداع، وفي خطبته على المنبر يوم قبض، وقد روى أصحاب الصحاح والمسانيد هذا الحديث متواتراً وبطرق تتجاوز نيفاً وعشرين صحابياً، وهو: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[3].

وفي مورد آخر قال: «يا أيها الناس، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[4] و«ما» في الحديثين موصولة، ودلالته

---

١ - سورة النحل: الآية ٦٤.

٢ - سورة يونس: الآية ٣٥.

٣ - انظر صحيح مسلم: ج٧، ص١٢٢؛ سنن الترمذي: ج٢، ص٣٠٧؛ مسند أحمد: ج٣، ص١٧؛ وانظر إحقاق الحق: ج٤، ص٤٣٦.

٤ - سنن الترمذي: ج٥، ص٣٢٨؛ السيدة فاطمة الزهراء: ص٤٧.

على المعنى ظاهرة لا تقبل الجدل، وشواهد التاريخ وبراهين العقل والنقل تدل على صحة ذلك. هذا وقد جرت بعض التغييرات على بعض ألفاظ الحديث محاولة لتغيير المعنى، إلاّ أنها لم تفلح لتضافر نقله بالصيغة الصحيحة واعتضادها بالمتون الكثيرة التي تؤكد صحة مضمونه.

ومنها: رواية يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «كلامك من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو من عندك؟» فقال: من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن عندي، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «فأنت إذاً شريك رسول الله؟» قال: لا. قال: «فسمعت الوحي عن الله عز وجل يخبرك؟» قال: لا. قال: «فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟» قال: لا. فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إليّ فقال: «يا يونس بن يعقوب! هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم» ... ثم قال لي: «اخرج إلى الباب فأنظر مَنْ ترى من المتكلمين فأدخله»[1] فأدخل عليه جماعة منهم هشام بن الحكم، فقال للشامي: «كلم هذا الغلام» أي هشام بن الحكم، وكان وقتها في أول شبابه، وقد اختطت لحيته، فقال: نعم، فقال لهشام: يا غلام! سلني في إمامة هذا!! ثم قال للشامي: يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟

فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟

قال: أقام لهم حجة ودليلاً كيلا يتشتتوا أو يختلفوا بتألفهم، ويقيم أودهم ـ أي الاعوجاج ـ ويخبرهم بفرض ربهم. قال: فمن هو؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

١ – أي من تلامذة الإمام عليه السلام الذين يجيدون المناظرة وعلم الكلام.

قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ؟ قال الكتاب والسنّة. قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنّة في رفع الاختلاف عنا؟ قال الشامي: نعم. قال: فلم اختلفنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟ قال: فسكت الشامي، فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامي: «ما لك لا تتكلم؟» قال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: إن الكتاب والسنّة يرفعان عنا الاختلاف أبطلتُ؛ لأنهما يحتملان الوجوه، وإن قلت: قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحق فلم ينفعنا إذاً الكتاب والسنّة، إلاّ أن لي عليه هذه الحجة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «سله تجده ملياً» فقال الشامي: يا هذا! من أنظر للخلق أربهم أو أنفسهم؟ فقال هشام: ربهم أنظر لهم منهم لأنفسهم، فقال الشامي: فهل أقام من يجمع لهم كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقهم من باطلهم؟ قال هشام: في وقت رسول الله ﷺ أو الساعة؟ قال الشامي: في وقت رسول الله ﷺ والساعة مَن؟

فقال هشام: هذا القاعد الذي تشدّ إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء والأرض، وراثة عن أب عن جد. قال الشامي: فكيف لي أن أعلم ذلك؟ قال هشام: سله عمّا بدا لك، قال الشامي: قطعت عذري فعليَّ السؤال.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا شامي! اخبرك كيف كان سفرك؟ وكيف كان طريقك؟ كان كذا وكذا» فأقبل الشامي يقول: صدقت، أسلمت لله الساعة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «بل آمنت بالله الساعة. إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون» فقال الشامي: صدقت فأنا الساعة

أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنك وصي الأوصياء[١].

ولهشام مناظرة أخرى مع عمرو بن عبيد إمام البصرة في عهده، وفيها قال هشام: يا أبا مروان! فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح، ويتيقن به ما شك فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك! قال: فسكت ولم يقل شيئاً[٢].

ومنها: رواية أبي الحسن الرضا عليه السلام يشرح للفضل بن شاذان وجه الحاجة إلى القيّم والإمام، وأنه لماذا جعل أولو الأمر وأمر بطاعتهم في حديث طويل قال عليه السلام: «أنه لو لم يجعل لهم إماماً قيّماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة، وذهب الدين، وغيرت السنن والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص منه الملحدون، وشبهوا ذلك على المسلمين؛ إذ قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت حالاتهم، فلو لم يجعل فيها قيّماً حافظاً لما جاء به الرسول الأول لفسدوا على نحو ما بيناه، وغيرت الشرائع والسنن والأحكام والإيمان، وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين»[٣] وقريب منه ورد عن الصادق[٤] عليه السلام.

ومما يؤكد هذه الحقيقة المراسلة التي وقعت بين الحجاج وجماعة من كبار

١ - انظر الكافي: ج١، ص١٧١، ح٤؛ والمصدر نفسه: ج٢، ص٢٤- ٢٨.
٢ - الكافي: ج١، ص١٧٠، ح٣.
٣ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٠١؛ علل الشرائع: ج١، ص٢٥٣- ٢٥٤، ح٩.
٤ - انظر الكافي: ج١، ص١٧٨.

علماء زمانه يسألهم عن مسألة من معضلات المسائل التي اختلفت فيها الآراء، فقد كتب الحجاج إلى الحسن البصري رئيس القدرية وإلى عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة في عصره وإلى واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال وإلى عامر الشعبي فقيه بني أمية وقاضيهم في عهد عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك والجميع أجابه بجواب مستقى من علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ طلب منهم أن يذكروا ما عندهم وما وصل إليهم في القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن البصري: أن من أحسن ما سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «يا ابن آدم! أتظن أن الذي نهاك دهاك، وإنما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريء من ذلك».

وكتب إليه عمرو بن عبيد: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لو كان الوزر في الأصل محتوماً كان الموزور في القصاص مظلوماً».

وكتب إليه واصل بن عطاء: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أيدلك على الطريق ويأخذ عليك المضيق؟».

وكتب إليه الشعبي: أحسن ما سمعت في القضاء والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «كل ما استغفرت الله منه فهو منك، وكل ما حمدت الله تعالى عليه فهو منه».

فلما وصلت كتبهم إلى الحجاج ووقف عليها قال: لقد أخذوها من عين صافية[1].

---

١ - انظر الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ص٣٢٩- ٣٣٠؛ بحار الأنوار: ج٥، ص٥٩، ح٨؛ آيات العقائد: ص١٣٠.

ونلاحظ أن الجميع يتفقون على معنى واحد وهو أن القضاء والقدر لا يتحكمان بمصير الإنسان، وإنما عقله وفعله هما اللذان يقودان الإنسان إلى السعادة أو الشقاء، كما أن الجميع ليس لديه في شرح المسألة أكثر مما أخذه من أمير المؤمنين عليه السلام بالرغم من شهرتهم وطول باعهم في العلم ومخالفتهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام في المذهب والاعتقاد[1].

وقد أقر المؤالف والمخالف أن أصول العلوم مأخوذة من علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام، ففي علم النحو الذي تدور عليه ألفاظ الكتاب والسنّة وتقوم عليه علوم الإسلام كالأحكام والعقائد والأدب والفضائل مثلاً جاء في شرح كتاب سيبويه لابن الأنباري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع رجلاً يقرأ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾[2] بكسر اللام في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ فساءه ذلك، فأشار إلى أمير المؤمنين عليه السلام بوضع علم النحو لئلا ينطق العوام بالكفر بأمثال هذه الأخطاء، فوضع أمير المؤمنين علم النحو وعلمه أبا

١ - في الحسن البصري انظر: شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٩٥؛ قاموس الرجال: ج٣، ص١٩٧، (١٨٥٥)؛ وفي عمرو بن عبيد انظر قاموس الرجال: ج٨، ص١٢١؛ وفي رواية أنه دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام فلماّ سلّم وجلس تلا هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ النجم/ ٣٢، ثم أمسك فقال عليه السلام له: «ما أسكتك؟» قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله تعالى، فقال: «نعم يا عمرو أكبر الكبائر الإشراك بالله (إلى أن قال) ونقض العهد، وقطيعة الرحم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾» الرعد/ ٢٥، فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم. انظر الكافي: ج٢، ص٢٨٥؛ وفي واصل بن عطاء انظر فرق الشيعة (للنوبختي): ص١٢؛ وفي عامر الشعبي انظر قاموس الرجال: ج٥، ص٦١١، (٣٨٠٩).

٢- سورة التوبة: الآية ٢.

الأسود الدؤلي[١] ثم استمر أبو الأسود باستخراج المسائل الفرعية من تلك الأصول، وكان يرجع إلى الإمام عليه السلام في الأمور العسيرة.

وعلم التفسير وضع أصله أمير المؤمنين عليه السلام، ومنه تعلم ابن عباس وابن سيرين، ومنهما أخذ الباقون، وعلم الكلام علمه أمير المؤمنين عليه السلام لمحمد بن الحنفية، ومنه أخذ أبو علي الجبائي وأبو هاشم، ومنهما أخذ الباقون.

وعلم الفقه تفرع منه عليه السلام، وأخذ منه علماء الفقه بعدة وسائط ، وكذلك علم الفصاحة والبلاغة وعلوم المعاني والبيان أخذت منه بعدة وسائط[٢].

بل قال فيه سيد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلم: «أقضاكم علي» و:«أعلمكم علي»[٣] والقضاء يستلزم الإحاطة بجميع العلوم المتداخلة في تكوين الحكم القضائي.

وهذا ما أظهره أمير المؤمنين عليه السلام عن جل الصحابة أو كلهم، وقد أقروا له بأجمعهم، فقد رقى المنبر وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «سلوني عن طرق السماء فإني أعلم بها من طرق الأرض سلوني قبل أن تفقدوني»[٤] وقال: «لو ثنيت لي الوسادة وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، والله ما من آية نزلت في بر أو بحر أو سهل أو جبل، ولا سماء ولا

١- تحفة الأبرار (للطبري): ص٧٩؛ وانظر المناقب (لابن شهر أشوب): ج٢، ص٤٧،(مع بعض الاختلاف).

٢- تحفة الأبرار (للطبري): ص٧٩؛ وانظر شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج١، ص٦.

٣- صحيح البخاري: ج٦، ص١٩؛ أعيان الشيعة: ج٢، ص٤٣٨.

٤- ينابيع المودة: ج٣، ص٢٠٨.

أرض إلاّ أنا أعلم فيمن نزلت، وفي أي شيء نزلت»[١].

وروي أنه خطب أربعمائة خطبة بليغة غراء وقيل تسعمائة خطبة متضمنة لعلوم كثيرة، وقد أحرق معاوية معظم تلك الخطب بعد شهادته عليه السلام.

ولقد توجه علماء العرب والعجم إلى الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام واقتبسوا منهما شتى العلوم والفنون، وحضر في مجلس الصادق عليه السلام أربعة آلاف فقيه، وأجاز لأربعمائة نفر منهم أن ينشروا العلوم المختلفة في أنحاء العالم[٢].

وقد ظهر عن الباقر والصادق عليهما السلام أصول العلوم والفنون وفصولها، وروى الناس عنهما من علوم الكلام وتفسير القرآن وقصص الأنبياء والمغازي والسير وأخبار العرب وملوك الأمم وعلوم الكيمياء والفيزياء والحكمة والآداب والنجوم والطب وغيرها ما سمي أبو جعفر عليه السلام لأجله باقر العلوم، وصنف تلاميذهما كتباً كثيرة وصلنا منها أربعمائة كتاب، وهي معروفة بكتب الأصول الأربعمائة، وتضمنت أجوبته عن مختلف المسائل في مختلف العلوم والمعارف، وكذلك كانت حال الكاظم عليه السلام في إظهار العلوم حتى منعه هارون بسجنه، ثم انتشر عن الرضا وأبنه أبي جعفر عليهما السلام من ذلك ما هو معروف مشهور، وكذلك كانت سبيل الأئمة عليهم السلام الآخرين إلى المهدي عجل الله تعالى فرجه، ويلاحظ في ذلك كله أنه لم يدع أحد حتى من خصومهم أنهم أخذوا العلم من أحد، أو تلقوه من الرواة، ولم يرو أحد أنهم

١ – انظر الإرشاد (للمفيد): ج١، ص٣٥؛ شواهد التنزيل: ج١، ص٣٦٦؛ شرح مئة كلمة: ص٢١٨.

٢ – انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص٨٠.

اختلفوا إلى أحد من العلماء في تعلم شيء من العلوم، وكل ما أثر عنهم من العلوم فإنه لم يعرف إلاّ منهم؛ لأنهم خزائن العلم ومفاتيحها.

وروي عنهم عليهم السلام ما يقر به المخالف والمؤالف أنه قال: «علمنا علم غابر ومزبور، ونكت في القلوب، ونقر في الأسماع، وعندنا الجفر الأبيض والجفر الأحمر ومصحف فاطمة، وإن عندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج إليه الناس»[1].

وفسروا العلم الغابر بعلم ما كان، والعلم المزبور بعلم ما سيكون، والنكت في القلوب هو علم إلهامي، والنقر في الأسماع حديث الملائكة يسمعونهم ولا يرون أشخاصهم، والجفر الأبيض هو كتاب فيه علم ما يحتاج إليه الناس، والجفر الأحمر دعاء فيه صلاح الدنيا والآخرة، والجامعة كتاب طوله سبعون ذراعاً أملاه رسول الله صلى الله عليه وآله على وصيه عليه السلام، وفهمه من فمه إلى فيه، ومصحف فاطمة عليها السلام فيه أسماء الأئمة الطاهرين وجوامع فضائلهم الباهرة وكراماتهم الظاهرة، وفيه أسماء ملوك الدنيا وكل ما يحدث فيها[2].

هذا وقد ثبت تحقيقاً أن النبي والإمام عليهما السلام لهما صلاحية التشريع بإذن الله، فلا تقتصر مهمتهم على بيان الشريعة وتبليغها للناس، وحيث إنهم معصومون مسددون لا يمنع من ذلك مانع عقلي أو شرعي، وقد أكدت الروايات وقوع ذلك منهم في موارد عدة:

منها: رواية الباقر عليه السلام قال: «وضع رسول الله صلى الله عليه وآله دية العين، ودية النفس،

١ - ينابيع المودة: ج٣، ص١٩٩، ص٢٢٢.

٢ - انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص٨١.

ودية الأنف، وحرم النبيذ وكل مسكر» أي غير الخمر، فقال له رجل: فوضع هذا رسول الله صلى الله عليه وآله من غير أن يكون جاء فيه شيء؟ فقال عليه السلام: «نعم ليعلم من يطيع الرسول ويعصيه»(١).

ويعضدها قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(٣).

ومنها: رواية أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله علمني ألف باب من الحلال والحرام، ومما كان ومما هو كائن إلى يوم القيامة. كل باب منها يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب حتى علمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب»(٤) وهناك أكثر من صيغة لهذا المضمون وردت بطرق الفريقين(٥)، والألف كناية عن الكثرة.

ومنها: رواية محمد بن سنان قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فأجريت اختلاف الشيعة فقال: «يا محمد! إن الله تبارك وتعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها، وأجرى طاعتهم عليها، وفوّض أمورها إليهم، فهم يحلون ما يشاؤون، ويحرمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلاّ أن يشاء الله

---

١ - بصائر الدرجات: ص١١٢.
٢ - سورة النجم: الآية ٣- ٤.
٣- سورة الحشر: الآية ٧.
٤- نهج السعادة: ج٧، ص٤٦٥.
٥ - ينابيع المعاجز: ص١٤٢.

تبارك وتعالى»[١]. وهذا ما يؤكده قولهم: «قلوبنا أوعية لمشيئة الله، فإذا شاء شئنا، والله يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] »[٣].

الرابعة: الضرورة السياسية

إذا عرفنا أن الإمامة خلافة عن النبيﷺ في أدواره ومهامه الدينية والدنيوية نعرف أن لا غنى في حياتنا السياسية عنها؛ بداهة أن إمامة الناس في الدين تستوجب أموراً:

أحدها: الإرشاد والتوجيه الفكري والمعنوي.

ثانيها: تدبير أمور الرعية وحفظ مصالحها العامة في مختلف شؤون الحياة.

ثالثها: تطبيق القوانين والأحكام الشرعية التي بعث النبيﷺ لأجلها.

رابعها: موازنة حياة الناس مع السنن الشرعية ليسعدوا في دنياهم وآخرتهم.

وهذه جميعها لا يمكن أن نصل إليها ما لم تنهض بها حكومة عادلة وسياسة حقة، ويقف وراءها جميعاً إمام معصوم يسددها ويعالج خللها، وإلاّ لانتفى الغرض من البعثة، واختلت رسالة النبوة وأهدافها في الحياة الإنسانية.

ومن هنا نعرف:

١ـ أن الإمامة ليست وجاهة عرفية يختارها الناس لأنفسهم.

١ - الكافي: ج١، ص٤٤١، ح٥.
٢ - سورة الإنسان: الآية ٣٠.
٣ - الغيبة (للطوسي): ص١٥٩ - ١٦٠.

٢ـ أنها ليست درجة علمية يحوزها العلماء بالدراسة والتحصيل.

٣ـ وليست منصباً حكومياً يختاره الشعب أو أصحاب القرار، وإنما هي ضرورة دينية تكتمل بها مهام الأنبياء، وتترسخ رسالاتهم، وهي بعد ذلك ضرورة إنسانية لا غنى للبشر عنها؛ إذ لولاها لعاشوا في متاهات الخرافات وفساد العقيدة، وساد الظلم والفساد، وانتشرت الفوضى واختلال النظام.

ومن هنا اتفقت كلمة الإمامية على أن الإمامة تثبت بالنص الإلهي لا بالاختيار البشري، وتخضع لموازين غيبية وملكات نفسية عالية أرقى من العدالة وهي العصمة، وهذه ما لا يمكن معرفتها في أحد من الناس إلاّ من قبل الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الله سبحانه يعلم المفسد من المصلح[1]، فلا يجدي فيه شورى ولا إجماع أو أكثرية من قبل الناس، وهذا أمر يكاد يكون فطرياً، ولعل منه ما ورد في الحوار اللطيف بين أبي الحسن الرّفا وابن رامين الفقيه حيث سأل الأول الثاني: أنه لما خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة ما استخلف عليها أحداً؟ قال: بلى، استخلف علياً. قال: وكيف لم يقل لأهل المدينة اختاروا فإنكم لا تجتمعون على الضلال؟ قال: خاف عليهم الخلف والفتنة. قال: فلو وقع بينهم فساد لأصلحه عند عودته؟ قال: هذا أوثق. قال: أفاستخلف أحداً بعد موته؟ قال: لا. قال: فموته أعظم من سفره، فكيف أمن على الأمة بعد موته ما خافه في سفره وهو حي عليهم؟ فقطعه[2].

وقد تضمن الحوار ابطال ثلاث دعاوى بنيت عليها نظرية العامة في الإمامة.

---

١ - ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ سورة البقرة: الآية ٢٢٠.

٢ - المناقب (لابن شهر أشوب): ج١، ص٢٢٢؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٧٥، ح٢٤.

الأولى: انكار تعيين النبي ﷺ للإمام والخليفة من بعده.

والثانية: أن الإمامة تكون باختيار الأمة.

والثالثة: أن اجماع غير المعصومين عاصم عن الخطأ والضلال.

ووجه البطلان فيها هو مخالفتها لسيرته ﷺ، وهذا ما يعززه البرهان، فإن حاجة الناس إلى القائد والزعيم أمر ضروري يتفق عليه جميع العقلاء، وحاجتهم إليه في شؤونهم الدينية ليست بأقل من حاجتهم إليه في شؤونهم الدنيوية إن لم تكن أكثر، ولابد أن يكون القائد بعد النبي الأقرب إليه روحاً وفكراً ونهجاً والمستغني عن غيره في الفهم والتدبير دفعاً لمحاذير الدور والخلف والتسلسل، وليس ذلك إلاّ الإمام المعصوم عليه السلام الذي ينصب بالنص.

الخامسة: الضرورة القيادية (القدوة والأسوة)

لابد للناس من قدوة وأسوة يقتدون بها سواء في الأخلاق والفضائل، أو الأحكام والشرائع، أو الآداب والمواقف. تعد هذه من الضرورات الأولية التي تشهد بها الفطرة البشرية؛ إذ لابد للإنسان من إمام ومرشد في مختلف المجالات، ومن هنا ذكر الباري قصص أنبيائه وأوليائه في القرآن كما ذكر قصص أعدائه والطالحين من عباده، ثم أمر الناس بالاقتداء بالأنبياء إذ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾[1].

وذلك لكي لا يوقعهم الشيطان في إتباع أئمة الضلالة، وتأكيداً لهذه

١ - سورة يوسف: الآية ١١١.

الحقيقة أمر بالاقتداء برسول الله ﷺ، وجعلها ميزان النجاة في الدنيا والآخرة، حيث قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[1] وهذا القانون يسري في سائر الأنبياء، ولم يختص بنبي دون آخر، ولذا قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[2] ومن هنا يظهر الجواب عن سؤال لطالما دار في بعض الأذهان وذكره أهل الكلام يقول: لماذا بعث الله النبي ﷺ ونصب الأئمة عليهم السلام وجعل الاعتقاد بهم والإتباع لهم من شروط الإيمان؟

والجواب: لكي يقتدى بهم، ويكونوا أسوة للآخرين.

فإن الدين لا يكتفي في عرض مبادئه وقيمه ويصورها في الأذهان من دون تطبيق كما هو الحال في النظريات الفلسفية أو المذاهب السياسية والفكرية الأرضية؛ إذ إنها - في الغالب - لا تعدو أن تكون مجموعة من الأفكار والنظريات المجردة عن الواقع، ولذا تفتقر إلى الكثير من المصداقية؛ لأن قادتها وروادها لا يلتزمون بها يؤمنون به ويدعون إليه، وغالباً ما يجدون أنفسهم فوق ما يدعون إليه، خلاف للدين، فإن أول ما يجسد الدين في سلوكه وعمله هو النبي والإمام.

ولو لوحظ تناقض بين عمل النبي وبين ما يدعو إليه كشف عن عدم نبوته، فإن من أهم المبادئ التي يقوم عليها الدين هو أن يكون النبي والإمام من بعده قدوة وأسوة في القيم والاعتقادات التي دعوا الناس إليها، فالشرائع

١ - سورة الأحزاب: الآية ٢١.

٢ - سور الممتحنة: الآية ٤.

الإلهية تقدم نفسها للبشر من خلال قادتها ودعاتها وليس من خلال الكتب أو الأفكار المجردة، فإن النموذج العملي أصدق شاهد على صحة الدعوى وصدق مدعيها، وقد أكد هذه الحقيقة الأئمة أنفسهم، حيث ورد عنهم: «والله ما أمرتكم بطاعة إلاّ وقد ائتمرت بها، ولا نهيتكم عن معصية إلاّ وقد انتهيت عنها»(١).

بل ودعوا عليهم السلام أصحابهم وأتباعهم إلى تجسيد ما يؤمنون به من خلال أعمالهم؛ إذ ورد عنهم: « كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فإن ذلك داعية» (٢).

وفي هذا صياغة عظيمة لمنهج الدعوة والإيمان الصادق يؤكد حقيقة القدوة، ويدعو إلى أن تكون الأعمال هي التي تعكس حقيقة الفكر ومستوى أصحابه، وهذه إحدى الأسباب التي جعلت الأنبياء يملكون أتباعاً خلص يضحون بالغالي والنفيس لأجل رسالاتهم، وهكذا الأئمة عليهم السلام، وهذا مستوى راق جداً في التعليم والإرشاد، فإن إيجاد القدوة بين الناس وتوجيههم إليها يحقق أكثر من فائدة:

الفائدة الأولى: صون الناس من الخطأ في فهم الشريعة، فإن الإنسان قد يخطئ في فهم الشريعة بسبب قصوره أو عمق مضمونها، فإذا اكتفت الشريعة بالتعليم النظري واقتصرت على الأوامر والنواهي فلا يأمن على الناس الخطأ في الفهم والتطبيق، وينتقض الغرض من وجودها.

١- تفسير كنز الدقائق: ج٢، ص١٩٤؛ تأويل الآيات الطاهرة: ص١٢٤.
٢- الوسائل: ج١٥، الباب٢١ من أبواب جهاد النفس، ص٢٤٦، ح١٣؛ وانظر ح١٠؛ بحار الأنوار: ج٦٧، ص٣٠٣، ح ١٣.

فمثلاً: إذا كان نبي الله إبراهيم عليه السلام يكتفي بتوجيه كلمات إلى الناس بضرورة التخلي عن الدنيا وقطع حبائل الود معها ودعا الناس إلى التسليم لأمر الله ولو بمثل ذبح الأولاد والذرية لم يكن هذا الكلام بمؤثر أو بمفهوم في عمقه ومحتواه بمقدار ما فعله إبراهيم عليه السلام، حيث أخذ ولده وتله للجبين وسعى في ذبح ولده لولا أن تداركته الرحمة الإلهية، وهكذا في ابتلاء يوسف بزليخا التي قضى جراء تمنعه من المعصية سنوات طوالاً في السجن.

والمثال الأجلى لهذه الحقيقة موقف الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، فإنها قضية هزت جوانح العالم وجوارحه، وأذهلت الملك والملكوت، فلو كان الإمام يكتفي في تفهيم العالم مبادئ التضحية والفداء في سبيل الدين ومبادئه المقدسة بالكلمات والخطب والمحاضرات وهو إمام في الفصاحة والبلاغة وفي كل يوم من أيام عاشوراء كان يتكلم مع الناس عن قيمة من قيم الشهادة والفداء فإنه لم يكن بالإمكان تفهيم الناس هذه المفاهيم والقيم بشكلها الصحيح كما قدمه لهم عبر شهادته، فقطع الأعذار، وأقام الحجة على الجميع.

الفائدة الثانية: إخراج الإيمان من النظرية المثالية إلى التطبيق والتجسيد الحي، فإن المائز بين ما هو واقع وبين ما هو خيال أو تصور هو العمل، فمثلاً عفو النبي عن أهل مكة بعد أن ظفر بهم وهم أعداؤه، وعفو الإمام أمير المؤمنين عن قاتله وسقيه من شرابه، وبكاء الإمام الحسين عليه السلام على قاتليه لأنهم يدخلون النار بسببه إذا لم تكن تقع في الخارج لكان الكثير من الناس يتصورون أن هذه مثالية غير قابلة للتطبيق؛ وأنها صفات تجري على خلاف الطبيعة البشرية وحسها بالانتقام والتشفي، إلاّ أن التزام العفو والسماحة وسعة الصدر في مواقفهم عليهم السلام خرج السلوكيات من حيز المثالية إلى حيز

المنهج العملي، فأعطى الفكرة مصداقيتها، وكرسها في نفوس الناس أكثر وأكثر.

الفائدة الثالثة: تمييز أئمة الحق من أئمة الضلالة فيكون أدعى إلى الإيمان الحق، وهذا نوع من اللطف الإلهي بالعباد؛ لأن تكريس الأئمة لمبادئهم يفضح المنتحلين والدجالين الذين قد يلبسون الباطل على الناس، ويسوقونهم إلى الضلال، إلاّ أن وجود القدوة الحسنة بين الناس تضع أمامهم ميزاناً شاخصاً من خلاله يعرفون الحق من الباطل، والصادق من الكاذب؛ بداهة أن للحق أئمة وللباطل أئمة، والمائز هو العمل؛ لأنه لا يقبل الالتباس، بخلاف الأقوال، وبذلك يظهر أن لا غنى للبشر عن القدوة الحسنة، ولا يمكن أن يقتدوا بغير الأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ لأنهم المصداق الأمثل لها.

والخلاصة: أن الضرورات التي قامت عليها نظرية الإمامة كثيرة شهدت لها الأدلة العقلية والنقلية بحسب ما عرفت، ونكتفي هنا بإيراد الصحيحة الواردة عن الرضا عليه السلام في بيان صفات الإمام ومقاماته لما تضمنته من أدلة فطرية وعقلية وشرعية تؤكد الضرورات التي ذكرناها.

فعن عبد العزيز بن مسلم قال: كنا مع الرضا عليه السلام بمرو فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة .... فأداروا أمر الإمامة، وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي عليه السلام فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسم عليه السلام ثم قال: «يا عبد العزيز! جهل القوم وخدعوا عن آرائهم، إن الله عز وجل لم يقبض نبيّه حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بيّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً،

فقال عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[١] وانزل في حجة الوداع وهي آخر عمره ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٢] وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض ﷺ حتى بين لأمته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد سبيل الحق، وأقام لهم علياً عليه السلام علماً وإماماً، وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأمة إلاّ بيّنه، فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر به.

هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم؟! إن الإمامة أجلّ قدراً، وأعظم شأناً، وأعلى مكاناً، وأمنع جانباً، وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم...

إن الإمامة خص الله عز وجل بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة، والخلّة مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها، وأشاد بها ذكره، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٣] فقال الخليل عليه السلام سروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة، وصارت في الصفوة، ثم أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذريته أهل الصفوة والطهارة، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٤].

١- سورة الأنعام: الآية ٣٨.

٢- سورة المائدة: الآية ٣.

٣- سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٤ - سورة الأنبياء: الآية ٧٢- ٧٣.

فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتى ورثها الله تعالى النبيﷺ، فقال جلّ وتعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] فكانت له خاصة، فقلّدهاﷺ علياًعليه السلام بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[٢] فهي في ولد عليعليه السلام خاصة إلى يوم القيامة؛ إذ لا نبي بعد محمدﷺ، فمن أين يختار هؤلاء الجهّال؟!....

إن الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين... الإمام واحد دهره لا يدانيه أحد، لا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضّل الوهّاب، فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره؟!...

فكيف لهم باختيار الإمام؟ والإمام عالم لا يجهل، وراع لا ينكل، معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسولﷺ ونسل المطهرة البتول، لا مغمز فيه في نسب، ولا يدانية ذو حسب في البيت من قريش، والذروة من هاشم، والعترة من الرسولﷺ، والرضا من الله عز وجل... نامي العلم كامل الحلم مضطلع بالإمامة عالم بالسياسة مفروض الطاعة قائم بأمر الله عز وجل ناصح لعباد الله حافظ لدين الله... إن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفقهم الله ويؤتيهم

---

١ - سورة آل عمران: الآية ٦٨.

٢ - سورة الروم: الآية ٥٦.

من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان... فهل يقدرون على مثل فيختارونه، أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدمونه؟! تعدّوا - وبيت الله- الحق، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وفي كتاب الله الهدى والشفاء، فنبذوه واتبعوا أهواءهم خذلهم الله ومقتهم وأتعسهم، فقال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] وقال: ﴿فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[2] وقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[3]»[4].

١- سورة القصص: الآية ٥٠.

٢- سورة محمد: الآية ٨.

٣- سورة غافر: الآية ٣٥.

٤- الكافي: ج١، ص١٩٨ - ٢٠٥، ح١، (بتصرف).

المبحث الثاني
الآراء في الإمامة

اختلف المسلمون في الإمامة اختلافاً كبيراً واحتدم الجدل بينهم في محورين:

المحور الأول: في مكانة الإمامة وحقيقتها.

المحور الثاني: في تعيين الإمام وتنصيبه.

وقد عقدنا هذا المبحث لاستعراض ذلك في ضمن مطلبين:

المطلب الأول: مكانة الإمامة عند المسلمين

اختلفت مذاهب المسلمين في موضوع الإمامة إلى قولين:

القول الأول: ذهب إلى أن الإمامة من أصول الدين؛ لأنها امتداد للنبوة وخلافة للنبي في أدواره ومهامه، وبهذا تكون من المسائل الاعتقادية الأصيلة، ويجب أن تثبت بالنص الشرعي الخاص لا باجتهاد الناس، وهو قول الإمامية كما عرفت.

القول الثاني: ذهب إلى أنها من فروع الدين، ومن المسائل الفقهية الفرعية

التي تفرضها ضرورة الحياة من الحاجة إلى الإمام كرئيس يدبر أمر الرعية، ولذا تتدخل الآراء البشرية في تحديدها وتعيين الإمام، وهو قول الجمهور كما يظهر من كلمات علمائهم:

قال الآمدي: إعلم أن الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات[١].

وصرح الغزالي بأنها من الفقهيات[٢]، وقال ابن خلدون: قصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية ولا تلحق بالعقائد[٣]، وقريب منه قاله التفتازاني[٤]، وهو مورد اتفاقهم.

نعم اختلفوا في مؤهلات الإمام وصفاته، فبعضهم اشترط في الإمام: العلم والعدالة والمعرفة بالسياسة وحسن التدبير، وبعضهم اشترط أن يكون نسبه قرشياً أيضاً، وأضاف ثالث سلامة الحواس والأعضاء والشجاعة، وبعضهم زاد البلوغ والرجولة.

قال الإيجي: الجمهور على أن أهل الإمامة مجتهد في الأصول والفروع ليقوم بأمور الدين، ذو رأي ليقوم بأمور الملك، شجاع ليقوى على الذب عن الحوزة، وقيل لا يشترط هذه الصفات؛ لأنها لا توجد، فيكون اشتراطها عبثاً أو تكليفاً بما لا يطاق، ومستلزماً للمفاسد التي يمكن دفعها بنصب فاقدها. نعم يجب أن يكون عدلاً لئلا يجور، عاقلاً ليصلح للتصرفات، بالغاً لقصور

١ - غاية المرام: ص٣٦٣.
٢ - الاقتصاد في الاعتقاد: ص٢٣٤.
٣ - تاريخ ابن خلدون: ج١، ص٤٦٥.
٤ - شرح المقاصد: ج٥، ص٢٣٢.

عقل الصبي، ذكراً[١].

ويلاحظ على هذا النص ما يلي:

١- وقوع الاختلاف بينهم في مؤهلات الإمام، وأنه ناشئ من أمرين:

أحدهما: عدم وجود نص شرعي عام عندهم يرفع هذا الاختلاف.

وثانيها: دعواهم عدم وجود نص خاص من النبيﷺ يعين الإمام من بعده، فلذا خضعت مؤهلات الإمام عندهم إلى الآراء والاجتهادات الخاصة، فذهب كل طريقاً.

٢- أن بعض ما ذكر من الصفات لا يتطابق مع أقوالهم الأخرى، فمثلاً قالواهنا باعتبار العدالة في الإمام، وفي عين الحال ذهبوا إلى أن الإمام لا ينخلع عن الإمامة بالفسق والظلم، وهذا من المفارقات.

قال الباقلاني: لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله[٢] كما قالوا بأن من يتولى الإمامة بالقوة والغلبة تصح إمامته، مع أن هذا من التناقض؛ إذ لا يعقل أن يكون عادلاً من تولى الإمامة بالقوة والسيف مهما كانت صفاته، خصوصاً إذا غلب من بايعه الناس أو ارتضوه لهم.

٣- أن التأريخ السياسي للدول التي قامت في البلاد الإسلامية يشهد

١- شرح المواقف: ج٨، ص٣٤٩- ٣٥٠.

٢- التمهيد: ص١٨١؛ وانظر شرح العقيدة الطحاوية: ص٣٧٩.

بمخالفة الصفات المذكورة، وعدم الالتزام بها من قبلهم، إذ كانت ولازالت تعتبر حكومة الكثير ممن لم يتمتع بهذه المؤهلات شرعية، ولا يجوز الخروج عنها كما تعتبر الملوك والحكام الفسقة الجائرين أولياء للأمر تجب طاعتهم ولا يجوز مخالفتهم، وهو تناقض صريح.

المطلب الثاني: في طرق تنصيب الإمام

في ضوء الاختلاف السابق يظهر الاختلاف في طرق تنصيب الإمام، فقد ذهب الإمامية إلى أن الإمامة تثبت بالنص وليس للناس فيها رأي أو خيار، وقد استدلوا على ذلك بآيات وروايات متواترة، مضافاً إلى دليل العقل، وأما الجمهور فحيث ذهبوا إلى أنها من فروع الدين قالوا بأن للناس رأياً في تنصيب الإمام، وقد ذكروا لذلك طرقاً:

الطريق الأول: البيعة من قبل أهل الحل والعقد، واستدلوا عليه بثبوت إمامة أبي بكر بالبيعة كما قاله الإيجي في شرح المواقف[1]، واختلفوا في تحديد العدد الذي تتحقق به شرعية البيعة من أهل الحل والعقد.

قال الماوردي: اختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم على مذاهب شتى، فقالت طائفة: لا تنعقد إلاّ بجمهور أهل الحل والعقد من كل بلد؛ ليكون الرضا به عاماً والتسليم لإمامته إجماعاً، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر على الخلافة باختيار من حضرها، ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها.

وقالت طائفة أخرى: أقل ما تنعقد به منهم الإمامة خمسة يجتمعون على

---

١ - شرح المواقف: ج٨، ص٣٥١.

عقدها، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة استدلالاً بأمرين:

أحدهما: أن بيعة أبي بكر انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها، ثم تابعهم الناس فيها، وهم: عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وأسيد بن خضير، وبشر بن سعد، وسالم مولى أبي حذيفة.

وثانيهما: أن عمر جعل الشورى في ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة.

وقال آخرون من علماء الكوفة: تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين؛ ليكونوا حاكماً وشاهدين، كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين.

وقالت طائفة أخرى: تنعقد بواحد؛ لأن العباس قال لعلي: أمدد يدك أبايعك فيقول الناس: عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان؛ ولأنه حكم وحكم واحد نافذ [1].

ويلاحظ على ما ذكر أكثر من ملاحظة:

الأولى: أن الاختلاف الشديد الواقع في تحديد من تنعقد الإمامة بهم أورث التناقض.

الثانية: أن أصحاب كل قول استدل على قوله بسيرة الصحابة وفعلهم، وهو لا يصح إلاّ بشرطين:

أحدهما: إثبات العصمة أو حجية سيرتهم شرعاً وعقلاً بحيث أن ما يقرروه يعتبر حجة علينا، وهذا في نفسه غير صحيح؛ لما عرفت من اختلاف

١- الأحكام السلطانية: ص٦- ٧.

الصحابة في اجتهادهم في أمر الإمامة، وحينئذ إن قيل بصحة جميع اجتهاداتهم على اختلافها كان تناقضاً، وإن قيل بترجيح اجتهاد بعضهم على بعضهم كان بلا مرجح، وإن قيل بعدم صحة اجتهادهم بطلت حجية سيرتهم، وإذا بطل السبب بطل المسبب أيضاً.

ثانيهما: إثبات صحة الدور، والحال أن الدور باطل باتفاق العقلاء.

فإن الاستدلال على صحة إمامة بعض الصحابة على فعل نفس هذا البعض دور صريح.

وبيانه: أن إمامة أبي بكر توقفت على بيعة بعض الصحابة واعتبار بيعة بعض الصحابة متوقفة على قبول أبي بكر لها من جهة أنه صحابي، فتوقفت حجية أفعال بعض الصحابة على حجية أفعال بعض الصحابة وهو دور ومن جهة أخرى توقفت إمامة أبي بكر على بيعة أبي بكر، فتوقفت حجية فعله على حجية فعله وهو دور آخر، فتدبر.

الثالثة: أن تنزيل الإمامة منزلة النكاح قياس لم يعرف له وجه؛ بداهة أن الفرق كبير بين عقد الزواج الذي يوجد العُلقة بين شخصين وبين عقد الإمامة الذي يوجد العُلقة بين الراعي والرعية؛ بداهة أن العُلقة الأولى شخصية وهذه عامة، وأن المصلحة في الزواج شخصية وهنا اجتماعية، وبالتالي فإن علاقة الراعي بالرعية أهم من علاقة الزوجين في عقد الزواج وأخطر؛ لما يترتب عليها من مصالح عامة في الدماء والفروج والأموال العظيمة، وهذا يتطلب مزيداً من التشديد والعناية في تنصيب الإمام، بخلاف أمر الزواج، وعليه فان تصحيح الزواج بحاكم وشاهدين لا يلازم تصحيح تنصيب الإمامة بحاكم وشاهدين.

الرابعة: أن هذا القول يتضمن التناقض من جهات عديدة:

منها: سكوته عن إعتراض جمع من الصحابة عن إمامة بعض الصحابة الذين تولوا الإمامة ببيعة بعض نفر من المسلمين، ومن الواضح أن المعترض والمعترض عليه صحابي، فإذا كان فعل الصحابة حجة في ولاية الإمامة لكان فعل المعترضين من الصحابة حجة في عدم صحة هذه الولاية؛ لأن الاثنين صحابة ولهم ذات الرتبة والمكانة، والصحابة الذين لم يبايعوا أبا بكر اعتراضاً وتنديداً كثيرون وبعضهم أقرب للنبي وأعلم بحدود الإسلام وأحكامه وارقى رتبة من سائر الصحابة، منهم: سلمان الفارسي، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، وحذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، والمقداد بن الأسود الكندي، وسعد بن معاذ الأنصاري، وأبو الهيثم بن التيهان، وعمار بن ياسر، وضباب بن الأرت، وسعد بن عبادة الأنصاري، وبريدة الأسلمي، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبو أيوب الأنصاري، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو سعيد الأنصاري، فضلاً عن بني هاشم[1].

حتى إن الزبير اعترض على بيعة أبي بكر ووقف في السقيفة أمام المبايعين شاهراً سيفه، وهو يقول: لا أغمده حتى يبايع علي، فقال عمر: عليكم

---

١ - تحفة الأبرار(للطبري): ص٣٠٠-٣٠١؛ وانظر تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١٦٢؛ أنساب الأشراف: ج١، ص٥٨٨؛ العقد الفريد: ج٤، ص٢٥٩؛ شرح نهج البلاغة(لإبن أبي الحديد): ج٢، ص٥٠ وما بعدها.

الكلب، فأخذ سيفه من يده، وضرب به الحجر وكسر[١]. والنتيجة الحاصلة من ذلك هو التناقض.

ومنها: تضمنه الاعتقاد بعدم وجود نص من النبي ﷺ يحدد موضوع الإمامة، ولم يعيّن الإمام، ولازمه التنقيص من مكانة النبي ونسبة التقصير إليه في مهامه الإلهية وعدم مبالاته بأمر الدين والخلافة حتى إنه نص على الكثير من الأمور العادية، ولم ينص على الأمر الأخطر والأهم وهو الإمامة والإمام. هذا فضلاً عن أن طريق البيعة في نفسه لا يصلح لإثبات الخلافة؛ لأنه يستلزم مخالفة الكتاب والسنّة من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: البدعة، وذلك لأن رسول الله ﷺ لا يخلو إما أن يكون قد عيّن الإمام باسمه وصفته من بعده كي لا يشتبه على الخلق أمره فيقعوا في الفتنة أو لم يعيِّنهُ، فإن كان ﷺ لم يعيّن ذلك كان اختيار الأمة وبيعتها بدعة، وكل بدعة ضلالة[٢]؛ إذ إن كل شيء ينسب إلى الله والرسول لابد وأن يكون مستنداً إليهما بالنص، وإن كان عيّن كان اختيار الأمة مخالفة للرسول ﷺ، وهو معصية كبرى.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٣].

الوجه الثاني: تنصيب الكفار والمنافقين؛ إذ لو أمكن أن تكون الخلافة

١ - الإمامة والسياسة: ج١، ص١١.
٢ - المعجم الكبير (للطبراني): ج١٨، ص٢٤٦، ح٦١٧.
٣ - سورة الأحزاب: الآية٣٦.

بالبيعة لأمكن أن يبايع الكافر والمنافق؛ لأن العلة مشتركة بينهما وبين المؤمن، وحيث إن التالي باطل فالمقدم مثله.

الوجه الثالث: أن تكون النبوة بالبيعة أيضاً؛ إذ لو أمكن أن تكون الإمامة بالاختيار والبيعة لأمكن أن تكون النبوة كذلك لاشتراكهما في سبب التعيين وغايته، وحيث إن التالي باطل فالمقدم مثله.

هذا فضلاً عما يحكم به العقل من عدم نهوض البيعة لإثبات خلافة أبي بكر؛ لأن الذين بايعوا أبا بكر في السقيفة كانوا أحد عشر في أعلى تقدير لهم، بينما الذين بايعوا علياً يومذاك سبعة عشر نفراً باتفاق المسلمين، وعليه فإذا صحت بيعة أحد عشر كانت بيعة سبعة عشر أولى وأحق لاسيما وإنها معضودة بالقرابة والأعلمية لعلي عليه السلام والتي لا يختلف عليها اثنان[١].

بل أن الأسلوب العقلائي والدستوري في الأنظمة الشورية والديمقراطية في العالم اليوم قائم على تقديم الأكثرية على الأقلية ومنح حق السلطة والرئاسة للأكثر أصواتاً، وقد كان لعلي عليه السلام، باتفاق الكلمة، بخلاف بيعة أبي بكر فإنها كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها، فمن عاد لمثلها فاقتلوه كما صرح به عمر[٢]، كما طلب أبو بكر من المسلمين أن يقيلوه عن الخلافة، وقال: أقيلوني[٣].

١ - انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص٨٣-٨٤.

٢ - الفائق (للزمخشري): ج٢، ص٢٩٦؛ لسان العرب: ج١٠، ص٣١١، (فلت)؛ وانظر تحفة الأبرار (للطبري): ص٧٥.

٣- الاقتصاد: ص٢٠٨؛ الرسائل العشر: ص١٢٣؛ الاحتجاج: ج١، ص١٠٤؛ انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص١٣٢.

فبيعة أبي بكر في نفسها غير شرعية بإقراره وبإقرار عمر الذي أعد لها وفرضها على الناس، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام حينما نصب أبو بكر عمر بن الخطاب من بعده: «فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته»[١].

كما أرسل جمع من الصحابة إليه طلحة حينما علموا عزمه على تنصيب عمر من بعده فقالوا له: إن عمر رجل فظ غليظ القلب فلا توله علينا واختر لنا سواه، فلم يقبل كلامهم[٢].

هذه الشواهد تؤكد أن أبا بكر أبطل البيعة قولاً كما أبطلها عملاً، ونستنتج منها أن البيعة لا تصلح لإثبات الخلافة بوجه من الوجوه؛ لأنها باطلة في نفسها من جهة عدم المقتضي، فضلاً عن وجود المانع.

الطريق الثاني: القوة والغلبة، وهي عكس الطريق الأول تماماً، فقد روي عن أحمد ما يدل على أن الإمامة تثبت بالقهر والغلبة، ولا تفتقر إلى العقد، فقال في رواية عبدوس بن مالك العطار: ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً براً كان أو فاجراً[٣].

وقال في رواية أبي الحرث في الإمام: يخرج إليه من يطلب الملك فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم، تكون الجمعة مع من غلب، واحتج بأن ابن عمر

١- نهج البلاغة: ج١، ص٣٢، الخطبة ٣.

٢ - تحفة الأبرار (للطبري): ص١١٦؛ وانظر الكامل (لابن كثير): ج٢، ص٤٢٥.

٣- معالم المدرستين: ج١، ص١٤٨؛ كشاف القناع: ج٦، ص٢٠٢؛ وضوء النبي صلى الله عليه وآله: ج١، ص٢٣١.

صلى بأهل المدينة في زمن الحرة وقال: نحن مع من غلب[١] .

وقال وهبة الزحيلي: رأي فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم أن الإمامة تنعقد بالتغلب والقهر؛ إذ يصير المتغلب إماماً دون مبايعة أو استخلاف من الإمام السابق، وإنما بالاستيلاء، وقد يكون مع التغلب المبايعة أيضاً فيما بعد[٢]، ولا حاجة إلى مناقشة هذا القول لوضوح الخلل فيه، ولا يبعد أن يكون هذا الرأي من تأسيس الحكام والسلاطين لا العلماء والفقهاء لأنه يخدم أغراضهم.

الطريق الثالث: الشورى، وقد سلك هذا المسلك جماعة من المتكلمين في العصور المتأخرة، لهدفين:

أولهما: تبرير شرعية الخلافة في العصر الأول وإرجاعها إلى رأي الأمة.

ثانيهما: موائمة الخلافة الإسلامية مع الشرعية السياسية الحديثة التي تؤمن بالديمقراطية - كما يقال - ورأي الشعب في منح السلطات شرعيتها.

وقد استدلوا على هذا المسلك بالكتاب وبسيرة الصحابة. أما الكتاب فقد استدلوا بآيتين منه:

الآية الأولى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٣].

١- انظر دراسات في ولاية الفقيه: ج١، ص٤٠٢، رقم (٢)؛ الأحكام السلطانية: ج١، ص٢٣؛ فقه الدولة: ج ١، ص٣٩١.

٢- الفقه الإسلامي: ج٦، ص٦٨٢، دراسات في ولاية الفقيه: ج١، ص٤٠٣-٤٠٤؛ فقه الدولة: ج ١، ص٣٩١.

٣- سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

وتقريب الاستدلال: أن الله سبحانه أمر نبيه المصطفى بمشاورة الأمة تعليماً لها لتتخذ المشاورة نهجاً في مختلف شؤونها وأهمها الخلافة.

ويلاحظ عليه:

أولاً: أن الآية ظاهرة بل صريحة في أن النبيﷺ يستشير أمته لكونه أماماً وزعيماً، فيستشير أمته لا ليستنير برأيها لأنه معصوم بالنبوة، بل ليطيب خواطرها، ويؤلف قلوبها، ويوحد كلمتها.

فغاية ما تفيده الآية هو أن الشورى أمر مطلوب للزعيم بعد توليه الزعامة، ولا تفيد أن تولي الزعامة في نفسه يكون بالشورى أيضاً، وعليه فيكون الاستدلال بالآية على إثبات المدعى من الخروج الموضوعي؛ لأنها ناظرة إلى جعل الشورى وسيلة حكم وتدبير وليست أداة تنصيب وتعيين.

وثانياً: أن الآية لا تثبت حجية الشورى، بل تبطلها؛ لأنها علقت الموقف على اختيار النبيﷺ لا اختيار الأمة، فقال تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ**﴾ ولو كانت نتيجة الشورى ملزمة لم يعلقها الباري عز وجل على عزم النبيﷺ، وإذا كانت الدلالة هذه كانت غير ملزمة لغير النبيﷺ أيضاً؛ لأنه قدوة، فتدل على أن الشورى ليست ملزمة.

ثالثاً: أن الآية مجملة الدلالة؛ لأنها أوجبت المشاورة في الأمر ولم تحدد المراد من الأمر، ولعل من هنا لم يحتج أحد من الحاضرين في السقيفة من الذين نصبوا أبا بكر وبايعوه بهذه الآية لإثبات شرعية خلافته مع أنهم كانوا يطمحون إلى الاستدلال، فاستدلوا بوجوه عديدة إلاّ هذه الآية ونظائرها. الأمر الذي يكشف عن أنهم ما فهموا من الآية دلالتها على أمر الخلافة

والإمامة، وهذا يكفينا لرد الاستدلال عليهم؛ لأن فهم الصحابي وعمله حجة عندهم.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١).

وتقريب الاستدلال: أن الآية تضمنت الأمر بالشورى في جملة خبرية في مقام الإنشاء، ومثل هذه الجملة آكد في دلالتها على الوجوب من صيغة الأمر، فتفيد وجوب الشورى في عموم المسائل التي تهم المسلمين، ومن أهمها الخلافة والحكم. دل على ذلك إضافة الضمير (هم) إلى (أمر) الذي يفيد العموم؛ إذ لم تحدده في أمر من الأمور، فتدل على المطلوب.

ويلاحظ عليه:

أولاً: أن دلالتها على الخلافة غير واضحة إما لانصراف (أمرهم) إلى غير الخلافة أو لإجماله؛ إذ لم يعلم أن الخلافة عن النبيﷺ يعد من شؤون الأمة فيكون لها الاختيار فيه أم يعد من شؤون الباري عز وجل فلا اختيار للأمة فيه. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (٢) ومنشأ هذا التردد هو الشك في أن خلافة النبيﷺ هل هي حكومة دنيوية وسلطة تدبيرية كسائر السلطات السياسية في البلاد أم هي حكومة دينية وسلطة إلهية لا ينالها إلاّ من اختاره الله سبحانه؟

والحق الذي يقتضيه التحقيق هو الثاني لا الأول، وهو ما دلت عليه

١- سورة الشورى: الآية ٣٨.

٢- سورة القصص: الآية ٦٨.

النصوص المتضافرة والإجماع والعقل، وإذا كان كذلك لم يكن للأمة اختيار فيها، بل هي كالنبوة لا يحكم فيها إلاّ الله سبحانه، وليس للناس رأي فيها من قريب أو بعيد.

والخلاصة: أن الآية إما مجملة من حيث الدلالة فلا تصلح دليلاً للمدعى المذكور، وإما خارجة موضوعاً عن الخلافة لكون الخلافة من الشؤون الإلهية التي لا يتدخل فيها الناس، ويشهد لذلك أن الصحابة أنفسهم الذين أخذوا بالشورى في السقيفة لم يستدلوا بهذه الآية على موقفهم، مما يكشف عن فهمهم لعدم الدلالة.

وثانياً: أن التمسك بالآية لاثبات المدعى يكون من التمسك بالدليل العام في الموضوع المشكوك، وهو ممتنع عقلاً؛ إذ مع إجمال المراد من الأمر لا يمكن تطبيقه على شورى الخلافة؛ لأن تطبيق الآية على الموضوع يستدعي ثبوت الموضوع، وحيث لم يثبت يمتنع التطبيق.

وثالثاً: مخالفة الصحابة لشورى الأمة في أمر الخلافة دليل على عدم شرعية هذا الطريق عند القائلين به؛ لأن خلافة أبي بكر تمت باختيار جماعة قليلة من الصحابة، وخلافة عمر عينها أبو بكر بمفرده، وخلافة عثمان تمت باختيار عبد الرحمن بن عوف واثنين أو ثلاثة من الصحابة، وفي جميع الصور لم يؤخذ برأي الأمة فيها، بل برأي القلة القليلة من الصحابة، وحيث إن فعل الصحابة حجة عند القائلين به فيلزمهم القول بعدم حجية الشورى في الخلافة.

ورابعاً: على فرض تسليم كل ما ذكر إلاّ أن النصوص الكثيرة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تنفي أن تكون دلالة الآية على الشورى في الخلافة، فقد ورد

أنهﷺ لما دعا بني عامر إلى الإسلام وقد جاؤوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فأجابهﷺ بقوله: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»[١].

فلو كان أمر الخلافة بيد الأمة لكان عليهﷺ أن يقول الأمر إلى الناس، أو إلى العقلاء، أو أهل الحل والعقد منهم، فتفويض أمر الخلافة إلى الله سبحانه صريح في أن المناصب الإلهية نبوة كانت أو إمامة تثبت بالنص لا باختيار الناس.

الإمامة بالنص

وهي نظرية الإمامية وتقوم على أن الإمامة لا تثبت بالطرق البشرية التي آمن بها الجمهور، وإنما تثبت بالنص فقط ، وقد استدلوا لذلك بأدلة نقلية وعقلية كثيرة. أما الأدلة النقلية فآيات عزيزة من القرآن الكريم:

منها: قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢].

وتقريب الاستدلال: أن الخيرة اسم من الاختيار أقيم مقام المصدر، وربما يكون اسم لمن وقع عليه الاختيار، وهو المختار، فيقال مثلاً: محمدﷺ خيرة الله على خلقه[٣]، والمعنى الأول يدل على أن الله سبحانه هو الذي يختار في

١- السيرة النبوية (لابن هشام): ج٢، ص٤٢٤.

٢- سورة القصص: الآية ٦٨.

٣- مجمع البيان: ج٧، ص٤٥٣؛ الكشاف: ج٣، ص٤٦٣ تفسير الآية المزبورة.

الخلق سواء في أصل الخلق والإيجاد أم في التفضيل، فكما أن الله سبحانه يختار في أن يجعل الشمس والقمر ويختار في إيجاد زيد وعمرو كذلك يختار في تفضيل الشمس على القمر، ويجعل زيداً أفضل من عمرو؛ لأنه هو الخالق فيملك سلطة التصرف والتقدير في خلقه، وليس لأحد غيره حق في ذلك، وهذا ما يقره العقل، ويشهد به القرآن في آيات عديدة، فمثلاً فضل الخالق بني آدم على غيرهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا﴾[١].

وفضل بني آدم بعضهم على بعض فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٖ دَرَجَٰتٖ﴾[٢] وحتى أنبياؤه ورسله الذين جعلهم أئمة وهداة لعباده فضل بعضهم على بعض فقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖ﴾[٣].

وإن كان لهذا التفضيل وجوه في الحكمة كما قد عرفت ولم يقع عبثاً أو جزافاً إلاّ أن وقوعه في نفسه يعود إلى الاختيار والإرادة الإلهية لا غير، ومن هذا القبيل اختيار النبي والإمام.

وهذا ما يؤكده شأن النزول؛ إذ جاءت الآية رداً على المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٤] فاختاروا الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، فأجابهم الباري عز وجل بأنه

---

١ – سورة الإسراء: الآية ٧٠.
٢– سورة الزخرف: الآية ٣٢.
٣– سورة البقرة: الآية ٢٥٣.
٤– سورة الزخرف: الآية ٣١.

الذي يختار للرسالة من هو الأصلح ويجعله نبياً لا هم، وهو قول الأكثر[١].

والمعنى الثاني يتوافق مع هذا المضمون أيضاً؛ لأن تفسير الخيرة باسم المفعول وهو المختار ينطبق في أظهر مصاديقه على النبي ﷺ والإمام عليه السلام فتتم الدلالة.

ولعل قوله تعالى في ذيل الآية ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢] يشير إلى أن أي اختيار يقع في مقابل اختيار الله يعد من الشرك؛ لأن لازمه هو تقديم هوى النفس والشيطان على إرادة الله سبحانه، فنزهته الآية عن أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره اختيار البشر، كما أنه منزه من أن يكون له شريك في خلقه، وتعضد الدلالة شواهد ثلاثة:

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[٣] ودلالتها على المطلوب ظاهرة، كما أنها تدل على أن الاختيار في مقابل اختيار الله سبحانه ورسوله يعد عصياناً ومنكراً من حيث التشريع، كما أنه يعد ضلالاً وتيهاً في العمل من حيث التكوين.

الشاهد الثاني: الروايات المعتبرة التي نصت على أن اختيار الإمام بيد الله سبحانه لا بيد الناس، ففي تفسير القمي في معنى الآية: يختار الله عز وجل

١- انظر مجمع البيان: ج٧، ص٤٥٣؛ الكشاف: ج٣، ص٤٦٣؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٩، تفسير الآية المزبورة.

٢- سورة القصص: الآية ٦٨.

٣- سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

الإمام وليس لهم أن يختاروا[١]، وفي الكافي عن الرضا عليه السلام في ذم الذين قدموا اختيارهم على اختيار الله سبحانه في الإمامة قال: «رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته إلى اختيارهم، والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[٢]»[٣].

وفي رواية سعد بن عبد الله القمي عن مولانا الحجة القائم عجل الله فرجه ورد ما يبين سبب عدم صحة اختيار الأمة للإمام، وفيها: قلت: فاخبرني عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الإمام لأنفسهم؟

قال: «مصلح أو مفسد؟ أي إمام مصلح أم مفسد. قلت: مصلح. قال: «فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟» قلت: بلى. قال: «فهي العلة، وأوردها لك ببرهان ينقاد له عقلك» ثم قال عليه السلام: «أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل، وأنزل عليهم الكتب، وأيدهم بالوحي والعصمة؛ إذ هم أعلام الأمم، وأهدي إلى الاختيار منهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذا همّا بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق، وهما يظنان أنه مؤمن؟» قلت: لا فقال : «هذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عز وجل سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم، فوقعت خيرته على المنافقين. قال الله عز وجل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ

١ - تفسير القمي: ج٢، ص١٤٢.
٢ - سورة القصص: الآية٦٨.
٣ - الكافي: ج١، ص٢٠١، ح١.

رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾[١] إلى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[٢] فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله عز وجل للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه الأصلح دون الأفسد، علمنا أن لا اختيار إلاّ لمن يعلم ما تخفي الصدور، وما تكن الضمائر، وتتصرف عليه السرائر، وأن لا خطر لاختيار - أي لا أهمية أو اعتبار- المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح»[٣].

وقريب من هذا المضمون ورد بطرق الجمهور عن ابن عباس وأيده الطبري والقرطبي والرازي من المفسرين[٤].

الشاهد الثالث: حكم العقل القاضي بأن الله سبحانه الذي خلق الخلق وأوجدهم لطفاً منه ورحمة فأوصل إليهم ما ينفعهم في أمور دنياهم يقبح أن يتركهم في ضلال وتيه فلا يوصل إليهم ما ينفعهم في أمور دينهم، فكما أنه اختار لهم الإيجاد والخلق لإيصالهم إلى كمالهم التكويني لابد وأن يختار لهم

---

١ - سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

٢ - سورة البقرة: الآية٥٥.

٣ - كمال الدين: ص٤٦١- ٤٦٢، ح٢١؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٤٢، ح٩٩؛ واختيار موسى للمنافقين لا يخل بعلمه وعصمته؛ لأنه يعود لوجوه عديدة:
منها: أنه كان يعلم بحالهم إلاّ أنهم كانوا أفضل الموجودين من قومه.
ومنها: أنه أراد أن يعلمهم بأن جوهر الإيمان هو المعرفة مع صدق العمل لا لقلقة لسان.
ومنها: أنه أراد أن يثبت لقومه ولغيرهم كالمسلمين بأن الاختيار يكون لله؛ لأن البشر يخطئ، فيعد لموقف النبي صلى الله عليه وآله في اختيار علي عليه السلام للإمامة.

٤ - انظر جامع البيان: ج٢٠، ص٦٣- ٦٤؛ تفسير القرطبي: ج٧، ص٢٧١؛ تفسير الرازي: ج٩، ص١٠؛ تفسير الآية المزبورة.

ما يهديهم ويوصلهم إلى كمالهم المعنوي وهو النبي والإمام، وهذا الحكم مما تتوافق عليه العقول بغض النظر عن اتجاهاتها الفكرية، وبه تمسك جماعة ممن انكروا اختيار الله ورسوله للإمام من بعد رسول الله ﷺ، واثبتوا وجوب تنصيب الخليفة على الأمة.

منهم: عبد الله بن عمر حيث قال لأبيه: إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك! زعموا أنك غير مستخلف، وقد علمت أنه لو كان راعي غنم فجاءك وقد ترك رعايته رأيت أن قد ضيّع، فرعاية الناس أشد[1].

ومنهم: عائشة إذ قالت لابن عمر: يا بني! أبلغ عمر سلامي وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع. استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة[2].

ومنهم: معاوية بن أبي سفيان حينما استخلف ولده يزيد وجهه بقوله: إني كرهت أن أدع أمة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها[3].

بل استدل جمع من القائلين بأن اختيار الإمامة بيد الأمة لا بيد الله والرسول بتواتر إجماع المسلمين في الصدر الأول بعد وفاة النبي ﷺ على امتناع خلو الوقت من خليفة وإمام حتى قال أبو بكر في خطبته المشهورة حين وفاته ﷺ: ألا وإن محمداً قد مات، ولابد لهذا الدين ممن يقوم به، فبادر الكل إلى قبول قوله ولم يقل أحد إنه لا حاجة إلى ذلك، بل اتفقوا عليه وقالوا:

١ - السنن الكبرى: ج٨، ص١٤٩؛ وانظر صحيح مسلم: ج٦، ص٥.
٢- الإمامة والسياسة: ج١، ص٢٣.
٣- الإمامة والسياسة: ج١، ص١٨٤.

ننظر في هذا الأمر! وبكروا إلى السقيفة، وتركوا دفن رسول الله ﷺ، ولم يزل الناس بعدهم على ذلك في كل عصر إلى زماننا هذا من نصب إمام متبع[١].

وهذا من المفارقات حقاً؛ لأنهم أنكروا تعيين النبي ﷺ للإمام من بعده في الوقت الذي أوجبوا تعيينه؛ لأن في عدم تعيين الإمام تقع الفتنة، وتضيع الأمة وتهلك، وفضلاً عن التناقض الصريح في هذا القول فإنه ينسب للنبي ﷺ تضييع الأمة، كما يجعله أدنى رتبة من مثل معاوية وعائشة وابن عمر؛ لأنهم أدركوا وجوب نصب الأمام والنبي ﷺ ولم يدركه!!

والحاصل: أن وجوب نصب الأمام أمر متفق عليه بين الجميع؛ لأنه مما يقضي به العقل السليم، ونص القرآن الكريم على أن هذا التنصيب بيد الله سبحانه ورسوله ﷺ لا بيد الأمة. هذا كله من حيث الكبرى، وأما من حيث الصغرى فإن القرآن الكريم اثبت في آيات عديدة أن الله والرسول قد اختارا للأمة علياً إماماً وخليفة، ونكتفي بثلاث منها:

الأولى: آية التبليغ، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٢].

فقد تواتر النقل من طرق الجمهور فضلاً عن الإمامية بأن الآية نزلت في تنصيب علي عليه السلام ولياً على المؤمنين في واقعة الغدير، حيث أخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام وقال: «أيها الناس ألست أولى منكم بأنفسكم؟» قالوا: بلى يا

١- انظر شرح المواقف: ص٦٠٣؛ كشف المراد: ص٣٩٣، وما بعدها.

٢- سورة المائدة: الآية ٦٧.

رسول. الله قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، أللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله، وأدر الحق معه كيفما دار»[١].

ولا نزاع في أن النبي أولى من المؤمنين بأنفسهم، بل هو ما نص عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٢] ومعناه أنه الأولى بالتصرف بهم وبشؤونهم، وهو الإمام والحاكم عليهم، وقد جعل النبي ﷺ هذا المقام لعلي عليه السلام من بعده، فيكون كالنبي إماماً وحاكماً عليهم، وتتضمن الآية المباركة الدلالة على أمرين هامين:

الأول: أن الإمامة أمر يتنزل من قبل الله سبحانه والرسول ﷺ يبلغه، فالله يختار الإمام ويعينه لهذا المنصب كما يختار النبي، وليس للناس فيه اختيار، وقد عرفت أن الذي اختاره الله سبحانه وبلغ به النبي ﷺ هو علي بن أبي طالب عليه السلام بالتواتر.

الثاني: أن الذي بلغ به النبي ﷺ هو الإمامة والإمام لا غير؛ لأنهما اللذان تدور عليهما رحى الرسالة، بحيث إذا لم يبلغ بهما الرسول ينتقض الغرض من البعثة وتبليغ الرسالة وأما غيرهما من الحقائق فإن عدم تبليغها لا يكون بمنزلة عدم تبليغها مهما كان من الأهمية، والأمر واضح جلي فقد جرت سيرة الأنبياء بل والملوك والرؤساء على أن كل واحد منهم غاب أو رحل من الدنيا نصب من ينوب عنه في مهامه ووظائفه؛ لأنهم يرون في ترك الأمر

١ - انظر شواهد التنزيل: ج١، ص١٨٧؛ الدر لمنثور: ج٢، ص٢٩٨؛ فتح القدير: ج٣، ص٥٧؛ وراجع غاية المرام: ص٣٣٤- ٣٣٥؛ نهج الحق: ص١٧٣، هامش رقم١؛ الغدير: ج١، ص٢١٤- ٢٢٣.

٢ - سورة الأحزاب: الآية ٦.

على عواهنه من دون تنصيب النائب والخليفة تضييعاً لأهدافهم ومهامهم، وهدماً لما أسسوه، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكمل الأنبياء وسيد العقلاء لا يحيد عن طريقتهم في ذلك.

ويشهد لكل هذا حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عدم موافقة قومه له واعتراضهم عليه، ولذا حثه الباري تبارك وتعالى حثاً أكيداً وحذره من التوقف عنده أو ترك تبليغه؛ لأن السكوت عنه يساوي السكوت عن تبليغ أصل الرسالة، وفي عين الحال أعطاه ضماناً بالعصمة من الناس ومن مخاوفهم؛ إذ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] وتدل الأخبار المستفيضة على أن هذا التنصيب ثقل على الكثير من الصحابة، وأنكروا على النبي ذلك، ودبروا الدسائس للحؤول دونه.

منها: ما ورد في قضية النعمان بن الحرث الفهري حيث ورد بطرق عديدة أنه لما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام يوم غدير خم وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» طار ذلك في البلاد، فقدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم النعمان بن الحرث الفهري فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام، فقلت: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهذا شيء منك، أو أمر من عند الله؟ فقال: «والله الذي لا إله إلاّ هو إن هذا من الله» فولى النعمان بن الحرث وهو يقول: اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء! فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[2].

١ - سورة المائدة: الآية ٦٧.

٢ - سورة المعارج: الآية ١.

وروى هذه الواقعة العلامة الطبرسي عن الحسكاني مسندة إلى الصادق من آل محمد عليهم السلام [١]، وهذا المضمون مروي عن كثير من المفسرين ورواة الحديث من الفريقين، وقد ذكر العلامة الأميني في الغدير ثلاثين عالماً مشهوراً من علماء العامة رووا الحديث بالسند والنص[٢]. هذا فضلًا عن الإمامية وهي كثيرة أيضاً[٣] بما يفيد التواتر لفظاً أو معنىً عند الفريقين.

ومن الواضح أن تبليغ غير الإمامة والإمام كالأحكام الشرعية ونحوها لم تكن محط حذر النبي وتخوفه من الناس في يوم من الأيام، وهو الذي صدع بها، وخاض لأجلها الحروب، وقدم التضحيات.

بينما وردت الأخبار عن ابن عباس وجابر بن عبد الله قالا: أمر الله محمداً صلى الله عليه وآله أن ينصب علياً عليه السلام للناس فيخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقولوا: حابى ابن عمه، وإن يشق ذلك على جماعة من الصحابة وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه هذه الآية فقام بولايته يوم غدير خم[٤].

ومثل ذلك ورد بطرقنا عن الباقر والصادق عليهما السلام [٥]

ومنها: ما ورد في ساعة احتضاره صلى الله عليه وآله بعد عودته من حجة الوداع؛ إذ كان في محضره صلى الله عليه وآله رجال ممن كان يخشى دسائسهم منهم عمر بن الخطاب، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «هلمّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فقال عمر: إن رسول

١ - مجمع البيان: ج١٠، ص١١٩.
٢ - انظر الغدير: ج١، ص٢٣٩ - ٢٤٦؛ ضياء العينين عن فرائد السمطين: ص٥٦، ح٥٣.
٣ - انظر الكافي: ج١، ص٤٢٢، ح٤٧.
٤ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٨٢، تفسير الآية المزبورة؛ وانظر كنز الدقائق: ج٤، ص١٤٩.
٥ - مجمع البيان: ج٣، ص٣٨٣.

الله قد غلب عليه الوجع، فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول قرّبوا إليه يكتب ومنهم من يقول القول ما قاله عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عنده صلى الله عليه وآله قال لهم صلى الله عليه وآله: «قوموا» فقاموا[١].

وفي البخاري ومسلم ومسند أحمد: فأكثروا اللغط واللغو والاختلاف فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله: «قوموا»[٢].

وفي رواية ثالثة: فلما أكثروا اللغط واللغو والاختلاف غضب النبي صلى الله عليه وآله فقال: «قوموا»[٣].

وفي رواية رابعة: فاختصموا ... فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم صلى الله عليه وآله: «قوموا» فكان ابن عباس يقول: أن الرزيّة كل الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[٤].

بل قد ورد بطرق أهل البيت عليهم السلام ما يدل على أنهم كانوا يضايقون علياً في محضر رسول الله صلى الله عليه وآله، ويسعون لانتهاك حرمته كرهاً منهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد ورد عن محمد بن القبطي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «الناس غفلوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام يوم غدير خم، كما غفلوا

١- شرح نهج البلاغة: ج٢، ص٥٥.

٢- صحيح البخاري: ج٤، ص٥؛ صحيح مسلم: ج٢، ص١٤؛ مسند أحمد: ج١، ص٣٢٥؛ الاحتجاج: ج١، ص٢٢٣.

٣- شرح نهج البلاغة: ج٢، ص٢٥.

٤- صحيح البخاري: ج٥، ص١٣٨؛ ج٧، ص٩؛ ج٨، ص١٦١؛ صحيح مسلم: ج٥، ص٧٦.

يوم مشربة[١] أم إبراهيم أتاه الناس يعودونه، فجاء عليعليه السلام ليدنو من رسول اللهصلى الله عليه وآله، فلم يجد مكاناً، فلما رأى رسول اللهصلى الله عليه وآله أنهم لا يوسّعون لعليعليه السلام نادى: يا معشر الناس! أفرجوا لعلي، ثم أخذ بيده وأقعده معه على فراشه، وقال: يا معشر الناس! هؤلاء أهل بيتي تستخفون بهم وأنا حي بين ظهرانيكم، أما والله لئن غبت عنكم فالله لا يغيب عنكم، إن الروح والراحة والرضوان والبشر والبشارة والحب والمحبة لمن ائتم بعلي وبولايته، ومسلّم له وللأوصياء من بعده، حقاً لأدخلنهم في شفاعتي؛ لأنهم أتباعي، ومن تبعني فإنه مني» . وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله في مشربة أم إبراهيم حين عاده الناس في مرضه[٢].

ومنها: ما ورد في موقفه بمنى: فقد جمعصلى الله عليه وآله الناس في مسجد منى فخطبهم ووعظهم ومهد النفوس والأسماع ليعلن استخلاف وصيه ووارث منزلته من بعده، ولكن ما إن فهم المنافقون والمتآمرون عزمهصلى الله عليه وآله على ذلك، وإنه أراد أن ينصب علياًعليه السلام وعترته أئمة على الأمة حتى انقلب المجلس، فصاح الناس ولغطوا وقاموا وقعدوا وصرخوا وكبروا من أجل أن يشوشوا على السامعين كلام النبيصلى الله عليه وآله.

يؤكد هذا رواية أحمد بن حنبل في مسنده قال: حدثنا عبد الله. قال:

١- المشربة: الغرفة انظر القاموس المحيط (مشرب)، ويبدو من الرواية أنه كان في بيت زوجته أم إبراهيم عندما عادوه، والمراد من الناس بعض أصحابه الذين خالفوه كما تقتضيها قرينة الحال والشواهد التاريخية، ولعل وصفهم بالناس يشير إلى ذلك كما لا يخفى على المطلع على أسلوب الروايات.

٢- بصائر الدرجات: ج١، ص٦٥، ح١؛ تفسير البرهان: ج٢، ص٢٥، ح٦.

حدثني أبو الربيع الزهراني. قال: حدثني... عن الشعبي عن جابر بن سمرة. قال المقدمي في حديثه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب بمنى فسمعته يقول: «لن يزال هذا الدين عزيزاً ظاهراً حتى يملك اثنا عشر كلهم، ثم لغط القوم وتكلموا، فلم أفهم قوله بعد كلهم، فقلت لأبي: ما بعد كلهم؟ قال: كلهم من قريش»[١].

وأيضاً عنه قال: ... حدثنا سمّاك بن حرب، حدثني جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ثم يكون بعدي اثنا عشر أميراً» ثم لا أدري ما قال بعد ذلك، فسألت القوم كلهم، فقالوا: قال: «كلهم من قريش»[٢].

وعن الشعبي عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً ينصرون على من ناوأهم عليه إلى اثني عشر خليفة» قال: فجعل الناس يقومون ويقعدون[٣].

فرأى النبي صلى الله عليه وآله أن مجرد التلميح لولاية علي عليه السلام دفع الناس إلى التصريح بالتحدي والتمرد على شخص النبي صلى الله عليه وآله من دون أن يمنعهم من ذلك شرف المكان، ولا خصوصية الزمان، ولا قداسة المتكلم، فكيف بهم لو أنه صلى الله عليه وآله صرح باسم علي عليه السلام والأئمة الاثني عشر من بعده، فأنه ليس من البعيد أن يصدر منهم ما هو أمر وأدهى وأقبح وأشد خطراً على الإسلام وشخص النبي صلى الله عليه وآله [٤].

وشواهد التاريخ تؤكد أنه كلما كانت حادثة أو واقعة ما مشوّشة

---

١ - مسند أحمد: ج٥، ص٩٩.

٢ - مسند أحمد: ج٥، ص٩٢.

٣ - مسند أحمد: ج٥، ص٩٩؛ منتخب الأثر: ص٢٥.

٤ - انظر قراءة في نصوص حجة الوداع: ص٦٥ - ٦٧.

مضطربة فمعناه أن هنالك سبباً خفياً أو مكيدة سياسية خاف التاريخ والرواة من إظهارها، فمن يا تُرى هؤلاء الذين واجهوا النبيﷺ بالصياح والقيام والقعود والضجيج والتشويه؟ ولماذا أخفيت أسماءهم؟ ولماذا كتم الرواة على تفاصيل تلك الحادثة؟ فهل كان كل هذا من باب سهو الرواة أم أنها أخفيت كالمعتاد من أجل أعين بعض الصحابة فكتم أرباب التاريخ أسماءهم وأشخاصهم كما كتموها في غزوة أحد وغيرها من المواقف الفاضحة؟[1]

ومنها: ما ورد في موقفه بعرفات، فقد خرجﷺ قبيل الفجر من اليوم التاسع من منى متوجها إلى عرفات، فنزل بعرفات بقية يومه، فلما كان وقت الظهر أمر بناقته القصواء فرحلت له وركبها، ووقف في وسط تلك الجموع المحتشدة وخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم أخبرهم برحيله في هذا العام، وأكد عليهم حرمة دماء المسلمين وأموالهم ووجوب اتباع أئمة الحق والتضحية لهم، وكأنه أراد تمهيد النفوس والأسماع لاستقبال ما هو أعظم من ذلك أي الخلافة والإمامة من بعده، وحيث إن القوم كانوا يعلمون النيّة عادوا إلى الصّخب والصياح وتشويش الأجواء من جديد، وهذا ما يستفاد من رواية جابر بن سمرة قال: خطبنا رسول الله في عرفات فقال: «لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيعاً ظاهراً على من ناوأه حتى يملك اثنا عشر كلهم....» قال: فلم أفهم ما بعد كلهم[2].

١ - انظر المصدر نفسه.
٢ - مسند أحمد: ج٥، ص٩٣، ص٩٦.

وفي رواية ثانية أنه بعد أن ذكر النبيﷺ أن الأئمة اثنا عشر قال: فتكلم النبيﷺ بكلمة لم أفهمها وضج الناس[١].

وفي رواية ثالثة: أن النبيﷺ قال: «يلي هذا الأمر اثنا عشر» فصرخ الناس فلم أسمع ما قال[٢].

وفي رواية رابعة: فكبّر الناس وضجوا ثم قال كلمة خفية[٣].

وهنالك روايات كثيرة نقلت هذه الفضيحة التي قام بها أناس يحملون الشر والدسيسة بالإسلام، ولا يريدون للدين أن يقوم، ولا للنبوة أن تدوم، بل خططوا لقتل النبي واغتياله كما خططوا له من قبل في قضية العقبة.

وقد ذكرت بعض الروايات أن النبيﷺ أتخذ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان حرساً له في حجته هذه[٤]، وكان لاختيارهما بالخصوص دلالات كبيرة تنم عن حكمة بالغة، ولا شك أن مقتضيات الحال تستدعي أن يكون المنتدب لمهمة حراسة النبي في أعلى درجات الوثاقة والرجولة والأمانة، وتشهد الكثير من الحوادث أن النبي لم يكن يثق بجميع أصحابه فضلاً عن الجموع الغفيرة الحاشدة في الحج فأصحابه كانوا ما بين طامع يضمر النفاق ويتلبس بمظهر الإيمان، وما بين ضعيف النفس سماع للكذب يتأثر بكل إشاعة، وما بين متحالف مع المشركين أو اليهود والنصارى في محاربة النبيﷺ، فالمؤمنون الثقاة منهم قليلون بالقياس إلى غيرهم، وحيث أن حذيفة بن اليمان وعمار

١ - المصدر نفسه.

٢ - كمال الدين: ج١، ص٣٧٢- ٣٧٣.

٣ - سنن أبي داود: ج٤، ص١٥٦؛ فتح الباري: ج٣، ص١٨١.

٤ - مراقد المعارف: ج١، ص٢٣٩.

بن ياسر كانا على اطلاع مفصل بأسماء المنافقين وأعيانهم يكونان أقدر على تشخيص العدو من الصديق، والظاهر أن النبيﷺ كان يتحذّر من أولئك الذين مكروا به ليلة العقبة وأرادوا قتله في معركة أُحُد، والذي كان حذيفة وعمار يعرفانهم بأسمائهم وأشخاصهم، وأن هؤلاء أنفسهم هم الذين كانوا يحرضون الناس على القيام والقعود والصراخ والضجيج في أثناء خطابات النبيﷺ في منى وعرفات؛ لأن القوم قد صدر منهم مثل هذا الفعل في مواطن أخرى، منها يوم صلح الحديبية، فقد أخرج البخاري حديثاً جاء فيه: أن عمر بن الخطاب بعد أن تقرر الصلح بين رسول الله وأهل مكة جاء إلى النبيﷺ وقال: فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قالﷺ: «بلى» قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قالﷺ: «بلى» قلت: فلم تعط الدنية في ديننا إذاً ؟! قالﷺ: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري...» قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً!!. قال: فلما فرغ رسول اللهﷺ - من الكتاب الذي كتب يومئذ في الصلح - قال لأصحابه: «قوموا فأنحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخلﷺ خباءه ثم خرج، فلم يكلم منهم أحداً بشيء حتى نحر بدنه بيده، ودعا حالقه فحلق رأسه، فلما رأى أصحابه ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً[1].

ولا يخفى ما في كلمته (فعملت لذلك أعمالاً) من دلالة واضحة على التمرد والمخالفة للنبيﷺ فكانت النتيجة أن النبيﷺ قد أمر باقي الصحابة ثلاث

١ - صحيح البخاري: ج٢، ص٨١، في أخر كتاب الشروط.

مرات بأن يحلقوا وينحروا فما قام منهم أحد، فمن غير المستبعد أن يكون عمر وغيره هو المحرض للناس في حجة الوداع على عدم الإمتثال لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الصياح والضجيج.

ومنها: ما ورد في موقفه بغدير خم فبعد أن خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة متوجهاً صوب المدينة حتى بلغ غدير خم في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة الحرام، فنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم جبرائيل الأمين وأمره أن يبلغ للأمّة إمامة علي عليه السلام من بعده، فنزل بقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ**﴾[١] فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا ربّ إنما أنا واحد كيف أصنع يجتمع علي الناس»[٢] فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ**﴾[٣]. فعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الأمر بالتبليغ عزيمة من الله لا رخصة فيه، فتوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله مخاطباً: «أن قومي قريبو عهد بالجاهلية وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل إلاّ وتره وليّهم – يقصد به علي عليه السلام – وإني أخاف»[٤] فأنزل الله سبحانه: ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾[٥].

فبعد أن أنزل الله سبحانه على نبيه العصمة، والنصرة على من ناوأه، وأنه سبحانه يتدخل في قضية إبلاغ الولاية والإمامة لعلي عليه السلام وأنه ناصره ومؤيده بالإعجاز الإلهي والحفظ الرباني ولا طاقة للعباد في رد مقدرات السماء،

---

١ – سورة المائدة: الآية ٦٧.

٢ – الدر المنثور: ج٢، ص٢٩٨.

٣ – سورة المائدة: الآية ٦٧.

٤ – شواهد التنزيل: ج١، ص١٩١.

٥ – سورة المائدة: الآية ٦٧.

وبالخصوص تلك التي يتكلف الله باتمامها، فذهب كل ما كان في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسرى عن روحه الشريفة، فقال لحرّاسه حينئذ: «انصرفوا فإن الله عاصمي من الناس».

فأمر صلى الله عليه وآله بدوحات كانت هناك فقممن، وصنع له منبراً من أحداج الإبل، وجعل ينتظر اجتماع الناس إليه، إلاّ أن بعض القبائل والتجمعات حاولت أن تتفلت من دعوة النبي صلى الله عليه وآله لها بالعودة إلى غدير خم. ولم يعودوا إلاّ حين أمر النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بارجاعهم وجمعهم فرجعوا بين متحرج وخائف وهذا ما يحكيه جابر بن عبد الله الأنصاري حيث قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بخم، فتنحى الناس عنه، فشق على النبي تأخر الناس عنه، فأمر علياً فجمعهم، فلما اجتمعوا قام فيهم متوسداً يد علي بن أبي طالب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! أنه قد كرهت تخلفكم عني حتى خيّل إليّ أنه ليس شجرة أبغض إليكم من شجرة تليني»[1].

وفي رواية ثانية أنه صلى الله عليه وآله خاطبهم بقوله: «ما بال شق الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليكم من الشق الآخر»[2].

ومن مجموع هذه الوقائع والأحداث يتضح وبيقين أن القوم كانوا كارهين لتنصيب علي عليه السلام للخلافة، ولم يقبلوا بأمر الله ورسوله، وكانوا يتبعون اسلوب المضايقات واللغط واللغو والصياح والتخاصم في محضر

١ - مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام (لابن المغازلي): ص٢٥؛ العمدة (لابن البطريق): ص١٥٧.

٢- مسند أحمد: ج٤، ص١٦؛ مسند الطيالسي: ص١٨٢؛ مجمع الزوائد: ج١، ص٤٥٨؛ كشف الأستار عن مسند البزار: ج٤، ص٢٥٦.

النبي ﷺ والتآمر عليه من خلفه للحؤول دون تنصيب الخليفة، وفي ذلك دلالات كبيرة تكشف مستوى إيمانهم وحقيقة أهدافهم وسوء نواياهم.

هذا وقد شرح بعض المفسرين تفصيل التواتر القائم عند الفريقين على إمامة علي أمير المؤمنين عليه السلام في الآية وأجاب عن جملة من الإشكالات التي قد تعترض البحث بما يغني الباحث عن مناقشتها هنا؛ لعدم نهوضها في مقابل ظهور دلالة الآية والحقائق التاريخية المثبتة لها، فمن أراد المزيد فليرجع إليها(١).

الثانية: آية الولاية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾(٢).

وقد أجمع المفسرون وأهل الحديث والمؤرخون على أن الآية نزلت في علي أمير المؤمنين عليه السلام في قضية التصدق بالخاتم، وقد ورد ذلك بطرق العامة متواتراً بأربعة وعشرين حديثاً، وأخرج في الغدير ذلك من طريق الصحابة والتابعين بما يقرب من ستة وستين طريقاً. هذا فضلاً عن طرق الشيعة(٣)، وهي دالة في منطوقها على أن الإمامة منحصرة بعلي عليه السلام، وفي مفهومها على نفي إمامة غيره.

وتوضيح ذلك: أن الآية الشريفة واردة بصيغة جملة خبرية في مقام الإنشاء، فتفيد الجعل والتنصيب، وقد جعلت الولاية لثلاثة على سبيل

١ - انظر مواهب الرحمن: ج١٢، ص٨- ٤٧؛ تفسير الأمثل: ص٥٧- ٧١.

٢ - سورة المائدة: الآية ٥٥.

٣ - انظر غاية المراد: ص١٠٣-١٠٦؛ نهج الحق: ص١٧٢؛ الغدير: ج٣، ص١٥٦- ١٦٢.

الامتداد الطولي هم الله سبحانه والرسول والمتصدق بالخاتم من المؤمنين الذي تواتر النقل بأنه الإمام علي عليه السلام، فتكون الولاية ثابتة للجميع بمعنى واحد وفي رتبة واحدة لكنها طولية.

ولا شك في أن ولاية الله على الناس ولاية عامة، وكذلك ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وولاية الإمام عليه السلام، فتشمل السلطة والحكومة وولاية التصرف في شؤون الناس في أمورهم الدينية والدنيوية.

ففي اللغة يقال: الولي هو الذي يلي تدبير الأمر، ويقال للسلطان ولي أمر الرعية، ويقال لمن يرث من بعده ولي العهد[1]، وأداة الحصر تدل على أن الآية في مقام جعل الإمام والولي الحاكم على الناس، وأما معاني الولاية الأخرى كالمحبة والنصرة فإنها خارجة موضوعاً عن دلالة الآية؛ لأنها مطلوبة بين عموم الناس، ولا تختص بالله ورسوله وأمير المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2].

والخلاصة: أن الآية المباركة بضميمة الأخبار المتواترة تدل على أن الإمام بعد الله والرسول والذي له حق الولاية والإمامة على الناس هو علي أمير المؤمنين عليه السلام، وقد عبر القرآن عنه بصيغة الجمع فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يذكر أسمه عليه السلام، أو يشير إليه بصيغة المفرد لنكتة بلاغية مهمة، وهي: التشريف والتعظيم، وذلك لعظمة مقام الإمامة والولاية، وهو شائع في الاستعمالات اللغوية والقرآنية، كما في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

١ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٩.
٢ - سورة التوبة: الآية ٧١.

ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[١] والقائل شخص واحد وهو نعيم بن مسعود بإجماع المفسرين والمحدثين[٢]، إلّا أن القرآن عبر عنه بصيغة الجمع لتعظيم القول أو الحالة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾[٣] والقائل هو عبد الله بن أبي[٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾[٥] وكان المنفق واحداً فقط وهو أمير المؤمنين عليه السلام بالإجماع[٦].

وبالجملة: أن التعبير عن المفرد بصيغة الجمع في اللغة والقرآن كثير شائع لأجل إظهار شرف القول أو عظمته وأهميته، وهو ما وقع في الآية المباركة، حيث أريد من لفظ الجمع: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو الإمام علي عليه السلام، ولا شك أن هذا التعبير لم يرد جزافاً، بل لوجود حكمة، وقد ذكروا له فوائد:

الأولى: صنع المثل الأعلى والقدوة الحسنة للمؤمنين ليكونوا مثله في الفعل فيتصدقوا على الفقراء، ويساعدوا المحتاجين ولو كانوا في صلاتهم[٧].

الثانية: إظهار مكانة الإمام وعلو رتبته في الإيمان حتى عد عمله الواحد يساوي عمل جميع المؤمنين، فالتعبير عنه بصيغة الجمع هنا يحاكي قول

١ - سورة آل عمران: الآية ١٧٣.
٢ - انظر آيات العقائد: ص٣٢٦.
٣ - سورة المائدة: الآية ٥٢.
٤ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٠٦.
٥ - سورة البقرة: الآية ٢٧٤.
٦ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٨٨.
٧ - انظر الكشاف: ج١، ص٦٤٩، تفسير الآية، (بتصرف).

النبي صلى الله عليه وآله في واقعة الخندق حكاية عن مكانته وفضله: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[١] فجعل صلى الله عليه وآله إيمان علي عليه السلام مظهراً لكل الإيمان، وعمله عمل جميع المؤمنين.

الثالثة: حفظ كرامة المؤمنين الآخرين الذين تقصر هممهم عن بلوغ ما بلغه عليه السلام من الهمة والتضحية في سبيل الدين والعقيدة في الوقت الذي يحثهم على أن يكونوا مثله، وهذه الغاية تتحقق لدى التعبير بصيغة الجمع لا المفرد.

الرابعة: تحييد الخصوم، فإن الكثير من شانئي علي أمير المؤمنين عليه السلام وحاسديه لا يطيقون أن يسمعوا فضائله نازلة في القرآن ومنسوبة إليه وحده؛ لأن ذلك يفضحهم ويكشف عن سوء نواياهم، كما يدعوهم إلى مزيد العداء، بل قد يدفعهم إلى تحريف القرآن نفسه لأجل تضييع هذه الحقائق، فجاء التعبير عنه بصيغة الجمع اتقاء لشرهم، وحفاظاً على القرآن من التحريف[٢]؛ إذ لو جاءت بصيغة المفرد لوضعوا أصابعهم في آذانهم، وأصرّوا استكباراً وعناداً.

وهذه طريقة حكيمة أوردها القرآن في التعبير عن علي وأهل البيت عليهم السلام ليحول دون مزيد الخصومة وتحريف القرآن.

تؤكد هذه الحقيقة الروايات العديدة، فقد روى الشيخ الكليني رحمه الله بسنده عن الصادق عن أبيه عن جده عليهم السلام في قوله عز وجل: «﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[٣] قال لما نزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

١ - انظر دلائل الصدق: ج٢، ص٥٠؛ آيات العقائد: ص٣٢٧.

٢ - انظر المراجعات: ص١٦٤ - ١٦٥.

٣ - سورة النحل: الآية ٨٣.

يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[١] اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجد المدينة، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في هذه الآية؟

فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرها، وإن آمنّا فإن هذا ذل هين يسلّط علينا علي بن أبي طالب، فقالوا: قد علمنا أن محمداً صادق فيما يقول، ولكنا نتولاه ولا نطيع علياً فيما أمرنا. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يعرفون يعني ولاية علي: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالولاية»[٢].

وروي في الاحتجاج عن علي أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل تضمن حواراً بين رسول الله ﷺ وبين المنافقين. ورد فيه:

«فقال المنافقون: هل بقي لربك علينا بعد الذي فرضه شيء آخر يفترضه فتذكره لتسكن أنفسنا إلى أنه لم يبق غيره؟ فأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾[٣] يعني الولاية، وأنزل: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ وليس بين الأمة خلاف أنه لم يؤت الزكاة يومئذ أحد منهم وهو راكع غير رجل - أي علي عليه السلام - ولو ذكر اسمه في الكتاب لأسقط»[٤].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «قال الناس: يا رسول الله أهذه خاصة في

١ - سورة المائدة: الآية ٥٥.

٢ - الكافي: ج١، ص٤٢٧، ح٧٧.

٣ - سورة سبأ: الآية ٤٦.

٤ - الاحتجاج: ج١، ص٣٧٩؛ كنز الدقائق: ج٤، ص١٣٤ تفسير الآية المزبورة.

بعض المؤمنين أم عامة لجميعهم؟ فأمر الله عز وجل نبيّه أن يعلمهم ولاة أمرهم، وأن يفسرّ لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم، فنصبني للناس بغدير خم ثم خطب فقال - من ضمن ما قاله - : أيها الناس! أتعلمون أن الله عز وجل مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: قم يا علي، فقمت، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، أللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، فقام سلمان الفارسي فقال: يا رسول الله! ولاؤه كماذا؟ فقال عليه السلام: ولاؤه كولائي، من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: الله أكبر بتمام النعمة وكمال نبوتي ودين الله عز وجل وولاية علي بعدي.

فقام أبو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله! هذه الآيات خاصة لعلي عليه السلام؟ قال: بلى فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة.

قالا: يا رسول الله! بينّهم لنا، قال: علي أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أمتي وولي كل مؤمن بعدي، ثم ابني الحسن، ثم ابني الحسين، ثم تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد، القرآن معهم وهم مع القرآن لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا عليّ الحوض.

فقالوا: كلهم اللهم نعم قد سمعنا ذلك، وشهدنا كما قلت سواء، وقال: بعضهم: قد حفظنا جل ما قلت ولم نحفظه كله، وهؤلاء الذين حفظوا أخيارنا وأفاضلنا، فقال عليه السلام: «صدقتم ليس كل الناس يستوون في الحفظ»[١].

---

١ - كمال الدين: ج١، ص٢٧٦، ح٢٥.

أقول: ولعل من هنا قال تعالى في الآية التي تلي آية الولاية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[١] للإشارة إلى وجود المؤمن بما نصبه الله ورسوله للخلافة، ووجود غير المؤمن، والأول صنّف في حزب الله، والوصف يفيد الاحتراز، فيدل على أن المخالف في حزب غير الله سبحانه، وهذا ما تؤكده آية التبليغ المتقدمة، فإنه ورد في ذيلها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢] للإشارة إلى أن مخالفة الولاية موجبة للكفر من جهة الجحود فيكون كفراً عقيدياً، أو من جهة العصيان فيكون كفراً عملياً.

الثالثة: آية الإطاعة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٣].

دلّت على أن أولياء الأمر الذين يجب إطاعتهم وأن إطاعتهم إطاعة لله والرسول معصومون منزهون من القبيح والمنكر، ويعرف هذا من قرينتين داخليتين:

الأولى: اقتران الأمر بإطاعتهم بالأمر بإطاعة الرسول، وهذا لا يستقيم في غير المعصومين؛ لاتفاق الكلمة على عدم وجوب إطاعة غير المعصوم فيما يأمر وينهي، وأن مخالفته لا تعد مخالفة لله والرسول.

الثانية: إطلاق الأمر بإطاعة أولي الأمر، حيث لم تحدد الآية إطاعتهم في أي مورد وموضوع ، وحذف المتعلق يفيد العموم، وإطلاق الأمر بالطاعة

---

١ – سورة المائدة: الآية ٥٦.

٢ – سورة المائدة: الآية ٦٧.

٣ – سورة النساء: الآية ٥٩.

لأولي الأمر لا يستقيم إلاّ إذا كانت أوامرهم ونواهيهم في طاعة الله، وهذا لا يتحقق إلاّ في المعصوم؛ لقيام الضرورة على عدم وجوب الإطاعة في معصية الله؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومن هنا وردت الروايات بطرق الفريقين في أن هذه الآية المباركة نزلت في علي عليه السلام والأئمة من أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم المعصومون لا غير[1].

وتدل الآية على أمور أخرى:

الأول: أن عنوان (أولي الأمر) ينطبق على أصحاب الأمر بالحق، فيخرج سلاطين الجور، ومن أخذ ولاية الأمر بالقوة والغلبة؛ لأن الألفاظ والعناوين تطلق على المعاني الحقيقية لا المتخيلة أو المنتحلة، فحينما يقال فلان ولي الدم أو مالك الدار يراد به الوريث الحقيقي والمالك لا المتوهم أو الغاصب وكذلك في إطلاق لفظ (أولي الألباب) على أصحاب العقول، وهكذا ما نحن فيه، وبذلك يظهر أن ولاية الأمر لا تثبت إلاّ لأهلها الواقعيين، وهم الرسول وأهل بيته عليهم السلام لأنهم المعصومون.

الثاني: أن المراد من (أولي الأمر) رجال من الأمة مخصوصون متساوون في الرتبة والمقام، وحكم الواحد منهم من حيث الطاعة كحكم الرسول، فما يثبت للرسول من المزايا والخصوصيات يثبت لهم إلاّ ما خرج بالدليل، وحيث إن هذا التطابق في الحكم والمزايا بينهم وبين الرسول لا تعرفه الأمة وجب معرفتهم من خلال نص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تواتر في الأخبار النبوية

١ - انظر تفسير البحر المحيط: ج٣، ص٢٧٨؛ ينابيع المودة: ص١١٦؛ شواهد التنزيل: ج١، ص١٤٩؛ نهج الحق: ص٢٠٤؛ مجمع البيان: ج٣، ص١١٤.

أن أولي الأمر هم علي والأئمة من آل محمد عليهم السلام[١].

ففي رواية جابر بن عبد الله الأنصاري لما أنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قلت: يا رسول الله! عرفنا الله ورسوله فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: «هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم: علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه منّي السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميّي محمد وكنيّي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن ابن علي، ذلك الذي يفتح الله تعالى على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذلك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان»[٢].

وروى النعماني في كتاب الغيبة بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي، عن علي أمير المؤمنين عليه السلام في حديث مفصل سأل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله: «من هم أولي الأمر؟ قال: الأوصياء إلى أن يردوا علي حوضي، كلهم هاد مهتد لا يضرهم خذلان من خذلهم، هم مع القرآن والقرآن معهم، لا يفارقونه ولا يفارقهم، بهم تنصر أمتي ويمطرون، ويدفع عنهم بمستجابات دعواتهم. قلت: يا رسول الله! سمّهم لي، فقال: ابني هذا ووضع يده على رأس الحسن عليه السلام، ثم ابني هذا ووضع يده على رأس الحسين عليه السلام، ثم ابن له على اسمك يا

١ - انظر غاية المرام: ص٢٦٣- ٢٦٨؛ آيات العقائد: ص٣٤٩.
٢ - انظر البرهان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٨١.

علي، ثم ابن له محمد بن علي، ثم أقبل على الحسين وقال: سيولد محمد بن علي في حياتك فأقرئه مني السلام، ثم تكمله أثني عشر إماماً. قلت: يا نبي الله! سمّهم لي فسماهم رجلاً رجلاً منهم، والله يا أخا بني هلال مهدي أمة محمد الذي يملأ الأرض قسطاً و عدلاً كما ملئت ظلماً وجورا»[١] إلى غير ذلك من الأخبار[٢].

الثالث: حيث ثبتت دلالة الآية على أن أولي الأمر معصومون يخرج منها الخلفاء وأمراء السرايا والعلماء أو الحكام والسلاطين وأهل الحل والعقد وغيرها من المعاني التي احتملها بعضهم كالفخر الرازي[٣] وغيره[٤]، خروجاً موضوعياً؛ لعدم عصمتهم، فتنحصر الدلالة بالأئمة المعصومين عليهم السلام، فضلاً عن الإشكالات التي تنفرد بكل واحد من هذه المحتملات[٥].

وبهذا يثبت أن الإمامة تثبت بالنص الجلي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا بالشورى أو باختيار الأمة.

الرابع: أن أولي الأمر هم أعلم الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن من وجبت إطاعته بنحو مطلق لابد وأن يكون عالماً بجميع الأحكام وجهات التشريع؛ إذ لا يعقل أن يأمر الباري بإطاعة الجاهل؛ لأنه تناقض ونقض للغرض

---

١ - الغيبة: ص٨١؛ كتاب سليم بن قيس: ص١٨٤.
٢ - انظر الكافي: ج١، ص١٨٥- ١٩٠؛ البرهان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٨١- ٣٨٦؛ ينابيع المودة: ص١١٤- ١١٧؛ غاية المرام: ص٢٦٣- ٢٦٨.
٣ - انظر تفسير الرازي: ج٤، ص١٢٥.
٤ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص١١٤.
٥ - انظر مواهب الرحمن: ج٨، ص٣٥١- ٣٥٧.

وخروج عن ميزان الحكمة.

هذا كله من حيث دلالة النص، ويمكن الاستدلال بحكم العقل أيضاً على أن الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو علي أمير المؤمنين عليه السلام من وجوه عديدة نكتفي بثلاثة منها:

الوجه الأول: أن الإمامة خلافة عن النبي صلى الله عليه وآله في الدين والدنيا فتقتضي أن يكون الخليفة معصوماً دفعاً للخلف ونقض الغرض، ولم تثبت العصمة لأحد من الصحابة غير علي عليه السلام بإجماع المسلمين، فتعين أن يكون هو الإمام.

الوجه الثاني: أن الإمام يجب أن يكون أفضل رعيته؛ لأنه المقتدى والأسوة لهم، وقد ثبت بالتواتر أن علياً عليه السلام هو أفضل الأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله؛ إذ كل من سواه كانوا يعبدون الأصنام، وصدرت منهم المعاصي، وقد أقروا بأنفسهم بأفضليته عليهم، فلا يعقل أن يكونوا أئمة لمن هو أفضل منهم؛ لأنه ترجيح للمرجوح ونقض للغرض. قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ .

الوجه الثالث: أن الإمام لابد أن يكون حافظاً للشرع، عالماً بجميع أحكامه، ومطلعاً على مضامين كتابه وأسرار آياته، وذلك لانقطاع الوحي بموت النبي صلى الله عليه وآله وقصور الأمة بما فيها الصحابة عن إدراك مضامين الكتاب وأسرار جميع الأحكام، كما أقروا أنفسهم بذلك، فلابد وأن يكون للشريعة مبيناً وشارحاً منصوباً من قبل الله سبحانه، منزهاً عن الخطأ والزلل، وليس ذلك غير علي أمير المؤمنين عليه السلام بإجماع المسلمين، فتعين أن يكون هو الإمام لا غير.

١ - سورة السجدة: الآية ١٨.

وبهذا وردت كلمة الخليل الفراهيدي في دليل إمامته: احتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل يشهد بأنه إمام الكل[١]، وهذه من الحقائق التي يقر لها جميع العقلاء حتى نطق بها جمع من مخالفيه وكثير من مناوئيه.

والحاصل: أن الكتاب والسنّة والعقل جميعها تتفق على أن الإمامة الإلهية والخلافة النبوية لا يمكن أن تكون باختيار الناس، بل لابد وأن تكون بالتعيين والنص الشرعي؛ لأنها كالنبوة من الحقائق التكوينية والمقامات المعنوية الرفيعة التي لا يدرك مستواها ولا يبلغ غورها عموم الناس، فإيكالها إليهم كإيكال النبوة إلى اختيار الناس، وهو أمر لا يقبله عقل ولا شرع ولا منطق سليم، كما أنها جميعاً تتفق على أن الإمام يجب أن يكون أفضل الأمة معصوماً عن الأخطاء والقبائح، وهذا من حيث الكبرى مما لا ينبغي الخلاف فيه.

وأما من حيث الصغرى فقد اتفقت هذه الثلاثة مضافاً إلى الإجماع على أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه الأفضل من جميع الأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم علماً وعملاً، والمعصوم من القبائح، فيتعين أن يكون هو الإمام لا غير، وهذا أيضاً مما لا ينبغي الخلاف فيه.

وعلى فرض المناقشة فإنه يكفي في إثبات ذلك اتفاق الكلمة على تنصيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي إماماً وقائداً للناس من قبل النبي المصطفى على ما وردت به الأخبار المتواترة الموجبة للجزم واليقين، كما يشهد له حديث الغدير وأحاديث الولاية والوصية والوراثة والمباهلة وغيرها من المتواترات لفظاً

١ - المهذب البارع: ج٤، ص٢٩٣، الهامش؛ معجم رجال الحديث: ج٨، ص٨١.

أو معنى[1]، فيكون هو الإمام عند الله سبحانه، فيجب طاعته والاقتداء به، ويحرم مخالفته، كما أن طاعته طاعة الرسول، ومخالفته مخالفة للرسول. قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[3].

١ - لمعرفة تفاصيل ذلك انظر آيات العقائد: ص٣٨٤ وما بعدها.

٢ - سورة النساء: الآية ٨٠.

٣ - سورة الحشر: الآية ٧.

الفَصلُ الثّاني

في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام بالأدلة العقلية والنقلية

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول: في إمامة علي عليه السلام ونفي الإمامة عن غيره

المبحث الثاني: في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام بالأدلة النقلية

تمهيد:

أن الاستدلال على إثبات الشيء يتم بطريقين:

الأول: الطريق البسيط.

والثاني: الطريق المركب، ويراد بالأول الطريق الذي يسلكه المستدل لإثبات الحقيقة التي يريدها ليتوصل هو إلى اليقين بما يعتقد أو الاطمئنان، وهو الطريق المتبع في إثبات سائر الحقائق في العلوم، ولكن هذا الطريق لا يجدي في مقام الجدل والمناظرة إذا أريد إيصال الحقيقة إلى الغير لكي يتخلى عن معتقده ويؤمن بها، أو إذا أريد إفحام الخصم في مقام المجادلة، وذلك لأن إثبات الشيء وحده لا يكفي لإيصال الغير إلى الحقيقة ما لم يتضمن الدليل إبطال نظرية الغير؛ لأن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه، ومن هنا فإن الطريق الذي يسلكه المتكلمون وأهل المدارس الفكرية هو المركب لأنه يتركب من أدلة الإثبات وأدلة النفي معاً، وهذا الطريق اتبعه القرآن في أبطال نظريات الشرك ومذاهبه، إذ حكى مناظرات الأنبياء مع المشركين والمخالفين في بعديها المثبت والنافي، إذ لم يكتف الأنبياء بالدعوة إلى وحدانية الخالق ووجوب عبادته، بل أبطلوا معتقدات المخالفين أيضاً كما هو ظاهر في الآيات

الشريفة إذ لا يمكن التوصل إلى الحق من دون إثبات البطلان عند الغير، وهذا الطريق هو الذي ينبغي أن نسلكه في أثبات إمامة الأئمة عليهم السلام؛ ليتوصل به المؤمن إلى مزيد المعرفة في اعتقاده بالأئمة عليهم السلام كما تتم الحجة على المخالفين الذين اتبعوا الصحابة وتفرقوا عن أهل البيت عليهم السلام، ومن هنا سيتضمن الفصل الأدلة المثبتة لإمامة الأئمة عليهم السلام والأدلة النافية لإمامة غيرهم ويشمل الأدلة العقلية والنقلية، لتتم الحجة به على المسلمين وغيرهم وكيف كان، فالبحث في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام يقع في مبحثين:

المبحث الأول
في إمامة علي عليه السلام
ونفي الإمامة عن غيره

أما الأدلة العقلية، فهي من الحقائق المشتركة التي يقر بها العقلاء لتوافق العقول عليها، ونوجزها في عشرة ستة مثبتة لإمامته وأربعة نافية لإمامة غيره، وتحقيق ذلك ينتظم في مطلبين:

المطلب الأول: في الأدلة العقلية على إمامة علي وأولاده عليهم السلام

أن العقل والعقلاء يتفقان على أن الإمامة والخلافة يجب أن تكون لعلي عليه السلام وأولاده لا لغيرهم وذلك من وجوه:

الوجه الأول: اقتضاء الحكمة

فإن العقل والفطرة يشهدان بأن الناس لابد لهم من رئيس يدير أمرهم، وينظم شؤونهم، ويدفع عنهم الظلم والفساد، ويحفظ مصالحهم، ويدفع عنهم المضار، وهذه الكبرى من المسلّمات التي لا يختلف عليها أحد من العقلاء، وإذا كان في هذه المصالح والمضار ما يتعلق بالدين والآخرة فلابد

وأن يكون الرئيس عالماً قادراً على حماية الدين، ويكون خليفة للنبي ﷺ؛ لاتفاق الكلمة على أن النبي هو الرئيس في زمن حضوره، وتنصيب هذا الرئيس لا يخلو من طرق ثلاثة:

الأول: أن يكون من الله ورسوله؛ لأنهما المعنيان بحفظ الدين والشريعة.

الثاني: أن يكون باختيار الناس.

الثالث: أن يكون بالقوة والغلبة، فكل من غلب يكون هو الرئيس، ولا شك في بطلان الثالث؛ لأنه ينقض الغرض من الشريعة والبعثة، ويوجب وقوع النزاع والتضارب وتحليل ما حرم الله سبحانه من التفرق والاختلاف والقتل وسفك الدماء، وغيرها مما حرم الله ونهى عنه، كما لا شك في بطلان الثاني؛ لأن انتخاب الناس لا يثبت حقانية الرئيس عند الله سبحانه، ولا في الواقع؛ لأن الانتخاب الصحيح الذي يمثل كل الناس يتوقف على اجماعهم وهو لا يتحقق، وحتى الأوائل الذين ادعوه كذبوه فيما بعد؛ إذ قال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة[1]، كما خالفه أبو بكر حين عينّ عمر، وخالفه عمر حينما عين ستة ينتخبون الرئيس، ففرض الانتخاب باطل في نفسه؛ لتعذر تحققه بمعناه المقصود.

ويدل على بطلانه أنه لو كان طريقاً مشروعاً عند الله سبحانه لورد في القرآن والسنّة ما يدل عليه، ويبيّن شروط المنتخب والمنتِخب والانتخاب، وإلاّ كان الشرع مخلاً بغرضه في مسألة من أمهات مسائل الدين والدنيا وهي خلافة النبي ﷺ، فعدم وجدان ذلك في أدلة الشريعة دليل على العدم،

١ - الرسائل العشر: ص١٢٣؛ مجمع الفائدة: ج٣، ص٢١٧.

صوناً لفعل الحكيم من القباحة فلم يبق إلاّ الفرض الأول، ويؤيده أن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله كان في مواطن عديدة حينما يسأل عن الخلافة يقول إن أمرها ليس بيدي بل بيد الله سبحانه، وفي القرآن الكريم نص الباري عز وجل على أن الناس لا خيرة لهم بل الله يخلق ويختار، وقد تواتر بين المسلمين أن النبي صلى الله عليه وآله نص على علي أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة، ونصبه إماماً على الخلق بلا منازع وهو المطلوب.

ويمكن أن يقرر هذا الوجه بتقرير آخر خلاصته:

أن الله سبحانه أمر بإطاعة أولي الأمر بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[1] وتولي أولياء الأمر الرئاسة لا يخلو إما أن يكون بتنصيب من الله ورسوله فتثبت إمامة علي عليه السلام للتواتر القائم على أن النبي صلى الله عليه وآله ولاّه ذلك وناداه بولاية الأمر، وإما أن يكون بالقوة والغلبة والنهب والسلب والشرع يمضيها فيلزم نسبة القبيح إلى الخالق؛ لأن تأمير من يقتل ويسفك الدماء هو تأمير للظالم على المظلوم وهو باطل، وإما أن يكون بانتخاب الناس واجتماع آرائهم والشرع يمضيه، وهذا الفرض مجمل؛ لأنه إن كان المقصود منه اتفاق كل الأمة في جميع البلاد فمن اتفق عليه الكل يكون ولياً للأمر فهو فرض يستحيل وقوعه عادة، وإن كان المقصود اتفاق أكثر الناس أو أهل الحل والعقد منهم فهو ممكن الوقوع إلاّ أنه باطل؛ لأنه يوجب وقوع الهرج والمرج واختلال النظام وسفك الدماء وازهاق الأرواح، ويشهد له وقوع الحرب الطاحنة بين أهل الشام تحت راية عبد الملك بن مروان وبين أهل الحجاز وقد

١ – سورة النساء: الآية ٥٩.

بايعوا عبد الله بن الزبير، وكلاهما كانا يحاربان المختار الثقفي وقد بايعه أهل الكوفة. فلا يبقى إلاّ أن يكون التنصيب بأمر الله ورسوله وهو الحق.

الوجه الثاني: حكم الأمثال

فقد أجمع أهل الأديان طراً على أن النبوة منصب إلهي يمنحه الله سبحانه لأصفياء خلقه وليس للناس رأي فيه أو اختيار، وهذا ما دل عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾[2] وقامت عليه ضرورة العقول، وذلك لأن النبوة واسطة الاتصال بين السماء والأرض والمبلغة عن عالم الغيب، وهي الخلافة عن الله سبحانه في الدنيا والحجة على الخلق.

وهذه المهام والأدوار من الرتب والمقامات المعنوية التي لا يدركها البشر، فلابد وأن تكون بتعيين الله وتنصيبه، ويجب أن تكون الإمامة كذلك؛ لأنها امتداد النبوة وخلافة عنها في كل مهامها وأدوارها؛ إذ لا يوجد فرق بين النبي والإمام في المقامات والرتب سوى الوحي، فإن النبي يوحى إليه والإمام لا يوحى إليه، وهذا ما يؤكده حديث المنزلة المتواتر بين الفريقين في الكثير من الطرق، حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي»[3].

١ - سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥- ٤٦.

٢ - سورة القصص: الآية ٦٨.

٣ - انظر مسند أحمد: ج١، ص١٨٤؛ ج٣، ص٣٢؛ صحيح مسلم: ج٧، ص١٢٠؛ سنن ابن ماجة: ج١، ص٤٥؛ سنن الترمذي: ج٥، ص٣٠٤، ح٣٨١٤؛ فضائل الصحابة: ص١٤.

وإطلاق التنزيل يعطي لعلي عليه السلام كل ما كان لهارون في خلافة موسى في قومه إلاّ النبوة، ومما كان لهارون الإمامة والزعامة والتعليم والتربية وتدبير المصالح الدينية والدنيوية، ويشهد له قوله صلى الله عليه وآله في حديث آخر ورد في المنزلة قال: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي، وأنت أخي ووارثي، فقال: وما أرث منك؟ قال: ما ورث الأنبياء من قبلي كتاب ربهم وسنّة نبيهم»[1].

ومن سنّة الأنبياء ولاسيما رسول الله صلى الله عليه وآله هو الإمامة والحكم، وكيف كان فإذا ثبت أن النبوة بالنص والتنصيب الإلهي يثبت أن الإمامة كذلك، لأن حكم الأمثال واحد.

وأما القائلون بأن الإمامة باختيار الأمة وأنها من فروع الدين فلاحظوا جانباً واحداً من جوانبها، وهي مهمة القيادة للأمة في شؤون الدولة والحكم، ولم يلحظوا فيها الأهداف الربانية والمقامات المعنوية في حفظ الشريعة وبيان الأحكام، وهداية الناس إلى مصالحهم الدينية والدنيوية، فجعلوا الإمام بمنزلة رئيس الدولة أو الملك والسلطان، وهو لا ينسجم مع غرض البعثة ومبادئ الإسلام، بل ومخالف للنصوص القرآنية الكثيرة التي تصرح بأن الإمامة هداية ونور لا ينالها ظالم أو كافر ولا غير معصوم، وأنها خلافة عن الأنبياء. قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[2] فإن

١ - انظر الأمالي (للصدوق): ص٤٠٢، ح١٤؛ ينابيع المودة: ج٣، ص٢١١؛ شرح الأخبار: ح٢، ح١٧٧، ح٥١٧؛ المراجعات: ص٢١٠، صحيح مسلم: ج٧، ص١٢٠؛ فضائل الصحابة: ص١٣؛ السنن الكبرى: ج٩، ص٤٠.

٢ - سورة الرعد: الآية ٧.

الحصر يفيد المغايرة بين وظيفتين، وظيفة النبي وهي الإنذار، ووظيفة أخرى لخليفته وهي الهداية، ولذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[١] فمهمة الإمام أوسع، ولذا تلازم حياة الناس في الدنيا، وكذلك في الآخرة؛ إذ يحشر الناس مع أئمتهم وعلى شاكلتهم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[٢].

ومن هنا ورد متضافراً بطرق الفريقين عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع رسول الله يده على صدره وقال: «أنا المنذر، وعلي الهادي، وبك يا علي يهتدي المهتدون من بعدي»[٣]. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «المنذر رسول الله، والهادي علي» ثم قال: «والله ما زالت فينا إلى الساعة»[٤].

وهذا المعنى كان معروفاً بين الصحابة؛ إذ صرحوا بأنهم كانوا به يهتدون، فيميزون الحق من الباطل، والإيمان من النفاق حتى كانوا ينظمونه في أشعارهم.

فقد روى جابر بن عبد الله الأنصاري عن عائشة. قال: دخلت عليها يوماً وقلت لها: ما تقولين في علي بن أبي طالب؟ فأطرقت رأسها ثم رفعته وقالت:

---

١ – سورة السجدة: الآية ٢٤.

٢ – سورة الإسراء: الآية ٧١.

٣ – انظر تفسير الطبري: ج١٣، ص٧١؛ نظم درر السبطين: ص٩٠؛ التبيان: ج٦، ص٢٢٣؛ تفسير ابن كثير: ج٢، ص٥٢٠.

٤ – المراجعات: ص٨٩؛ ينابيع المودة: ج١، ص٢٩٨؛ بصائر الدرجات: ص٥٠؛ وانظر كمال الدين: ٦٦٧.

إذا ما التبرُ حُكَّ على محكٍّ تبيّن غشّه من غير شكٍّ
وفينا الغِشُّ والذهب المصفى عليٌّ بيننا شِبهُ المحكِّ[١]

وقال أبو ذر: «ما كنا نعرف المنافقين إلاّ بتكذيبهم الله ورسوله، والتخلف عن الصلوات، والبغض لعلي بن أبي طالب»[٢].

والخلاصة: أن شباهة الإمامة بالنبوة من حيث المقام والوظيفة الدينية والدنيوية تستدعي أن يتحدا في الأحكام، فكل ما جاز للنبوة جاز للإمامة وبالعكس، وحيث إن النبوة لا تثبت باختيار الناس بل بتنصيب الباري عز وجل كانت الإمامة مثلها وكما أن الباري اختار محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نبياً منذراً اختار علياً عليه السلام هادياً من بعده.

الوجه الثالث: الضرورة العقلية

فإن الضرورة بعنوانها الأولي والثانوي تقضي بوجوب نصب الإمام ولكن طرق نصبه تدور بين احتمالات أربعة:

الاحتمال الأول: أن يكون النصب فوضى لا يخضع لقانون أو نظام، وحينئذ لامناص من القول بأنه يثبت بالقوة والغلبة، أو بكثرة الأنصار، أو الاتفاقات والمعاهدات ونحو ذلك من طرق، وعليه فيكون كل متغلب مهما كانت صفته وأعماله خليفة لله في أرضه، وحجة على عباده، فيكون مكلفاً

١ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار(للشبلنجي الشافعي):ص١٤٣؛ الثاقب في المناقب: ص١٢٣، رقم١١؛ نظم درر السمطين: ص١٣٣.

٢ - المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٢٩؛ تهذيب المقال: ج٣، ص١٨٠؛ تحفة الأبرار(للطبري): ص١١٣.

بحفظ الشريعة وبيان الأحكام وتدبير أمور الرعية، ويكون كل ما للرسول من المزايا والخصوصيات الشرعية والمعنوية ثابتة له، وهو باطل باتفاق جميع أهل الشرائع السماوية، ومخالف لسيرة العقلاء في كل ملة وأمة، ويحكم ببطلانه العقل السليم، ولذا تتبرأ من هذا الأسلوب جميع الأمم والشعوب، ويترفع منه - ولو كذباً - جميع الرؤساء حتى المستبدون منهم؛ لوضوح فساده وقباحته من مختلف الجهات.

الاحتمال الثاني: أن يكون خاضعاً لاختيار الرعية وفق نظام أو قانون يوضع له، فيكون المستند للإمامة هو رأي الناس فقط من دون رجوع فيها إلى حكم الشرع ونصوصه كما هو الحال في الحكومات الديمقراطية - بحسب التعبير المتعارف اليوم - وهو باطل؛ لأنه يستلزم نسبة النقص إلى الشريعة وتناقض الشرع، وذلك لأن لسائل أن يسأل لماذا صار أمر الإمامة بيد الناس دون الشرع؟ هل لأن الشريعة لم تحدد ضابطة لتنصيب الإمام بعد الرسول أم حددت ذلك والناس خالفوها؟ فإن كان الأول لزم نقصانها وهو مخالف للضرورة والإجماع، بل لزم نسبة الكذب إلى الشرع والعياذ بالله؛ لأنه صرح بكمال الشريعة وعدم نقصانها. قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[1] وقال سبحانه: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[2] ولا يعقل أن يكون الدين كاملاً ولم يؤسس لنظام الحكم وتكوين دولة الإسلام بعد رسول الله منهجاً يقطع المنازعات، ويمنع الفتن، ويهدي الناس إلى صلاحهم، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلاّ وقد أمرتكم

١ - سورة المائدة: الآية ٣.

٢ - سورة النحل: الآية: ٨٩.

به»[١] ولا شك في أن تعيين الإمام وتنصيبه من أهم المقربات إلى الطاعة؛ لأن الأمم تحشر بأئمتها، وإن كان الثاني وجب على الناس اتباع الشريعة لا آرائهم، لأن اتباع آرائهم مقابل الشريعة بدعة واجتهاد مقابل النص.

الاحتمال الثالث: أن يكون باختيار الناس ورضا الله سبحانه بأن يكون كل واحد منهما جزء العلة للتنصيب، وبطلانه أظهر من السابقين؛ لأنه مناف لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[٢] **هذا أولاً.**

وثانياً: يستلزم مساواة إرادة العبد مع إرادة الرب، بل هو فرض باطل في نفسه؛ لأن لسائل أن يقول: هل إرادة العبد في عرض إرادة الربّ أم في طولها؟ فإن قيل بالأول لزم الخلف، ونسبة العجز إليه سبحانه وترجيح المرجوح، وإن قيل في طولها فكان التنصيب منسوباً إلى إرادة الله سبحانه؛ لأنها العلة والسبب الواقعي، فيلزم من الفرض المذكور بطلانه، وما يلزم من وجوده العدم محال.

الاحتمال الرابع: أن يكون بتعيين الله سبحانه وتنصيبه بواسطة رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كما هو الحال في سائر الأحكام الإلهية، يبينها الرسول عن الله سبحانه، وهو ما تضافرت عليه الأدلة القطعية شرعية وعقلية، ومعه لا يبقى مجال لاختيار الناس، فيثبت المطلوب.

١ - مستدرك الوسائل: ج١٣، الباب١٠ من أبواب مقدمات التجارة، ص٢٧، ح١؛ وانظر نهاية الأفكار: ج٣، ص١٧٧؛ اجود التقريرات: ج٢، ص٣٧.
٢ - سورة القصص: الآية ٦٨.

والذي وقع في الخارج من سياسة النبيﷺ في الكتاب والسنّة هو هذا، حيث عين علياًعليه السلام للخلافة والوصاية والوراثة وأمر المسلمين باتباعه، وحرم عليهم مخالفته، وهو ما يقرّ له جميع الصحابة والتابعين وتابعي التابعين[1]، فضلًا عن إذعانهم لمؤهلاتهعليه السلام الذاتية من العلم والدين والجهاد والسابقة إلى الإسلام والقرب من رسول اللهﷺ وغيرها من خصوصيات جلية ظاهرة لم تتوفر في أي شخص آخر غيره[2]، حتى روى الجمهور بأكثر من طريق عن ابن عباس أن رسول اللهﷺ قال: «لو أن الرياض أقلام والبحر مداد والجن حسّاب والإنس كتاب ما أحصوا فضائل علي بن أبي طالب»[3] بخلاف غيره ممن تقدموه، فقد اتفق الصحابة على فقدانهم للكثير من المؤهلات، وقد رووا فيهم مطاعن كثيرة تشير إلى قصورهم الذاتي عن مقام الإمامة، وتسلبهم صلاحية توليها[4].

الوجه الرابع: وجوب دفع الضرر

وتقريره: بعد أن اتفقت الأمة على أفضلية عليعليه السلام على سائر الصحابة وتواتر النقل بخلافته ووراثته ووصايته للنبي المصطفىﷺ كما تواتر ببيعته بالولاية يوم الغدير ونحوها من وقائع ونصوص.. بخلاف غيره فإنه لم

١ - انظر المناقب (لابن المغازلي): ص٢٠٠؛ ذخائر العقبة: ص٧١؛ الرياض النضرة: ج٢، ص١٧٨ وغيرها.

٢ - انظر نهج الحق وكشف الصدق: ٢٣١ وما بعدها.

٣ - انظر لسان الميزان: ج٥، ص٦٢؛ كفاية الطالب: ص٢٥٢؛ وانظر نهج الحق: ص٢٣١.

٤ - انظر بعض التفاصيل في كتاب النص والاجتهاد(للسيد شرف الدين العاملي): الفصل الأول، والفصل الثاني، والثالث؛ وانظر نهج الحق وكشف الصدق: ص٢٦٢ وما بعدها.

يقم دليل يثبت له ما لعلي عليه السلام من المزايا والفضائل والكرامات عند الله والرسول والمسلمين فإن العقل يحكم بلزوم تقديمه على غيره في الإمامة والخلافة من جهتين:

الأولى: جهة استقلال العقل بالحكم بلزوم ترجيح الراجح وتقديم الأفضل.

الثانية: جهة وجوب دفع الضرر الأخروي؛ لأن في تقديم الأفضل يحصل الوثوق والاطمئنان بالبراءة من العقاب في الآخرة؛ إذ إن العقل يحتمل استحقاق العقوبة بمخالفة من نص عليه الله والرسول وشهدا له بالفضل والرجحان وجعلا له الولاية[١]، ووصفاه بأنه خير البشر[٢]، وأمرا بحبه، وجعلا حبه[٣] من علامات الإيمان وبغضه من علامات النفاق[٤].

وصرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه مع الحق[٥]، وأنه مع القرآن لا يفارقه ولا يختلف معه[٦]، وأن الاقتداء به يؤدي إلى الهداية، وأن من أطاعه فقد أطاع

---

١ – مسند أحمد: ج٤، ص٢٨١؛ الرياض النضرة: ج٢، ص١٦٩.

٢ – انظر تاريخ بغداد: ج٧، ص٤٢١؛ الرياض النضرة: ج٢، ص٢٢٠؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٥٨؛ الإصابة: ج١، ص٢١٧.

٣ – انظر صحيح الترمذي: ج٢، ص٢٩٩؛ ومستدرك الصحيحين: ج٣، ص١٣٠؛ كنز العمال: ج٦، ص٤٢٩.

٤ – صحيح الترمذي: ج٢، ص٣٠١؛ مسند أحمد: ج١، ص٨٤؛ تاريخ بغداد: ج٢، ص٢٠٠، وغيرها.

٥ – صحيح الترمذي: ج٢، ص٢٩٨؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٢٤؛ تاريخ بغداد: ج١٤، ص٣٢١.

٦ – المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٢٤؛ الصواعق المحرقة: ص٧٥؛ وانظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص١٢٦.

الله[١]، وأنه حجة الله على عباده[٢]، إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة جداً[٣].

بل نص القرآن الكريم في آيات عديدة على أن الناس سوف يسألون في الآخرة، ويحاسبون على معتقداتهم وأعمالهم، وهي تشمل الإمامة من الجهتين معاً.

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[٤] وقد ورد بطرق الفريقين أنهم يسألون عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام هل أخذوا بها أو أضاعوها[٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٦] وهي دالة أيضاً على السؤال عن ولاية علي عليه السلام بالعموم أو بالأدلة الخاصة[٧]، وإليه تشير الأحاديث الواردة بطرق العامة فضلًا عن الخاصة وأنه صلى الله عليه وآله سيشهد قوماً من أصحابه يساقون إلى النار فيسأل عنهم فيقال له إنهم بدلوا وغيّروا من بعده.

١ - المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٢١؛ الرياض النضرة: ج٢، ص١٦٧؛ وانظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص١٠٦- ١٠٧.

٢ - كنوز الحقائق (للمناوي): ص٤٣؛ تاريخ بغداد: ج٢، ص٨٨؛ الرياض النضرة: ج٢، ص١٩٦.

٣ - انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص١٣٤ وما بعدها.

٤ - سورة الصافات: الآية ٢٤.

٥ - الصواعق المحرقة: ص٨٩؛ وانظر مجمع البيان: ج٨، ص٣٠١؛ فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣٢٨.

٦ - سورة النحل: الآية ٩٣- ٩٤.

٧ - انظر مجمع البيان: ج٦؛ ص١٩٥، تفسير الآية (٩٣، ٩٤) من سورة النحل.

ففي حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله عن كيفية حشر الناس في القيامة قال: «وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول أصحابي أصحابي، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[١]»[٢].

وفي حديث آخر ورد: «فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن غير بعدي»[٣].

وفي ثالث عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وآله قال: «يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيجلَوْن عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي! فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»[٤] إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة[٥].

بينما تواتر النقل بطرق الفريقين عنه صلى الله عليه وآله بأن الله سبحانه لا يعذب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ولا يدخلهم النار، وأنهم خير البرية وأتقاهم وفي أعلى درجات الجنة[٦]، وعليه فإن في اتباع علي في الخلافة والإمامة نجزم برضا الله سبحانه وحبه والفوز في الآخرة، بخلاف اتباع غيره فإنه لا يحصل فيه الجزم

---

١ – سورة المائدة: الآية١١٧.

٢ – صحيح البخاري: ج٤، ص١١٠؛ ج٥، ص١٩٢؛ اضواء على السنّة المحمدية: ص٣٥٤.

٣ – صحيح البخاري: ج٧، ص٢٠٨؛ فتح الباري: ج١١، ص٣٣٣؛ تفسير القرطبي: ج٤، ص١٦٨.

٤ – صحيح البخاري: ج٧، ص٢٠٨.

٥ – انظر صحيح البخاري: ج٧، ص٢٠٨؛ وانظر مسند احمد: ج٦، ص٢٩٧؛ صحيح مسلم: ج١، ص١٥١؛ السنن الكبرى: ج٤، ص٧٨.

٦ – انظر ما ورد في هذا في فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٧٣-٧٤.

بذلك، بل قد نجزم أو نحتمل احتمالاً قوياً بوقوع العقاب والضرر، والعقل يحكم بوجوب دفع الضرر المحتمل فيما يتعلق بالآخرة، فما بالك بالضرر المتيقن أو المظنون؟

وهذا الوجه يتضمن إشارتين هامتين:

الإشارة الأولى: إلى سائر المسلمين لاسيما العلماء وأصحاب الفكر والمعرفة في أن يفحصوا فيما هم عليه من المعتقدات، ويجددوا النظر فيها لكي يقفوا منها موقفاً سليماً يدفع عنهم الضرر وحساب الآخرة؛ إذ لا يوجد طريق يؤمن لهم الطريق ويذود عنهم عذاب الآخرة سوى إتباع الحق بلا تعصب أو انحياز.

والإشارة الثانية: إلى حكومة هذا الدليل على سائر الأدلة التي وقع فيها الاختلاف من حيث سندها أو دلالتها كما هو ملحوظ في آراء كلا الفريقين؛ لأننا في هذا الدليل نقول: لو فرضنا عدم صحة أدلة الأمامية التي أقيمت على حقانية مسلكهم في الإمامة، ولو فرضنا عدم صحة أدلة الجمهور التي أقاموها لإثبات مسلكهم، فلو فرضنا ـ جدلاً ـ عدم صحة كلا المسلكين فإن العقل يلزم الجميع بمراعاة جانب الاحتياط والحذر في الاعتقاد للتخلص من حساب الله وعقابه في الآخرة؛ لأنه لا يوجد يقين بفراغ الذمة من الحساب والعقاب باتباع طريق بعض الصحابة، ولا عذر فيه، بينما يوجد هذا اليقين باتباع طريق علي وأولاده عليهم السلام، وفيه العذر، وهذا الحكم العقلي مما يتفق عليه سائر العقلاء بغض النظر عن معتقداتهم ومذاهبهم، وهو كاف لمن أراد الإنصاف أو وقع في الحيرة والتردد.

الوجه الخامس: اتفاق الأمة عليه

وتقريره: أن علياً عليه السلام كان عادلاً وصالحاً للخلافة بإجماع الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وبعضهم صرح بذلك، كما لا خلاف بينهم في عصمته، بل اتفق علماء المسلمين في جميع المذاهب والفرق على أن عصمته وعلمه من قبيل عصمة الأنبياء وعلومهم، فهو إمام العالم وسرّ الأنبياء أجمعين[١] وأما المتقدمون عليه فليسوا بمعصومين ولا علماء بإجماع الأمة، بل اختلفت الأمة في عدالتهم، والعقل يقضي بأن التمسك بالمعصوم المتحقق العصمة والعدالة عند التنازع والاختلاف أولى من التمسك بغيره ممن يختلف في أمر عدالته.

الوجه السادس: الدواعي الشرعية والعقلائية

وتقريره: أن فعل الأنبياء يشهد بأن ليس من نبي فارق الدنيا إلاّ وقد عيّن وصياً له وولي عهد يخلفه في شؤونه، فآدم أوصى إلى هبة الله، ونوح أوصى إلى سام، وإبراهيم إلى إسحاق، ويعقوب إلى يوسف، وموسى إلى يوشع، وأوصى داود إلى سليمان، وهكذا سائر الأنبياء. قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[٢]

١ - انظر في ذلك ما قاله الخليل بن أحمد، والشيخ الرئيس في الرسالة المعراجية: ص١٥؛ وابن العربي في الفتوحات المكية: ج١، ص١٣٢؛ وابن أبي الحديد في شرحه للخطبة ٨٥ من نهج البلاغة، والفخر الرازي في تفسير سورة الحمد، وقال أيضاً: من أتخذ علياً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة في دينه ونفسه. وانظر سماء المعرفة (للآملي): ص٣١-٣٢.

٢ - سورة البقرة: الآية ١٣٢.

والموصى به هو ملة الإسلام الشاملة للعقيدة والعمل(١).

كما ورد بطرق الفريقين أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى بعث أربعة آلاف نبي وجعل لهم أربعة آلاف وصي»(٢) فلابد وأن يكون فعل الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مثلهم، وذلك لدواع ثلاثة:

الأول: الآيات العزيزة؛ إذ قال تعالى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٤) فإن الأمر بالاقتداء بالأنبياء يفيد الوجوب، ولا دليل على الاستثناء فيه.

الثاني: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من مات بغير وصية مات ميتة جاهلية»(٥) والأحاديث متواترة بهذا المعنى(٦) والظاهر أن ميتة الجاهلية هي ميتة الكفر، ودلالة الحديث لا تصح إلاّ إذا حملنا معنى الحديث هنا على العقيدة كالإمامة والخلافة؛ لاتفاق الكلمة، بل قيام ضرورة الدين على أن ميتة الجاهلية لا تتحقق إلاّ بترك العقيدة وأصول الدين، وأما فروعه فإن الوصية في نفسها ليست واجبة بل مستحبة، ولا تجب إلاّ إذا سببت تضييعاً للحقوق الواجبة، وهذه على فرض تركها لا توجب ميتة الجاهلية وإنما العصيان باتفاق المسلمين، ومما يؤكد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم المروي بطرق الفريقين الكثيرة: «من مات لا يعرف إمام

---

١ – انظر مجمع البيان: ج١، ص٣٩٨؛ تفسير القرطبي: ج١، ص٥٤١، تفسير الآية المزبورة.
٢ – مسند أحمد: ج٤، ص٩٦؛ حلية الأولياء: ج٣، ص٢٢٤.
٣ – سورة الأحقاف: الآية ٩.
٤ – سورة الأنعام: الآية ٩٠.
٥ – انظر وسائل الشيعة: ج١٩، الباب ١ من كتاب الوصايا، ص٢٥٩، ح٢٣٥٤٦.
٦ – انظر المراجعات: ص٢١٤.

زمانه مات ميتة الجاهلية»[١] فان هذا الحديث لا يصح معناه إلّا إذا حمل على الإمام المعصوم لا غير.

الثالث: تنزيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التقصير؛ إذ أُرسل رحمة للعالمين، وبيّن للأمة كل ما يستوجب هدايتها، ويوحد كلمتها، ويحثها نحو الطاعة، ويبعدها عن الفرقة والشتات، لما فيهما من الضرر على دين الناس ودنياهم، وقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم أمته بالاعتصام بحبل الله، وحرم عليهم التفرق في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[٢] ونهاهم عن التفرق في الدين حيث قال تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[٣].

ومما لا شك فيه أنه كان يعلم بأهمية الإمامة والخلافة من بعده كما يعلم بأن عدم تنصيب الإمام من بعده يوجب تفرق الأمة في دينها وتشتت أمرها إلى فرق ومذاهب، بل قال هو صلى الله عليه وآله وسلم: «ستتفرق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة»[٤] ولذا كان مقتضى وظيفته الرسالية ومسؤوليته القيادية والإنسانية أن يوصي بالإمام من بعده كما أوصى بتجهيزه وتكفينه ودفنه، فإنكار الوصية على النبي يستلزم نسبة الكبيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل وخروجه عن سيرة الأنبياء والأوصياء طراً، وهو مما لا يقول به مسلم، وإذا ثبت ذلك من حيث الكبرى ثبت أن الإمام هو علي عليه السلام من بعده لاتفاق الكلمة على أنه وصيه وليس أحد غيره.

١ - الكافي: ج٢، ص٢٠، ح٦؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٠٠، ح٥٣؛ ينابيع المودة: ج٣، ص٤٥٦.

٢ - سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٣ - سورة الشورى: الآية ١٣.

٤ - وسائل الشيعة: ج٢٧، الباب ٦ من أبواب صفات القاضي، ص٥٠، ج٣٠.

وهذه السيرة أي تنصيب الخليفة لا تختص بالأنبياء، بل حتى الملوك والرؤساء والمدراء وكل أصحاب السلطة والقرار يفعلون ذلك، ولذا فعلها الصحابة؛ إذ أوصى أبو بكر إلى عمر، وأوصى عمر إلى ستة نفر جعلهم شورى، وهكذا كل ملوك العالم وحكامهم إما ينصون على خلفائهم بالنص الخاص أو بالقوانين والأنظمة كما هو ملحوظ في العالم اليوم، ولا يعقل أن يكون الرسول استثناءً وحيداً من هذه السيرة وهو سيد العقلاء، وأعلم الخلق وأحرصهم على مصالح الناس الدينية والدنيوية.

المطلب الثاني: في نفي إمامة غير علي عليه السلام

إن العقل يحكم ببطلان إمامة غير علي عليه السلام من وجوه عديدة نكتفي منها بأربعة:

الوجه الأول: مخالفة سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

فإن من الواضح أن أبا بكر تولى الإمامة ببيعة عمر وبعض نفر من الصحابة، ثم أوصى أبو بكر إلى عمر، وأوصى عمر إلى ستة من الصحابة جعلهم شورى، وحينئذ لسائل أن يقول: إنهما حينما أوصيا لا يخلوان أما أن يكونا قد خالفا سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه لم يوص (كما زعموا) وحينئذ يبطل عملهما لمخالفته للسنّة، وتبطل خلافتهما أيضاً، وإما أن يكونا قد اقتديا برسول الله لأنه أوصى من بعده فتثبت إمامة علي عليه السلام؛ لأنه الوصي الوحيد له باتفاق المسلمين، وتبطل إمامة غيره لأنه ليس بوصي.

الوجه الثاني: مخالفة الكتاب

وهو مكوّن من صغرى وكبرى. وخلاصة الصغرى: قيام الإجماع على

أن خلافة أبي بكر كانت بالبيعة والاختيار وليست بنص من الله ورسوله، والكبرى أن اختيار الخلق في مقابل اختيار الله باطل لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[١] فيثبت بطلان اختياره، وببطلان خلافته تبطل خلافة عمر؛ لأنها متفرعة عنها، فتثبت حقانيّة خلافة علي صلى الله عليه وآله؛ لأن الأمر يدور بينهما.

الوجه الثالث: مخالفة العقل

وتوضيح ذلك: أن الأمة متفقة على أن علياً عليه السلام هو وارث النبي صلى الله عليه وآله وهو وصيه وخليفته من بعده كما عرفته من الروايات المتواترة بطرق الفريقين، وحينئذ لسائل أن يقول إذن لماذا صار غيره الخليفة؟

والجواب: لا يخلو من احتمالات:

الأول: أن يكون ذلك بسبب من النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه لم ينصبه ولم ينص عليه، وهذا باطل؛ لما عرفت من تواتر الروايات الدالة على أن النبي قد نصبه ونصَّ عليه في آلاف الموارد، بل قال الطبري: لقد أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وآله مُشافهةً في أمر علي عليه السلام ستمائة آية من الوحي السماوي وثلاثة آلاف حديث[٢].

والثاني: أن يكون بسبب من علي عليه السلام نفسه؛ لأنه لم يتصد لحقه، ولم يقم الحجة عليهم في ذلك، فإن الحق يضيع إذا لم يطالب به صاحبه، وهو باطل أيضاً؛ لتواتر النقل على أنه تصدى لذلك، وأقام الحجة عليهم مرات وكرات

---

١ - سورة القصص: الآية ٦٨.

٢ - تحفة الأبرار (للطبري): ص٢٧٠.

ليس هو وحده فقط ، بل حتى سيدة النساء عليها السلام دارت على بيوت الصحابة وطالبت بحق بعلها، وخطبت فيهم خطاباً مفصلاً أبانت فيه الحق، وكشفت عن الحقيقة كما هو صريح في خطبتها عليها السلام، بل المعروف من طرق الفريقين أنه عليه السلام في يوم الشورى احتج عليهم بمائة وثمانين حجة[1]:

منها: أنه عليه السلام قال للصحابة: «يا هؤلاء إنما أخذتم هذا الأمر من الأنصار بالحجة عليهم بالقرابة؛ لأنكم زعمتم أن محمداً منكم، فأعطوكم المقادة وسلموا لكم الأمر، وأنا أحتج عليكم بالذي احتججتم على الأنصار، ونحن أولى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حياً وميتاً؛ لأنا أهل بيته، وأقرب الخلق إليه، فإن كنتم تخافون الله فأنصفونا، واعرفوا أنا أولى في هذا الأمر كما عرف لكم الأنصار» فقال عمر: أيها الرجل! لست بمتروك حتى تبايع كما بايع غيرك، فقال علي عليه السلام: «لا أقبل ما تقول يا عمر، ولا أبايع من أنا أولى منه».

وقال أبو عبيدة بن الجراح: والله إنك أولى بهذا الأمر بفضل وسابقة وقرابة لك، إلاّ أن الناس قد بايعوا ورضوا بهذا الشيخ، فأرض أنت بما رضي به المسلمون، فقال عليه السلام: «يا أبا عبيدة ... خف الله في نفسك، فإن بعد هذا اليوم أياماً، ولا ينبغي لكم أن تخرجوا سلطاننا من داره ومقر بيته إلى دوركم، وفي بيوتنا نزل القرآن، ونحن معدن العلم والفقه والسنّة، ونحن أحق منكم بأمور الخلق، فلا تتبعوا الهوى فيضلّكم عن الجادة، وكنتم أخسر الخاسرين».

فقال بشير بن سعد الأنصاري: يا أبا الحسن؛ لو سمع الناس قبل بيعته منك هذا الكلام لما اختلف عليك اثنان، وليبايعنك أجمعين، ولكن جلست

١ – تحفة الأبرار (للطبري): ص٢٥٩.

في بيتك، والناس يزعمون أن ليس لك فيها حاجة ولا رغبة، وقد بويع هذا الشيخ وأنت على أمرك، فقال عليه السلام: «يا بشير! هكذا يجب عليّ أن أترك رسول الله في بيته دون أن أخفيه في حفرته، وأخرج فأنازع الناس في الخلافة؟!» فقال أبو بكر: يا أبا الحسن! لو علمت أنك تنازعني في هذا الأمر لما أردته، ولما طلبته، فقد بايعني الناس وقضي الأمر.

ويؤكد هذا المضمون قول أمير المؤمنين عليه السلام في مخاطبة المهاجرين الذين أخذوا الخلافة: «لنا الإمامة، وقد غلبتم الأنصار بالقربة من رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن بالقرابة أولى وأحق، والأقرب يمنع الأبعد كما قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1] ولقد أنصفكم الأنصار ولم تنصفونا، واغتنمتم الفرصة لطلب الرئاسة والحكومة ولم تشاركونا في تجهيز النبي صلى الله عليه وآله وتكفينه ودفنه والصلاة عليه» وقال عليه السلام: « أفكنت أدع رسول الله مسّجى في بيته وأخرج فأطالب بالخلافة، فبماذا كنت اعتذر أمام الله تعالى؟»[2] إلى غير ذلك من الاحتجاجات، وفي الأحاديث المتقدمة حقائق هامة تستحق البحث لا يسع المجال لتناولها هنا.

والخلاصة: أن احتمال تخلي علي عليه السلام عن حقه تنفيه وقائع الأحداث وكلماته عليه السلام.

والثالث: أن يكون بسبب من الصحابة الذين نافسوه في إمامته ونازعوه في خلافته، وهو الحق كما عرفته من الاحتجاج المتقدم وغيره، وبذلك يظهر

١ – الأنفال: الآية ٧٥.

٢ – انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص٢٦١– ٢٦٣، (بتصرف)؛ كتاب الأربعين: ص١٨٨.

أن خلافة غير علي تفتقر إلى الشرعية؛ لأنها مستندة إلى الغلبة والقهر لا النص والتعيين من قبل الرسول صلى الله عليه وآله، فتكون باطلة؛ لأن المتولي بالقوة والقهر ظالم، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

الوجه الرابع: فقدان الدليل

وتوضيحه: أن العقل والشرع يحكمان بأن الأصل هو عدم حجية إمامة أحد أو ولايته على أحد، وهذا الأصل عام يجري على الجميع خرج منه النبي صلى الله عليه وآله لثبوت ولايته بالنص الصريح في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[2] فضلًا عن أدلة السنّة والعقل، كما خرج منه علي عليه السلام بنص رسول الله صلى الله عليه وآله في مثل حديث الغدير ونحوه والآيات النازلة في حقه، واتفاق الأمة وبيعتها له، فيبقى الباقي ـ وهو ولاية الخلفاء وإمامتهم ـ تحت عموم الأصل المذكور؛ لعدم وجود دليل يثبت خروجها عنه، إن قلت: لعلها خرجت بالأدلة التي أقامها الجمهور على خلافتهم. قلت: هذه الأدلة غير ناهضة في نفسها كما عرفت **هذا أولاً**.

وثانياً: هي معارضة بأدلة الإمامة التي تعلوها سنداً ودلالة، فتترجح عليها، وعلى فرض المساواة وعدم الترجيح تتساقط ، وحينئذ نرجع إلى الأصل المذكور، وهو ينفي حجية خلافة الخلفاء ولا ينفيها عن علي عليه السلام؛ لاتفاق الفريقين على خلافته من حيث الأصل، واختلافهم في أنها الرابعة أم الأولى، فتدبر.

---

١ – سورة البقرة: الآية ١٢٤.

٢ – سورة الأحزاب: الآية ٦.

والنتيجة المترتبة على بطلان خلافة غير عليعليه السلام هو بطلان المذاهب الأربعة أيضاً من وجوه كثيرة نكتفي بتقرير واحد منها.

وخلاصته: أن المذاهب الإسلامية لا سيما الأربعة: الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي لا تخلو من أحد أمرين:

أن تكون موجودة على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أو لا، فإن لم تكن موجودة كانت حادثة بعد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم فتكون بدعة، وقد قالصلى الله عليه وآله وسلم: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[١]، وإن كانت موجودة في زمنه دار الأمر بين أن يكون رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم على تلك المذاهب أو لا، فإن لم يكن عليها كان ـ بزعم أهلها ـ كافراً أو فاسقاً وحاشاه من ذلك؛ لأنهم يقولون بأن من لا ينتمي إلى أحد مذاهبهم فهو خارج عن الإسلام كالمعتزلة أو فاسق كالشيعة، فإن قيل إن النبيصلى الله عليه وآله وسلمكان على أحد تلك المذاهب لزم منه أكثر من تالٍ فاسد ولزم أن يكون قد مات تابعاً لغيره من أئمة المذاهب، ومعنى ذلك هو انعزاله عن النبوة، وهذا الآخر يستلزم أن يكون إرساله خطأ، والكل باطل، فالمقدم مثله[٢].

وإذا ثبت عدم صحة المذاهب الأربعة ثبتت حقانية المذهب الإمامي لاتفاق الأمة على أنه كان منذ عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، واستمر في جميع الأزمنة إلى آخر الأزمنة وهو عصر ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه.

والحاصل من كل ما تقدم: أن العقل السليم يحكم بأن الإمامة والخلافة

---

١ - المعجم الكبير (للطبراني): ج١٨، ص٢٤٦، ح٦١٧.

٢ - انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص١٥٥.

حق منحصر بعلي وأولاده المعصومين عليهم السلام، ويثبت ذلك في الجهتين الثبوتية والسلبية، وهذا الدليل يتضمن دعوى إنسانية خالصة لجميع المسلمين الذين استندوا في معتقداتهم إلى الأدلة النقلية أن يعيدوا النظر فيما تمسكوا به؛ لأن الدليل النقلي قد يختلف فيه من جهة السند أو من جهة الدلالة، إلاّ أن هذا الدليل العقلي مشترك بين جميع العقلاء ولا يختلف عليه اثنان منهم إذا تمسكوا بالإنصاف في الرأي والحكم.

المبحث الثاني
في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام
بالأدلة النقلية

وينتظم في مطلبين:

المطلب الأول: تعيين أسماء الأئمة عليهم السلام في روايات الفريقين

أن بديهة العقل والفطرة وطريقة العقلاء في تدبير مصالحهم العامة فضلاً عن ضرورة الشرع تتفق على لزوم نصب الإمام على الناس؛ لأن به يقوم نظامهم، وتحفظ حقوقهم، ويبلغون غاياتهم الدينية والدنيوية، وقد تواترت الأدلة على أن الله سبحانه والرسول صلى الله عليه وآله قد نصبا على المسلمين اثني عشر إماماً يتولون أمر الإسلام والمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام المولود عام ٢٣ قبل الهجرة -٤٠ هـ ، ثم أولاده المعصومون الأحد عشر عليهم السلام، وهم بحسب التسلسل الزمني لإمامتهم:

الحسن بن علي عليه السلام (٢-٥٠) للهجرة.

والحسين بن علي عليه السلام (٣- ٦١) للهجرة.

وعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام (٣٨- ٩٥) للهجرة.

ومحمد بن علي الباقر عليه السلام (٥٧- ١١٤) للهجرة.

وجعفر بن محمد الصادق عليه السلام (٨٣- ١٤٨) للهجرة.

وموسى بن جعفر الكاظم عليه السلام (١٢٨- ١٨٢) للهجرة.

وعلي بن موسى الرضا عليه السلام (١٤٨- ٢٠٣) للهجرة.

ومحمد بن علي الجواد عليه السلام (١٩٥- ٢٢٠) للهجرة.

وعلي بن محمد الهادي عليه السلام (٢١٢- ٢٥٤) للهجرة.

والحسن بن علي العسكري عليه السلام (٢٣٢- ٢٦٠) للهجرة.

ومحمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه (٢٥٦ للهجرة وهو حي بأذن الله لإحياء أمره) ذرية بعضها من بعض، لا يخلو منهم زمان أو عصر، ولا تخلو الأرض من وجودهم المبارك، هم حجة المعبود، وعليهم يدور نظام الوجود، ولا حجية لغيرهم، ولا إمامة حقة إلاّ بهم.

وقد أجمع المسلمون وكل أهل الأديان والملل ممن عاصرهم عليهم السلام وعرف أحوالهم على أنهم أفضل الناس علماً، وأعظمهم حلماً وحكمة، وأعلاهم شأناً وبصيرة، وأقربهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسباً ونسباً، وأنهم أتقى الناس وأحرصهم على دين الله وأحكامه، كما أنهم لم يتعلموا عند أحد من الناس، فليس لأحد عليهم فضل تعليم وتربية غير الله ورسوله، بل الكل أخذ عنهم و تعلم منهم. لا ينكر ذلك إلاّ متعصب مكابر.

والعقل السليم يحكم بذلك؛ إذ لا يختلف العقلاء على أن الإمامة والزعامة

يجب أن تكون للأفضل علماً وعملاً، ولا يجوز أن تكون للأدنى مع وجود الأفضل والأكفأ، وعلى هذا القانون تدور رحى الحياة في مختلف المجالات العلمية والسياسية والاجتماعية، والخروج عليه يعد خروجاً عن الصواب، وهدماً لقواعد العلم والنهج العقلائي.

وقد تواترت الروايات بطرق الفريقين الدالة على أن النبيﷺ قد عيّن الأئمةعليهم السلام من بعده، ونص عليهم تارة بالوصف والكناية، وتارة بالتصريح بأسمائهم لكي يرفع الإبهام والشبهة، وتكون الحجة بالغة على الأمة، نستعرض منها طائفتين من الروايات:

الطائفة الأولى: الروايات التوصيفية

إن الروايات الواردة التي عرفت الأئمةعليهم السلام بالوصف والكناية كثيرة جداً فاقت حد التواترين اللفظي والمعنوي نقتصر على ذكر نماذج منها رواها المعتمدون من العامة في صحاحهم مثل البخاري ومسلم والجمع بين الصحيحين والجمع بين الصحاح الستة وصحيح أبي داود ومسند أحمد بن حنبل بطرق عديدة ومتون جلية ظاهرة[1] فضلًا عن الخاصة.

النموذج الأول: ما دل على عدد الأئمة ونسبهم، مثل ما رواه مسلم في صحيحه بثمانية طرق عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «يكون بعدي اثنا عشر أميراً، ثم قال كلمة لم أسمعها». قال: أبي كلهم من

١ - انظر صحيح البخاري: كتاب الأحكام باب الاستخلاف؛ صحيح مسلم: كتاب الأمارة باب الناس تبع لقريش؛ الصواعق المحرقة، الفصل الثالث من الباب الأول؛ مستدرك الحاكم: ج٣، ص٦١٨.

قريش، وفي الجمع بين الصحيحين روى الحميدي بستة طرق بالإسناد عن جابر بن سمرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يكون بعدي اثنا عشر خليفة، ثم تكلم بكلمة خفية ثم قال: كلهم من قريش» ورواه الثعلبي في تفسيره بثلاثة طرق[١].

النموذج الثاني: ما دل على الأسرة والعشيرة التي يكون فيها الأئمة عليهم السلام، كما روى القندوزي في ينابيعه عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال: كنت مع أبي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعته يقول: «بعدي اثنى عشر خليفة» ثم أخفى صوته، فقلت لأبي: ما الذي أخفى صوته؟ قال أبي قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلهم من بني هاشم»[٢].

النموذج الثالث: ما دل على تسميتهم في الجملة، ففي رواية ابن عباس قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين حضرته الوفاة وقلت: إذا كان ما نعوذ بالله فإلى من؟ فأشار بيده إلى علي عليه السلام وقال: «هذا مع الحق والحق معه، ثم يكون من بعده أحد عشر إماماً»[٣] .

ورووا عن عائشة أنها سئلت كم خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقالت: أخبرني أنه يكون من بعده اثنا عشر خليفة، وقالت: إن أسماءهم مكتوبة عندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل لها: فاعرضيه فأبت[٤].

---

١ - صحيح مسلم: ج٦، ص٣؛ انظر حق اليقين: ج١، ص٢٥٢؛ الخصال: ص٤٦٩- ٤٧٠، ح١٢، ح١٣، ح١٤، ح١٥، ح١٦، ح١٧.

٢ - ينابيع المودة: ص٣٠٨.

٣ - شرح الزيارة الجامعة: ص٨٥.

٤ - كشف الغطاء: ج١، ص٧؛ مكاتيب الرسول: ج١، ص٤٧٧.

وورووا في هذا المعنى روايات كثيرة تنيف على ستين حديثاً كلها تشتمل على ذكر عدد الاثني عشر، وفي بعضها ذكر أسمائهم[١].

ومن طرقنا أنه ﷺ قال: «أخبرني جبرائيل بأسمائهم وأسماء آبائهم»[٢] وقال ﷺ: «من سرّه أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدنيها ربّي ويتمسك بقضيب غرسه ربّي بيده فليتول علي بن أبي طالب وأوصياءه من بعده، فإنهم لا يدخلونكم في باب ضلال، ولا يخرجونكم من باب هدى، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»[٣].

النموذج الرابع: ما دل على تخصيص الأئمة عليهم السلام بأهل بيت رسول الله ﷺ، كقوله ﷺ: «أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون من بعدي أئمة على الناس من الله من أهل بيتي، يقومون في الناس فيكذبون، ويظلمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم»[٤].

النموذج الخامس: ما دل على تخصيص الإمامة بالعترة الطاهرة لا غير.

منها: قوله ﷺ: «يا أيها الناس! إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[٥] وفي حديث آخر قال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء

١ – انظر حق اليقين: ج١، ص٢٥٣.
٢ – إثبات الهداة: ج١، ص٢٤٩.
٣ – إثبات الهداة: ج٢، ص٢٥٤.
٤ – إثبات الهداة: ج٢، ص٢٥٦.
٥ – صحيح الترمذي: ج٥، ص٣٢٨، ح٣٨٧٤؛ تفسير ابن كثير: ج٤، ص١١٣؛ ينابيع المودة: ص٣٣،٣٠؛ وانظر المراجعات: ص٣٢٤ هامش رقم(٢٨).

إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[١].

وفي بعض الروايات وصف الكتاب والعترة بالخليفتين[٢]، وفي بعضها بالثقلين[٣]، والأحاديث الواردة بهذا المضمون متواترة، وطرقها عن بضع وعشرين صحابياً متضافرة. أقر بذلك جماعة من أعلام الجمهور.

حتى قال ابن حجر: أعلم أن لحديث التمسك بهما - أي الكتاب والعترة- طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً، وفي بعض تلك الطرق أنه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنه قال بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أخرى أنه قال ذلك بغدير خم، وفي أخرى أنه قال ذلك لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف، ولا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة[٤].

وتواتر النقل بأنه صلى الله عليه وآله قال في حجرته المباركة في مرضه الذي رحل فيه:

---

١ - صحيح الترمذي: ج٥، ص٣٢٩، ح٣٨٧٦؛ الدر المنثور: ج٦، ص٧؛ الصواعق المحرقة: ص١٤٧؛ أسد الغابة: ج٢، ص١٢؛ تفسير ابن كثير: ج٤، ص١١٣؛ وانظر المراجعات: ص٣٢٥، هامش رقم(٢٩).

٢ - انظر الدر المنثور: ج٢، ص٦٠؛ ينابيع المودة: ص٣٨؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٩٢؛ المراجعات: ص٣٢٥ هامش رقم(٣٠).

٣ - انظر الصواعق المحرقة: ص١٣٦؛ كنز العمال: ج١، ص١٦٧، ح ٩٥٤؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٠٩، ص٥٣٣؛ المراجعات: ص٣٢٦، هامش رقم (٣٣).

٤ - انظر الصواعق المحرقة: ص٧٥؛ تفسير الآية الرابعة: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ الصافات/ ٢٤؛ الصواعق المحرقة: ص٨٩؛ وانظر المراجعات: ص٣٢٦ هامش رقم (٣٦).

«ألاّ أني مخلف فيكم كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي»ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال: «هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض»[1] ويدل هذا الفعل والقول منه على أمرين:

أحدهما: تطبيق الكبرى التي ذكرها في الحديث على الصغرى.

وثانيهما: أن علياً عليه السلام من العترة لكي لا يبقى شك أو إبهام يوقع الصحابة في الحيرة.

والتأمل الدقيق في مضامين هذه المجاميع الكثيرة من الروايات يدلنا على عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الروايات الواردة بهذه المضامين بلغت من الكثرة ما تجاوز حد التواتر بطرق الفريقين، ومن الواضح أن التواتر ينفي الشكوك التي قد تحوم حولها من جهة السند؛ لأنه يفيد القطع بصدورها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأما من حيث الدلالة فهي محكمة بالنص الصريح أو الظاهر بل في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الموجب للقطع واليقين بالدلالة فتكون حجة دامغة على أن خلفاء النبي هم من قريش لا من غيرها من القبائل، ومن بني هاشم لا من غيرهم من قريش، ومن أهل البيت لا من غيرهم من بني هاشم، وهم العترة الطاهرة فقط لا غير، وأن عددهم اثنا عشر لا يزيدون ولا ينقصون، وإنهم أئمة حق أمان للأمة من كل المخاطر وإنهم مع القرآن والقرآن معهم لا يفترقان إلى يوم القيامة.

---

١ - الصواعق المحرقة: ص٧٥؛ وانظر ينابيع المودة: ص٢٩٦؛ المراجعات: ص٣٢٧، هامش رقم (٣٥).

وفي هذا المجال قال الشيخ سليمان البلخي القندوزي الحنفي عن بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، ولا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من الصحابة لقلتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن يحمل على الملوك الأمويين لزيادتهم على الأثني عشر ولظلمهم الفاحش.... ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسيين لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم قوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[١] وحديث الكساء، فلابد من أن يحمل على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم، وأجلهم، وأورعهم، وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً، وأكرمهم عند الله، وكانت علومهم عن آبائهم متصلة بجدهم صلى الله عليه وآله وسلم وبالوراثة اللدنية، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق، ويؤيد هذا المعنى ويرجحه حديث الثقلين والأحاديث الكثيرة المذكورة في هذا الكتاب وغيره[٢].

وأما من حيث أسانيدها فقد تتبعها بطرق الفريقين الحر العاملي رحمه الله في كتابه الجامع إثبات الهداة، وقال: إنها أكثر أكثر بكثير من كل ما اتفقوا على تواتره لفظاً أو معنىً، مثل وجوب الصلاة والزكاة وتحريم الخمر، وأخبار المعاد، وكرم حاتم، وغزاة بدر وأحد وحنين، وخبر الخضر وموسى وذي القرنين، وأمثال ذلك، وكثرة النقلة ـ من الشيعة وغيرهم بحيث لا يحصى لهم عدد ـ ظاهر، واجتماع الشرائط المذكورة واضح لا ريب فيه، ومن خلا ذهنه

---

١ - سورة الشورى: الآية ٢٣.

٢ - ينابيع المودة: ص٥٠٤، (بتصرف).

من شبهة أو تقليد حصل له العلم من هذه الأخبار بحيث لا يحتمل النقيض عنده أصلاً، ولو أنصف العامة لعلموا أن نصوص أئمتنا عليهم السلام ومعجزاتهم أوضح تواتراً من نصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزاته، ولو أنصف اليهود والنصارى وأمثالهم لعلموا أن تواتر نصوص نبينا وأئمتنا عليهم السلام ومعجزاتهم أوضح وأقوى من تواتر نصوص أنبيائهم ومعجزاتهم[1].

وقال أيضاً: تركت أحاديث كثيرة من الكتب التي رأيتها وطالعتها لضعف دلالتها واحتياجها إلى بعض التوجيهات، وضم بعض المقدمات لعدم الاحتياج إلى ذلك القسم، ومن جملتها أحاديث تفضيل أمير المؤمنين وسائر الأئمة عليهم السلام فإنها أكثر من أن تحصى، وما لم انقله منه ربما كان أكثر مما نقلته، ولكن لكثرة النصوص والمعجزات اكتفيت بما ذكرته، ومن شك أو شكك أو تعصب بعد الاطلاع على ما جمعته فالله تعالى حاكم بيننا وبينه، فإنه قد تجاوز حد التواتر اللفظي والمعنوي، ولا يوجد في شيء من المتواترات اللفظية والمعنوية ما يماثله ولا يقاربه، وناهيك بنقل جميع الخصوم له وعدم خلو شيء من مؤلفات الفريقين منه إلاّ النادر[2].

وهذا التواتر ذكره الخاجة نصير الدين الطوسي في تجريده حيث قال بعد إثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام والنقل المتواتر دل على الأحد عشر، وعضده بدليلين عقليين هما تحقق العصمة فيهم وكمالاتهم المنحصرة بهم[3].

وقال العلامة الحلي: إن النقل المتواتر من الشيعة خلفاً عن سلف يدل على

١ - إثبات الهداة: ج١، ص٣٥ -٣٦.
٢ - إثبات الهداة: ج١، ص٧٥-٧٦.
٣ - انظر كشف المراد: ص٤٢٢.

إمامة كل واحد من هؤلاء بالتنصيص، وقد نقل المخالفون ذلك من طرق متعددة تارة على الإجمال، وأخرى على التفصيل، كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله متواتراً أنه قال للحسين عليه السلام: «هذا ابني إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم» وغير ذلك من الأخبار[1].

وروي عن مسروق أنه قال: بينا نحن عند عبد الله بن مسعود إذ قال له شاب: هل عهد إليكم نبيكم صلى الله عليه وآله كم يكون من بعده خليفة؟ قال: إنك لحديث السن، وإن هذا شيء ما سألني أحد عنه. نعم عهد إلينا نبينا صلى الله عليه وآله أن يكون بعده اثنا عشر خليفة عدد نقباء بني إسرائيل[2].

الحقيقة الثانية: أن الصحابة كانوا يعرفون الأئمة عليهم السلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله بأسمائهم وبأوصافهم، ولم يكن يشك في ذلك أحد كما أقر به ابن مسعود حينما سئل عن وصيه بالخلافة، وأقر بهذا أيضا انس ابن مالك وابن عباس وأم سلمة وأبو ذر وغيرهم، وفي كل ذلك روايات ووقائع مهمة نترك تفصيلها لمظانها[3].

وفي خبر بريدة بن خضيب الاسلمي وهو مشهور معروف بين علماء المسلمين باسانيد معتبرة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني وأنا سابع سبعة فيهم أبو بكر وعمر وطلحة والزبير فقال: «سلموا على علي بإمرة المؤمنين فسلمنا عليه بذلك ورسول الله صلى الله عليه وآله حي بين أظهرنا»[4].

١ - انظر كشف المراد: ص٤٢٣.
٢ - مسند أحمد: ج١، ص٣٩٨؛ وانظر الغيبة (للطوسي): ص٨٩.
٣ - انظر الإرشاد (للمفيد): ص٢٧- ٢٨.
٤ - انظر الإرشاد (للمفيد): ص٢٨.

وقد ورد بطرق وأسانيد كثيرة أن أبا بكر وعمر قالا لعلي حينما سمعا حديث النبي في حقه يوم الغدير: أمسيت يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة[١].

واختصم إعرابيان إلى عمر أيام حكومته فالتمس من علي القضاء بينهما، فقال أحدهما: هذا يقضي بيننا؟! فوثب إليه عمر وأخذ بتلابيبه وقال: ويحك ما تدري من هذا؟ هذا مولاك ومولى كل مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن[٢].

فالأمر كان معروفاً غير منكور من أحد، إلاّ أن بعضهم لم يكن يحب التصريح به أو الإذعان إليه كما يشهد له موقف عائشة حينما سئلت عن خلفاء النبيصلى الله عليه وآله وسلم فأقرت بأنه أخبرها بهم وبأسمائهم، وأن كل ذلك لم يكن إخباراً شفوياً فقط ، بل كان مسجلاً مكتوباً عندها وبإملاء رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وأبت أن تعرضه، وإخفاء النبي لصوته حينما اخبر عنهم بأن خلفاءه من بني هاشم؛ إذ لا وجه لهذا الإخفاء سوى الحذر من الرفض والإعراض، وهذا يؤكد الحقيقة التي أكدتها النصوص المتواترة وشواهد التاريخ أن أناساً من الصحابة لم يذعنوا لتنصيب عليعليه السلام إماماً في واقعة الغدير كما تقدمت بعض وقائعه نظير ما عرفته من موقف النعمان بن الحرث الفهري حينما جاء معترضاً على النبيصلى الله عليه وآله وسلم في ذلك لتخوفهصلى الله عليه وآله وسلم من الناس أن يقولوا: حابى ابن

١ - انظر الصواعق المحرقة: ص٢٦؛ مسند أحمد: ج٤، ص٢٨١؛ تاريخ دمشق: ج٢، ص٨٢، ح٥٨١؛ الرياض النضرة: ج٢، ص٢٢٤.

٢ - الصواعق المحرقة: ص١٠٧؛ ذخائر العقبى: ص٦٨؛ المناقب (للخوارزمي): ص٩٨؛ الرياض النضرة: ج٢، ص٢٢٤؛ وانظر المراجعات: ص٤٢١، هامش رقم (٦٥٦).

عمه وأن يطعنوا ذلك عليه، فلذا أوحى الله تعالى إلية بآية التبليغ، وضمن له أن يعصمه من الناس، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[١].

وقد روى الفريقان عن ابن عباس ذلك[٢].

ولعل من المناسب هنا أن نلحظ الحوار الذي جرى بين عمر وابن عباس في أمر الخلافة إذ قال عمر: يا بن عباس! أتدري ما منع الناس منكم؟ قال: لا قال: لكني أدري. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فيجخفوا الناس جخفاً ـ أي أن يتكبروا على الناس ويفتخروا[٣] ـ فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت، فقال ابن عباس: ... أما قولك: إن قريشاً كرهت فإن الله تعالى قال لقوم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[٤] وأما قولك: إنا كنا نجخف فلو جخفنا بالخلافة لجخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٥] وقال له: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦] وأما قولك: فإن قريشاً اختارت فإن الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وقد علمت يا عمر

---

١ – سورة المائدة: الآية ٦٧ تفسير الآية المزبورة.

٢ – انظر مجمع البيان: ج٣ـ ص٣٨٢– ٢٨٣، تفسير الآية المزبورة

٣ – لسان العرب: ج٩، ص٢٢، (جخف).

٤ – سورة محمد: الآية ٩.

٥ – سورة القلم: الآية ٤.

٦ – سورة الشعراء: الآية ٢١٥.

أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت قريش[1] إلى آخر المحاورة وهي مفصلة، وفيها دلالات كثيرة على ما ذكرنا.

ويؤكد كل ذلك أن الصحابة لم يكونوا كلهم يذعنون لأمر الرسول ﷺ، بل كان بعضهم يقدم أهواءه كما يشهد له قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[2] فإن الآية تضمنت الإشارة إلى أمرين هامين:

أحدهما: أن بعض الصحابة سيرجعون بعد رسول الله ﷺ إلى جاهليتهم؛ لرسوخ أفكارها وقيمها في نفوسهم، والسبب في ذلك هو أن دخولهم في الإسلام لم يكن بدافع الإيمان والعقيدة، بل بدافع المصالح والأهواء، ولذا عبرت الآية عن هذا الرجوع بالانقلاب، وهو يعني الرجوع السريع من دون توقف أو تأن في الأمر، والانقلاب هنا على قسمين: الانقلاب في العقيدة والانقلاب في الطاعة والعمل، وكلاهما يشملان التخلي عن وصايا النبي ﷺ بالخلافة وبيعتهم لعلي أمير المؤمنين عليه السلام بها.

فإن شواهد التاريخ تثبت أن بعضهم تخلوا عن البيعة جحوداً وإنكاراً؛ لأنهم ما آمنوا بالإسلام، وبعضهم تخلوا عنها عصياناً وتمرداً طمعاً في الدنيا وملذاتها، ولذا قال القرآن الكريم بأن هؤلاء المنقلبون لن يضروا الله ولا

١ - انظر شرح نهج البلاغة: ج١٢، ص٥٢-٥٥؛ مواقف الشيعة: ج١، ص١٥٢-١٥٣.
٢ - سورة آل عمران: الآية١٤٤.

رسوله، بل يضرون أنفسهم؛ لأنهم سيسألون عنها ويحاسبون، بل وردت بطرق الفريقين نصوص كثيرة تدل على أن النبي صلى الله عليه وآله حذرهم ودعا عليهم.

منها: حديث الحافظ أبي نعيم بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سرّه أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه، وليقتد بالأئمة من بعدي فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي، رزقوا فهماً وعلماً، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي، ولا أنالهم الله شفاعتي»[1] ومن الواضح أن تحذير النبي صلى الله عليه وآله يؤكد وجود جماعة من أمته سيقعون في هذا المحذور، ويحرمون من شفاعته في الآخرة.

كما أكدت حقائق التأريخ أن جماعة من الأمة لم تقتد بعلي عليه السلام، ولم تواله، وعليه فهم لم يحيوا حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يموتوا على نهجه ودينه، ولا يخفى ما يترتب على هذا المعنى من لوازم في العقيدة والعمل.

وثانيهما: أن بعض الصحابة شاكرون لأنعم الله تعالى بالعمل، وصيغة اسم الفاعل تدل على استقرار صفة الشكر فيهم، وللشاكرين سمة بارزة وهي الدوام على الشكر بالقلب والعمل؛ بداهة أن الشكر بالألفاظ وحدها لا يوجب استقرار هذا الوصف بهم، ولذا وصفهم الباري تعالى بالقلة في قوله سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[2] ولفظ ﴿عِبَادِيَ﴾ يشير إلى أن العبودية الحقيقية لا تنسب إلاّ إلى أعمال الجوانح، ومن الواضح أن أكثر

١ - مقتضب الأثر: ص١٦؛ العمدة: ص٤؛ بحار الأنوار: ج٢٣، ص١٣٩، ح٨٥؛ وانظر المناقب(لابن شهر اشوب): ص٥؛ روضة الواعضين: ص١٠١.
٢ - سورة سبأ: الآية١٣.

الناس شاكرون بألسنتهم إلاّ أن الشاكرين بقلوبهم وأعمالهم نزر القليل منهم، ولذا وصفهم تعالى بعباده، وأضافهم إلى نفسه إضافة تشريفية اختصاصية فقال: ﴿عِبَادِيَ﴾ وهم أنفسهم المخلصون لله الذين لا سبيل للشيطان عليهم كما قال سبحانه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١] وإن اختلفت مراتبهم ودرجاتهم.

ولا شك في أن من أجلى مصاديق شكر النعمة هي إطاعة النبي ﷺ في أمر الخلافة والإمامة، بل هي أكمل النعم وأعظمها في منطق الوحي، حيث قال سبحانه فيها: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٢] وتمام النعمة فيها يعود إلى تعيين الإمام والقائد بعد النبي ﷺ، ولذا صار سبباً ليأس الكفار من التأثير على الإسلام أو الطعن فيه؛ لأن ذلك غلق عليهم أبواب الفتنة؛ بداهة أن امتداد النبي بالإمام، وبوجود الإمام تدوم الشريعة وتبقى، وتقوى الأمة وتتماسك في أهدافها وأعمالها فيبطل مشروع الكفر.

ومن هنا ورد النص بطرق الفريقين أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضا الرب برسالتي، وولاية علي بن أبي طالب من بعدي، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»[٣].

والخلاصة: أن مضامين الآيات والروايات المباركة تؤكد أن الصحابة

---

١ - سورة ص: الآية٨٢-٨٣.

٢ - المائدة: الآية ٣.

٣ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص٢٧٤، تفسير الآية المزبورة.

كانوا يعرفون الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله بوصفه وشخصه؛ لأنه صلى الله عليه وآله عيّنه ونصبه عليهم في حياته، وأوصاهم به بعد وفاته، وهو علي أمير المؤمنين عليه السلام ثم ذريته من بعده، وأخبرهم بأن هذا من أمر الله وفعله، إلاّ أن بعضهم أطاع، وبعضهم عصى، فلذا سيجزي الله المطيع الشاكر منهم، ويعذب العاصي.

الحقيقة الثالثة: أن هناك محنتين كبيرتين سوف تبتلى بهما الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وآله:

المحنة الأولى: تكذيب خلفاء النبي صلى الله عليه وآله الذين نصبهم الله والرسول للخلافة، ولازم هذا التكذيب هو عزلهم عن مقامهم وإقصاؤهم عن منصب الخلافة واتباع غيرهم، وهذه محنة عامة ابتليت بها الأمة إلاّ القليل ممن وفى بعهده، وهذا ما تؤكده شواهد التأريخ، حيث اتبعت الأمة غير عترة النبي صلى الله عليه وآله، وجعلت لنفسها أئمة آخرين، وصار الإمام الذي عينه الله ورسوله جليس الدار[١].

والمحنة الثانية: هي الظلم الذي أنزله بحق الأئمة من آل الرسول عليهم السلام أئمة الكفر والضلالة وحزبهم الذين دبروا لمصادرة الحكم والخلافة، وتحويل النبوة إلى ملك عضوض يتوارثه الأبناء عن الآباء، وهو ما يشير إليه قوله صلى الله عليه وآله: «ويظلمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم»[٢] وبناء على أن العطف يقتضي المغايرة فإن الذين عادوا أهل البيت وظلموهم ينقسمون على طائفتين هما: أئمة كفر وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام، وأجلى مصاديقهم، من غصبوا الخلافة من أهل البيت، ووضعوا بني أمية ومن هم على شاكلتهم

١ - انظر الإرشاد (للمفيد): ص١٠١.

٢ - بصائر الدرجات: ص٥٣، ح١؛ تفسير العياشي: ج٢، ص٣٠٤.

في الأفكار والأفعال أئمة وحكاماً على الإسلام والمسلمين، وأئمة ضلال هم الذين غرتهم الدنيا واتبعوا الشيطان، فنصبوا أنفسهم مكانهم، وتلبسوا بمظهر الدين لأجل الملك والسلطان، وكلا الطائفتين سخرت جيوشاً من القادة والمفكرين والكذابين والوضاعين ليعطوهم صفة القدسية والحق، وبالتالي أسسوا منهجاً لظلم أهل البيت عليهم السلام وإقصائهم عن الواقع العلمي والسياسي للمسلمين، ولذا وصفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأئمة، ووصف أتباعهم بالأشياع، وهؤلاء لم يهتدوا يوماً إلى حق، أو يتركوا سنّة ضلالة، وهذا ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: «قال لي جبرئيل: يا محمد! ما ركزت لواء قط في موضع إلاّ ركز إبليس لواءه، ولما ركزت لوائي في بني هاشم ركز لواءه في بني أمية، وما زال ينازلني المنازل، فلما نزلت إليكم نزل في بني أمية»[١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أئمة الكفر خمسة منهم معاوية وعمر و ... »[٢].

وورد عن علي أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معنى قوله تعالى: «﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[٣] قال: نزلت في الأفجرين من قريش: بني أمية وبني المغيرة، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين»[٤].

١ - المناقب والمثالب (لأبي حنيفة النعمان): ص٢٠٤.
٢- المصنف (لعبد الرزاق): ج١١، ص٣٥٠، ح٢٠٧٢٦؛ العلل (لابن حنبل): ج٢، ص١٢٧؛ وانظر التأريخ الكبير: ج٧، ص٣١٦.
٣ - سورة إبراهيم: الآيات ٢٨-٣٠.
٤ - المستدرك: ج٢، ص٣٥٢؛ المعيار والموازنة: ص٢٩٩؛ المعجم الاوسط: ج١، ص٢٣٧؛

وعن أبي بكرة أنه ذكر بني أمية فقيل له: كأنك إنما عتبت على معاوية وزياد في الدنيا؟ فقال: وأي ذنب أعظم من استعمالهم فلاناً على كذا وفلاناً على كذا، لا والله ولكن القوم كفروا صراحة[1].

وروي عن عمر أنه قال لعبد الرحمن بن عوف:أما علمت أنا كنا نقرأ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾[2] في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله؟ قيل له ومتى ذلك؟ قال: إذا كان بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء[3].

ومن الحقائق الثابتة عند جميع المسلمين أن أبا سفيان ومعاوية وجماعة[4] أسلموا دفعاً للخوف، أو رغبة في المصلحة، ولذا أعطوا من سهم المؤلفة قلوبهم لتحييد خصومتهم للإسلام[5]، وكانت فكرتهم في الإسلام أنه دولة وملك وسلطان لا نبوة وهداية، فلذا قال أبو سفيان للعباس حين فتح مكة: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً فقال له العباس: ويحك لا تقل مثل

تفسير الطبري: ج١٣، ص٢٨٧؛ تفسير النوري: ص١٥٧؛ كنز العمال: ج٢، ص٤٤٤، ح٤٤٥٣.

١ - تأريخ دمشق: ج٦٢، ص٢١٧؛ تهذيب الكمال: ج٣٠، ص٧؛ سير أعلام النبلاء: ج٣، ص٩.

٢ - سورة الحج: الآية٧٨.

٣ - البداية والنهاية: ج٦، ص٢٤٠؛ الدر المنثور: ج٤، ص٣٧١؛ وانظر فتح القدير: ج٣، ص٤٧٢.

٤ - انظر أسماؤهم في المناقب والمثالب: ص١٨٣.

٥ - انظر السيرة النبوية(لابن هشام): ج٤، ص٩٣٣؛ الطبقات الكبرى: ج٤، ص٢٤٦؛ تاريخ الطبري: ج٢، ص٣٥٩؛ أسد الغابة: ج١، ص٢٨٤.

هذا إنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنها النبوة[١].

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر لمروان وقد كتب إليه معاوية ليبايع يزيد: جئتم بها والله هرقلية تبايعون لأبنائكم[٢]، والشواهد في ذلك كثيرة جداً متجاوزة لحد التواتر[٣]، ويؤكد كل ذلك مواقفهم وأعمالهم، فقد حارب معاوية أهل البيت عليهم السلام، ومنع من ذكرهم والتحدث بفضائلهم فضلاً عن اتباعهم.

وفي محاورة جرت بينه وبين ابن عباس في الحج وأراد أن يمنع ابن عباس من تحديث الناس بفضائل أهل البيت عليهم السلام فيها الكثير من الدلائل الهامة، فقال: إنا كتبنا إلى الآفاق ننهي عن ذكر مناقب علي وأهل بيته، فكف لسانك يا ابن عباس، فقال له بن عباس بكل ثقة وشجاعة: فتنهانا عن قراءة القرآن؟ قال: لا. قال: فتنهانا عن تأويله؟ قال: نعم. قال: فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به؟ قال: نعم. قال: فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟ قال: العمل به. قال: فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟ قال: سل عن ذلك ممن يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك.

قال: إنما نزل القرآن على أهل بيتي، فاسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط؟!! قال: فاقرأوا القرآن، ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم، ومما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيكم، وارووا ما سوى ذلك، وسخر منه ابن

١ - المناقب والمثالب: ص١٧٥.

٢ - الفائق (للزمخشري): ج٣، ص٣٩٨؛ شرح نهج البلاغة: ج٦، ص١٥٠؛ تفسير القرطبي: ج١٦، ص١٩٧، تفسير سورة الاحقاف الآية ١٧.

٣ - انظر المناقب والمثالب: ص١٧٨ وما بعدها.

عباس وتلا قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١] وصاح به معاوية: اكفني نفسك، وكف عني لسانك، وإن كنت فاعلاً فليكن سراً، ولا تسمعه أحداً علانية[٢].

ولما ظهر عمرو بن العاص بمصر على محمد بن أبي بكر وقتله استولى على كتبه ومذكراته، وكان من بينها عهد الإمام علي عليه السلام له، وهو من أروع الوثائق السياسية، فرفعه ابن العاص إلى معاوية، فلما رآه قال لخاصته: إنا لا نقول هذا من كتب علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكن نقول هذا من كتب أبي بكر التي كانت عنده[٣]، وتمادى الأمويون في محاربة الإمام علي عليه السلام حتى عهدوا بقتل كل مولود يسمى علياً، فبلغ ذلك علي بن رباح فخاف وقال: لا أجعل في حل من سماني علياً، فإن اسمي عُلي (بضم العين)[٤].

وروى معمر عن الزهري عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عز وجل منع بني إسرائيل قطر السماء بسوء رأيهم في أنبيائهم واختلافهم في دينهم، وإنه أخذ هذه الأمة بالسنين، ومنعهم قطر السماء ببغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: «يا يماني! اكتم هذا الحديث واطوه دوني، فإن هؤلاء - يعني بني أمية - لا يعذرون أحداً في تقريض علي عليه السلام وذكره». قال معمر: فما بالك أوعبت مع القوم وقد سمعت الذي

---

١ - سورة الصف: الآية ٨.

٢ - الاحتجاج: ج٢، ص١٥؛ المناقب: ج٢، ص٣١٥.

٣ - شرح نهج البلاغة: ج٥، ص٧٢.

٤ - تهذيب التهذيب: ج٧، ص٣١٩.

سمعت؟ قال الزهري: حسبك يا هذا إنهم أشركونا في لهاهم فانحططنا لهم في أهوائهم[١].

وقد حكى الإمام الباقر عليه السلام صوراً مريعة من حقد الأمويين على آل البيت عليهم السلام وشيعتهم. يقول: «وقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن، أو نهب ماله، أو هدمت داره»[٢].

ويكفي في الكشف عن سياسة بني العباس في هذا الاتجاه ما رواه المسعودي والمقريزي في النزاع والتخاصم. قالا: جمع المنصور أبناء الحسن، وأمر بجعل القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وحملهم في محامل مكشوفة وبغير وطاء، تماماً كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الحسين عليه السلام، ثم أودعهم مكاناً تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من النهار، وأشكلت أوقات الصلاة عليهم فجزؤوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلون على فراغ كل واحد من حزبه، وكانوا يقضون الحاجة الضرورية في مواضعهم، فاشتدت عليهم الرائحة، وتورمت أجسادهم، ولا يزال الورم يصعد من القدم حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه مرضاً وعطشاً وجوعاً[٣].

وقال ابن الأثير: دعا المنصور محمد بن عبد الله العثماني وكان أخاً لأبناء الحسن من أمهم، فأمر بشق ثيابه حتى بانت عورته، ثم ضرب مئة وخمسون

١ – جواهر المطالب في مناقب علي عليه السلام: ج١، ص٢٤٣.
٢ – شرح نهج البلاغة: ج١١: ص٤٣؛ بحار الأنوار: ج٤٤، ص٦٩،ح١٣؛ انظر ينابيع المودة: ج٣، ص٢٧٨.
٣ – انظر مروج الذهب: ج٣، ص٣١٠؛ النزاع والتخاصم: ص٧٤.

سوطاً فأصاب سوط منها وجهه، فقال: ويحك اكفف عن وجهي، فقال المنصور للجلاد: الرأس الرأس فضربه على رأسه ثلاثين سوطاً وأصاب أحد عينيه سوط فسالت[١].

وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن الحسن، وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصغر لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً، ثم أمر به فبنى عليه اسطوانة وهو حي فمات فيها[٢].

وقال الاسكندري: دخلت يوماً على الدوانيقي فوجدته في فكر عميق، فقلت له: ما هذا الفكر؟ قال: قتلت من ذرية فاطمة بنت محمد ألفاً أو يزيد، وتركت سيدهم ومولاهم- أي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام - فقلت: ومن ذاك؟ قال: قد عرفت أنك تقول بإمامته، وإنه إمامي وإمامك، وإمام جميع هذا الخلق[٣]، ولكن الآن أفرغ له، فكتب إلى عامله في المدينة أن يحرق داره، ثم دس إليه السم فمات مسموماً[٤]، والوقائع والاحداث في هذا المجال كثيرة وخارجة عن مهمة هذا البحث.

الحقيقة الرابعة: أن سعادة الأمة ورقيها في شؤونها الدينية والدنيوية رهينة بإمامة أهل البيت عليهم السلام؛ إذ دلت النصوص على أنهم حلفاء القرآن لا يفترقون عنه ولا يفترق عنهم إلى يوم القيامة، وأن إتباعهم هو اتباع للقرآن

١ – الكامل في التاريخ: ج٥، ص٥٢٥؛ وانظر النزاع والتخاصم: ص٧٤؛ تاريخ ابن خلدون: ج٣، ص١٨٩.

٢ – الكامل في التاريخ: ج٥، ص٥٢٦؛ وانظر تاريخ الطبري: ج٧، ص٥٤٦.

٣ – حياة الإمام الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٠٧؛ بحار أنوار: ج٤٧، ص٢٠١– ٢٠٢، ح٤٢.

٤ – الصواعق المحرقة: ص٢٠٣؛ تاريخ الشيعة: ص٤٦؛ تذكرة الخواص: ص٣١١.

ولرسول الله صلى الله عليه وآله، وبه تنال الجنة ورضوان الله سبحانه، وهم محك الاختبار للأمة الذي يميز المؤمن من غيره، وأنهم مصدر الحق والهدى، وبخلاف ذلك اتباع غيرهم.

وبهذا نعرف أن هذه الأحداث المباركة سلطت الأضواء على أسباب تقدم الأمة وأسباب تأخرها، وكشفت عن أن سبب الانهيار والهزيمة اللذين يعانيهما المسلمون منذ أحقاب مديدة هو انحرافهم عن الصواب في العقيدة وفي العمل، ولا يمكن أن يصل المسلمون في يوم ما إلى سعادة ورقي إلاّ بإرجاع الأمور إلى نصابها، واتباع قيادة محمد وآل محمد عليهم السلام.

وذلك لأن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله دعا لناصر علي عليه السلام في الخلافة والإمامة بالنصر، ولمخالفه بالخذلان، كما يشهد له حديث الغدير، حيث قال: «أللهم انصر من نصره، واخذل من خذله»[١] وهذه حقيقة هامة كشف عنها النبي صلى الله عليه وآله ينبغي أن تلتفت إليها الأمة على مستوى القيادات وعلى مستوى الرعية.

ولذا قال في حديث الثقلين وغيره: «فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٢] أي في الكتاب والعترة، ودعا على المتخلف عن ذلك بالعذاب في الآخرة، وعدم نيل شفاعة النبي صلى الله عليه وآله، فقد ورد بأكثر من طريق عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «فويل للمكذبين لهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي»[٣]

١ - بحار الأنوار: ج٣٧، ص١٤٩، اقول؛ الانتصار: ص٣٧٩؛ تفسير أبي حمزة الثمالي: ص٢٠٠.

٢ - المسائل الصاغانية: ص٥٤؛ الخلاف: ج١، ص٢٧؛ مسند زيد بن علي: ص٤٦٤.

٣ - انظر شرح نهج البلاغة: ج٢، ص٤٥٠؛ كنز العمال: ج١٢، ص١٠٣، ح٣٤١٩٨؛ ينابيع المودة: ج٢، ص٤٨٩؛ انظر حق اليقين: ص٢٥٩.

ومن كل هذه الحقائق نستخلص ما يلي:

١ـ أن الله ورسوله صلى الله عليه وآله قد نصبا الأئمة للأمة ووصفوهما وبينوا خصوصياتهم، وهذه الحقيقة كان يعرفها الصحابة، ويقرون بها بلا شك ولا شبهة من أحد؛ لأنها متجاوزة لحد التواتر، فالقول بأن النبي لم يوص بالخلافة من بعده يجانب الحقيقة.

٢ـ أن الخلافة محصورة بعترة النبي صلى الله عليه وآله، وهم علي وأولاده المعصومون عليهم السلام لا غير، فكل من ادعى غير ذلك أو تولى هذا المنصب يكون قد ظلم العترة عليهم السلام، وصار من أئمة الكفر، أو من أئمة الضلال.

٣ـ أن لا سعادة للأمة المسلمة ولا نجاة لها من شقائها إلاّ بالعودة إلى الصواب والتسليم لأمر الله ورسوله في الإمامة، وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه كل شيء في الحياة المادية والمعنوية، وكل ما يخطط له أو ترسمه السياسات من بدائل عن هذه الحقيقة لا تحظى بالنجاح؛ لأن سبيل الله سبحانه الذي فيه الحرية والتقدم والسعادة واحد، وسائر السبل الأخرى تنتهي إلى التفريق والهزيمة على المستوى السياسي والإحباط والفشل على مستوى النتائج. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

الطائفة الثانية: الروايات التخصيصية

وهي الروايات التي ذكرت الأئمة عليهم السلام بأسمائهم الشخصية، وهي كثيرة

١ - سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

ومتواترة معنى، وبعضها متواتر لفظاً، وقد أسند بعضها أحمد بن حنبل عن ابن عمر في أربعة وثلاثين طريقاً[١] فضلًا عن طرق الإمامية[٢]:

منها: رواية أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي إلى السماء نظرت فإذا مكتوب على العرش لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أيدته بعلي، ونصرته بعلي، ورأيت أنوار علي وفاطمة والحسن والحسين، وأنوار علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، ورأيت نور الحجة يتلألأ من بينهم كأنه كوكب دري، فقلت: يا رب من هذا؟ ومن هؤلاء؟ فنوديت يا محمد! هذا نور علي وفاطمة، وهذا نور سبطيك الحسن والحسين، وهذه أنوار الأئمة بعدك من ولد الحسين مطهرون معصومون، وهذا الحجة الذي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً»[٣] وهي دالة على:

١ـ أن الإمامة منصوبة من الله سبحانه في السماء قبل الأرض وإنها مقترنة بالعرش الإلهي والقدرة الربانية كناية عن الخلق.

٢ـ أن الإمامة ممتدة من الحسين إلى الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه، فهو من أبناء الحسين عليه السلام ليس من أبناء الحسن عليه السلام. نعم هو من أبناء الحسن العسكري عليه السلام، ولعل بهذا يرتفع الخلاف بين الإمامية والعامة، في أنه من أبناء الحسين أم من أبناء الحسن.

---

١ - انظر غاية المرام: ص٢٦٣-٢٦٨؛ فرائد السمطين: ج٢، ص٢١٣.

٢ - انظر اثباة الهداة: ج١، ص٧٠٦.

٣ - انظر منتخب الأثر: ص١٨٥- ١٨٦؛ الجواهر السنية: ص٢٨٥؛ مدينة المعاجز: ج٢، ص٣٨٠.

٣ـ أن الإمامة ملازمة للطهارة والعصمة والحجية على الخلق.

٤ـ أن نجاة الدنيا وخلاصها من الظلم والعدوان محصورة بالإمامة لا بغيرها.

٥ـ أن فاطمة الزهراء عليها السلام كسائر الأئمة عليهم السلام في خصوصياتها ومقاماتها المعنوية.

ومنها: ما رواه الخوارزمي بإسناده عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهي أكثر تفصيلاً من الأولى. قال: «ليلة أسري بي إلى السماء قال لي الجليل جل جلاله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾[1] فقلت: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فقال لي: صدقت من خلفت في أمتك؟ قلت: خيرها قال: علي بن أبي طالب؟ قلت: نعم يا ربّ. قال تعالى: يا محمد! إني اطلعت إلى الأرض إطلاعة اخترتك منها، فشققت لك اسماً من أسمائي، فلا أذكر في موضع إلاّ ذكرت معي، فأنا المحمود وأنت محمد، ثم اطلعت ثانية واخترت منها علياً، واشتققت له اسماً من أسمائي، فأنا الأعلى وهو علي. يا محمد! إني خلقتك وخلقت علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولده من نوري، وعرضت ولايتكم على أهل السموات والأرض، فمن قبلها كان عندي من المؤمنين، ومن جحدها كان من الكافرين. يا محمد! لو أن عبداً من عبادي عبدني حتى يصير كالشن البالي ثم أتاني جاحداً لولايتكم ما غفرت له حتى يقر بولايتكم. يا محمد! تحب أن تراهم؟ قلت: نعم، فقال لي: التفت إلى يمين العرش، فالتفت فإذا أنا بعلي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد

---

١ – سورة البقرة: الاية٢٨٥.

وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والمهدي في ضحضاح من نور قيام يصلون، وهو - يعني المهدي - في وسطهم كأنه كوكب دري، وقال لي: يا محمد! هؤلاء الحجج، وهو الثائر من عترتك، وعزتي وجلالي إنه الحجة الواجبة لأوليائي، والمنتقم من أعدائي»[1] وقد امتازت هذه الرواية بإضافة حقائق أخرى لم تتعرض لها الرواية الأولى وهي:

١ـ أنها نصت على أن علي بن أبي طالب عليه السلام هو خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الأمة، وأنه خير الأمة وأفضلها، وقد أقر الباري تعالى بهذا الاستحقاق.

٢ـ أن الإمام كالنبي يصطفيه الله سبحانه في ذاته وفي خصائصه وأسمائه، ويختاره، وليس للأمة دور في تنصيبه أو اختياره.

٣ـ أن ذات الإمام كذات النبي مخلوقة من نور الله سبحانه لا من تراب الأرض أو عناصرها، فهو مختلف في حقيقته وجوهره عن سائر الناس وإن كان له صفات البشر في شكله و إسلوبه.

٤ـ أن ولاية أهل البيت عليهم السلام والطاعة لهم عرضت على جميع الخلق، وصارت ميزاناً للإيمان والكفر، فمن قبلها وسلّم لها كان من المؤمنين، ومن تمرد أو عصى كان من الكافرين.

٥ـ أن قبول الأعمال والطاعات مرهون بقبول الولاية والتسليم لها، فلا يقبل عمل من عبد لم يقبل بالولاية مهما كثر عمله وبالغ في جهده، بل إن

---

١ - انظر كشف الغطاء: ج١، ص٧؛ مقتضب الأثر: ص١١؛ الغيبة: ص١٤٨؛ الطرائف: ١٧٣؛ وانظر حق اليقين: ص٢٥٣-٢٥٤.

عمل غير الموالي يعد إثماً وذنباً لا يغفر إلاّ بالإقرار بالولاية.

٦ـ أن الأئمة عليهم السلام عباد الله، وهم قائمون في عبادته تعالى منذ أن خلقهم، واشتق أنوارهم من نوره عز وجل، سواء كانت الصلاة بمعنى الدعاء أو العبادة المخصوصة، وظهور المهدي عجل الله فرجه الشريف في ضحضاح من نور - وهو الضوء الشديد على الأرض[1]- وأنه كالكوكب الدري لا يخلو من إشارة إلى علو مقامه ورتبته في الأئمة عليهم السلام، وأهمية إمامته ودورها في نشر العدل الإلهي على الأرض في آخر الأزمنة، والأخذ بحقوق الأنبياء والمكمل لرسالاتهم.

٧ـ أن سائر الأئمة عليهم السلام هم حجج الله، والمهدي عجل الله تعالى فرجه هو الحجة لهم، والمنتقم من أعداء الله وأعداء أوليائه.

٨ـ أن الصديقة فاطمة عليها السلام تشترك مع الأئمة عليهم السلام في جميع الخصوصيات إلاّ الإمامة، فقد خصصت الروايات الإمامة بعلي والحسن والحسين والأئمة من ولده عليهم السلام.

ومنها: رواية ابن عباس في قضية نعثل اليهودي الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يسأله عن أشياء، فقال: أخبرني عن وصيك من هو؟ فما من نبي إلاّ وله وصي، وإن نبينا موسى بن عمران أوصى يوشع بن نون، فقال: «إن وصيي علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين، تتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين» قال: يا محمد صلى الله عليه وآله! فسمهم لي قال: «إذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى

١ - انظر لسان العرب: ج٢، ص٥٢٤،(ضحح)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٩١،(ضحح).

محمد فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه الحسن، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة محمد المهدي، فهؤلاء اثنا عشر.... إلى آخر الحديث» وهو طويل اكتفينا منه بموضع الشاهد فأسلم نعثل، وانشأ يقول شعراً منه هذه الأبيات:

صلى الإله ذو العلا عليك يا خير البشر
ومعشر سميتهم أئمة أثني عشر
قد فاز من والاهم وخاب من عادى الزهر
من كان عنهم معرضاً فسوف تصلاه سقر[1]

ومثل هذا جاء عن جابر بن عبد الله الانصاري في قضية جندل بن جنادة اليهودي، وقد زادت عنها بذكر أسماء الأئمة وألقابهم الخاصة أيضاً؛ إذ قال جندل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وجدنا في التوراة في كتب الأنبياء عليهم السلام إيليا وشبراً وشبيراً، فهذه أسماء علي والحسن والحسين، فمن بعد الحسين، وما أساميهم؟ قال: «إذا انقضت مدة الحسين فالإمام ابنه علي ويلقب بزين العابدين، فبعده ابنه محمد يلقب بالباقر، فبعده ابنه جعفر يدعى بالصادق، فبعده ابنه موسى يدعى بالكاظم، فبعده ابنه علي يدعى بالرضا، فبعده ابنه محمد يدعى بالنقي والزكي، فبعده ابنه علي يدعى بالتقي والهادي، فبعده ابنه الحسن يدعى بالعسكري، فبعده ابنه محمد يدعى بالمهدي والقائم والحجة، فيغيب ثم يخرج، فإذا خرج يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، إلى آخر الحديث[2].

ومنها: اتفاق الرهبان والأحبار من اليهود والنصارى على أن أسماء

١ - ينابيع المودة: ج٣، ص٢٨٢ - ٢٨٣؛ وانظر بحر الأنوار: ج٣٦، ٣٠٥، ح١٤٤.
٢ - انظر ينابيع المودة: ج٣، ص٢٨٤ - ٢٨٥.

الرسول والأئمة الاثني عشر قد وردت في التوراة والإنجيل، ويقولون: إن أسماءهم وردت في سورة المثلى على هذا النحو: «مايد مايد: محمد؛ بنايوت: علي، قيدار: حسن، اربيل: حسين، مسام: علي زين العابدين، مشماع: باقر، دومه: صادق؛ مسا: موسى، حداد: رضا؛ تيما: تقي، يطور: نقي؛ نافيش: عسكري، قدمه: صاحب الأمر»[١].

ومنها: ما ورد بطرق الإمامية وهي كثيرة متواترة:

أحدها: رواية الصدوق قدس سره في الإكمال بسنده إلى الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إنه قال: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة، من عرفنا فقد عرف الله، ومن أنكرنا فقد أنكر الله عز وجل، ومن علي سبطا أمتي وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين، ومن ولد الحسين تسعة طاعتهم طاعتي، ومعصيتهم معصيتي، تاسعهم قائمهم ومهديهم»[٢].

ثانيها: ما رواه الصدوق قدس سره بسنده عن أبي حمزة عن الصادق عن أبيه عليهما السلام وهو حديث طويل يذكر فيه مراتب الأئمة ووجوب الاعتقاد بهم وحرمة مخالفتهم، ثم قال: «فقام جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله! ومن الأئمة من ولد علي بن أبي طالب؟ قال: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ثم سيد العابدين في زمانه علي بن الحسين، ثم الباقر محمد بن علي وستدركه يا جابر، فإذا أدركته فأقرئه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم الكاظم موسى بن جعفر، ثم الرضا علي بن موسى، ثم التقي

١ – انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص١٣٤؛ والمتن منقول من الكتاب المقدس: ص٢٣؛ انظر هامش المصدر: رقم (١).

٢ - كمال الدين: ج١، ص٢٤٨، ح٧.

محمد بن علي، ثم النقي علي بن محمد، ثم الزكي الحسن بن علي، ثم ابنه القائم بالحق مهدي أمتي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، هؤلاء يا جابر خلفائي وأوصيائي وأولادي وعترتي، من أطاعهم فقد أطاعني، ومن عصاهم فقد عصاني، ومن أنكرهم أو أنكر واحداً منهم فقد أنكرني، بهم يمسك الله عز وجل السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبهم يحفظ الله الأرض أن تميد بأهلها»[1].

وفي رواية الأصبغ بن نباته عن أمير المؤمنينعليه السلام أضاف رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم صفاتاً أخرى لهم، فقال بعد ذكر عددهم: «بهم يحفظ الله عز وجل دينه، وبهم يعمر بلاده، وبهم يرزق عباده، وبهم نزل القطر من السماء، وبهم يخرج بركات الأرض، هؤلاء أصفيائي وخلفائي وأئمة المسلمين وموالي المؤمنين»[2].

ثالثها: ما رواه الصدوققدس سره بسنده عن الرضاعليه السلام عن أبيه عن آبائهعليهم السلام عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم إنه قال: «من أحب أن يتمسك بديني ويركب سفينة النجاة بعدي فليقتد بعلي بن أبي طالب، وليعاد عدوه، وليوال وليه، فإنه وصيي وخليفتي على أمتي في حياتي وبعد وفاتي، وهو إمام كل مسلم» ثم قال: «الحسن والحسين إماما أمتي بعد أبيهما، وسيدا شباب أهل الجنة، وأمهما سيدة نساء العالمين، وأبوهما سيد الوصيين، ومن ولد الحسين تسعة أئمة، تاسعهم القائم من ولدي، طاعتهم طاعتي، ومعصيتهم معصيتي، إلى الله أشكو المنكرين لفضلهم، والمضيعين لحرمتهم بعدي، وكفى بالله ولياً

١ - كمال الدين: ص٢٥٨- ٢٥٩، ح٣.
٢ - كمال الدين: ص٢٦٠، ح٥.

وناصراً لعترتي، وأئمة أمتي، ومنتقماً من الجاحدين لحقهم، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون»[١].

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله وسلم لابن مسعود فبعد أن ذكر لهم الأئمة عليهم السلام وأوصافهم ووجوب طاعتهم وحرمة مخالفتهم: «يا بن مسعود إياك أن تجد في نفسك حرجاً مما أقضي فتكفر، فوعزة ربّي ما أنا متكلف ولا ناطق عن الهوى في علي والأئمة من ولده» ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا بن مسعود قد جمعت لكم في مقامي هذا ما إن فارقتموه هلكتم، وإن تمسكتم به نجوتم، والسلام على من اتبع الهدى»[٢].

رابعها: رواية سليم بن قيس الهلالي عن سلمان المحمدي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحديث طويل ورد فيه ذكر أسماء الأئمة وبعض خصوصياتهم. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أول الأوصياء بعدي أخي علي، ثم حسن، ثم حسين، ثم تسعة من ولد الحسين في درجتي، وليس في الجنة درجة أقرب إلى الله من درجتي» ثم قال: «يا سلمان! أشهد الله أني سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم، أما إنهم معي في الجنة» ثم أقبل على علي عليه السلام فقال: «يا أخي أنت ستبقى بعدي، وستلقى من قريش شدة من تظاهرهم عليك وظلمهم لك» وقال أيضاً: «يا علي! إن الله تبارك وتعالى قد قضى الفرقة والاختلاف على هذه الأمة، ولو شاء لجمعهم على الهدى حتى لا يختلف اثنان من هذه الأمة، ولا ينازع في شيء من أمره، ولا يجحد المفضول لذي الفضل فضله، ولو شاء لعجل النقمة، وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم، ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه

١ - كمال الدين: ص٢٦٠-٢٦١، ح٦.
٢ - كمال الدين: ص٢٦٢، ح٨.

جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة دار القرار؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فقال علي عليه السلام: الحمد لله شكراً على نعمائه، وصبراً على بلائه»(١).

خامسها: رواية الصدوق قدس سره بسنده عن سليم بن قيس الهلالي قال: رأيت علياً عليه السلام في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله في خلافة عثمان وجماعة يتحدثون ويتذاكرون العلم والفقه، ويتفاخرون في مكانتهم في الإسلام، وبخلافة النبي صلى الله عليه وآله، وكانت حلقتهم أكثر من مائتي رجل ذكر العديد من أجلائهم، فسألوا علياً عليه السلام أن يتكلم، فحدثهم في كلام مفصل، ذكرهم بحديث الغدير وتنصيب الرسول له بالخلافة بأمر الله، حيث خطب الناس وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، أللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» فقام سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! ولاؤه كماذا؟ فقال صلى الله عليه وآله «ولاؤه كولائي من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه» فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾(٢) فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «الله أكبر بتمام النعمة، وكمال نبوتي، ودين الله عزّ وجل، وولاية علي بعدي» فقام أبو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله! هذه الآيات خاصة لعلي؟ قال: «بلى فيه وفي أوصيائي إلى يوم القيامة» قالا: يا رسول الله بيّنهم لنا. قال: «علي أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أمتي، وولي كل مؤمن بعدي، ثم ابني الحسن، ثم ابني الحسين، ثم تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد، القرآن معهم وهم مع القرآن لا

١ - كمال الدين: ص٢٦٢-٢٦٣، ح١٠.
٢ - سورة المائدة: الآية ٣.

يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا عليّ حوضي» فقالوا كلهم: أللهم نعم قد سمعنا ذلك كله، وشهدنا كما قلت سواء.

وقال: «أيها الناس قد بينّت لكم مفزعكم بعدي وإمامكم ودليلكم وهاديكم وهو أخي علي بن أبي طالب، وهو فيكم بمنزلتي فيكم، فقلدوه دينكم، وأطيعوه في جميع أموركم، فإن عنده جميع ما علمني الله تبارك وتعالى وحكمته، فسلوه وتعلموا منه ومن أوصيائه بعده، ولا تعلموهم ولا تتقدموهم ولا تخلفوا عنهم، فإنهم مع الحق والحق معهم لا يزايلونه ولا يزايلهم»[1].

إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة جداً التي تنص على الأئمة بعد النبي بأسمائهم الخاصة، ونستخلص من مضامين هذه الروايات عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن النبي والإمام عليهما السلام هما أبوا الأمة كما ذكرته الرواية الأولى، وليس المراد الأبوة النسبية، بل المعنوية التي تشمل العقيدة والعمل، ولذا يتعين على الأمة الاقتداء بهما واتباعهما في كل مجالات الحياة، ومناسبة الحكم والموضوع تشير إلى أن عدم اتباعهما أو اتباع غيرهما يعد من العقوق، وهو في أعلى مراتب القباحة والحرمة.

الحقيقة الثانية: أن معرفة النبي والإمام عليهما السلام مساوقة لمعرفة الله سبحانه كما أن انكارهما مساوقة لإنكاره سبحانه ومعنى ذلك أن الإيمان والكفر يدوران مدار الاعتقاد بالنبي والإمام عليهما السلام فلا يكتمل إيمان المؤمن إلاّ بمعرفتهما وطاعتهما.

---

١ - كمال الدين: ص٢٧٤- ٢٧٨، ح٢٥.

الحقيقة الثالثة: أن طاعة الله ورسوله تدور مدار إطاعة الأئمة عليهم السلام، فلا طاعة إلاّ بإطاعة الإمام، وعصيانه هو عصيان لله ورسوله.

وعليه فإن تنصيب غير الإمام في مقام الإمامة وإطاعته هو عصيان لله ورسوله مهما بلغ المطاع من الدرجة والرتبة. دلنا على هذه الحقيقة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي».

الحقيقة الرابعة: أن معرفة الأئمة عليهم السلام بأسمائهم وأشخاصهم من علي إلى المهدي وإطاعتهم واجبة بنحو الانضمام والعموم المجموعي، فلا يكتمل الإيمان بإنكار واحد منهم، كما لا تكتمل الطاعة بمعصية أحدهم، فالإيمان والطاعة يتوقفان على معرفة جميع الأئمة وإطاعتهم. دل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنكرهم أو أنكر واحداً منهم فقد أنكرني».

الحقيقة الخامسة: أن مكانة الأئمة عليهم السلام في الوجود ليست مكانة اعتبارية، بل حقيقية واقعية عليها يدور نظام الكون في أصله وفي خصوصياته؛ لأنهم أولياء على الخلق كله ولاية تكوينية بإذن الله وأمره كما عرفته في الفصل السابق. دلت على هذا المعنى العميق باء السببية في قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الرواية الثانية «بهم يمسك الله عز وجل السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبهم يحفظ الله الأرض أن تميد بأهلها» فكما أن الله سبحانه ينبت الزرع عبر الماء والتراب، ويعطي الثمر عبر الأشجار، وينير الأرض عبر الشمس وهكذا، فكذلك جعل الأئمة عليهم السلام واسطة في حفظ السماوات والأرض، وذلك عبر طريقين:

أحدهما: تسخير السماوات والأرض لهم فيكونان طوع إرادتهم وأمرهم ونهيهم فلا يعصيان لهم أمراً.

كما سخر الله سبحانه الريح لسليمان، والحديد لداود، والخلق ومعالجة الأمراض لعيسى عليه السلام، وسخر عرش بلقيس لآصف بن بلخيا فجاء به من سبأ إلى فلسطين، وسخر المطر والموت والرزق للملائكة المدبرات كما دل عليه القرآن في آيات عديدة، كذلك سخر السموات والأرض لمحمد وآل محمد عليهم السلام، سواء وقع تصرفهم فيها بواسطة الدعاء، أو الاسم الأعظم، أو الإرادة بإذن الله سبحانه.

ثانيهما: جعلهم عليهم السلام وسائط الفيض الإلهي، فلا يصل فيض الله إلى مخلوقاته إلاّ بهم وعلى أيديهم بما أنهم أوعية مشيئة الله ومظاهر قدرته وإرادته؛ لما نالوه من مقام القرب منه والطاعة له سبحانه على تفصيل سنأتي إلى بيانه، وقصلناه في بحث مستقل[1]، وهذا ما أكدته رواية علي أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «وبهم نزل القطر، وبهم يخرج بركات الأرض».

الحقيقة السادسة: أن للأئمة عليهم السلام ولاية معنوية على الأشياء، فيتصرفون فيها بالتربية والتزكية، بل فعلهم فيها فعل الله سبحانه وأمرهم أمره تعالى. يستفاد هذا المعنى من قوله صلى الله عليه وآله في الرواية المتقدمة: «بهم يحفظ الله عز وجل دينه، وبهم يعمر بلاده، وبهم يرزق عباده» فإن هذه الفقرة المباركة تتضمن الإشارة إلى الولاية المعنوية فضلاً عن الولاية التكوينية، والمراد بها أن الأئمة عليهم السلام يحفظون الدين بها، وأن الله سبحانه يحفظ دينه بواسطتهم حيث جعلهم أئمة هدى يعلمون الناس الحق، ويهدونهم إلى الصواب، وبواسطتهم تعمر البلاد، ويرزق العباد؛ بداهة أن إصلاح الإنسان في فكره ومعتقده

١ - انظر المظاهر الإلهية: ج١، ص٢٥٩ وما بعدها.

يستلزم إصلاح أعماله وتصرفاته، وهذا الآخر ينتهي إلى إصلاح البلاد، والزيادة في الخير والبركة، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وبهم يخرج بركات الأرض».

الحقيقة السابعة: أن هناك إنكاراً للأئمة ولفضلهم ستقع فيه الأمة، فتجهل قدرهم وتنتهك حرمتهم، وتضيع حقوقهم، وتقصيهم عن خلافتهم، فتفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون منها تضل الطريق وتأتم بغير أولياء الله وأوصيائه فتكون في عداد الأمم الظالمة الضالة، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إلى الله اشكو المنكرين لفضلهم، والمضيعين لحرمتهم بعدي» فالمطلوب من الأمة في مقابل ذلك أمران:

أحدهما: التسليم لأمر رسول الله في الإمامة والإذعان لإرادته ليس في العمل فقط ، بل التسليم القلبي والرضا النفسي؛ لأنه لم ينبع من هوى أو عصبية، بل هو من الله سبحانه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم لابن مسعود كما في الرواية: «إياك أن تجد في نفسك حرجاً مما أقضي» وقال: «ما أنا متكلف ولا ناطق عن الهوى في علي والأئمة من ولده» وذلك لأن التحرج من ذلك أو التفكير به يخرج العبد من ربقة الإيمان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

ثانيهما: تولي الأئمة عليهم السلام والاقتداء بهم، وكذا ولاية أوليائهم والمحبة لهم، وفي المقابل معاداة أعدائهم، فإن مسالمة أوليائهم مسالمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

١ - سورة النساء: الآية ٦٥.

ومسالمة أعدائهم هي محاربة لرسول الله صلى الله عليه وآله، والتي هي الأخرى مسالمة ومحاربة لله عز وجل.

ومن هنا صار التولي والتبري ركنان أساسيان من أركان العقيدة الحقة، فلا يجوز للمؤمن أن يوالي خلفاء النبي ويوالي أعداءهم الذين غصبوهم وظلموهم وجحدوا حقوقهم؛ لأنه صلى الله عليه وآله قال: «أشهد الله أني سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم».

الحقيقة الثامنة: أن الله سبحانه جعل الإمامة محكاً لاختبار الأمة فأعطى الظالمين والغاصبين فرصة في السلطة والقدرة لكي يختبر صدق إيمانهم في تعاملهم مع الأئمة عليهم السلام، كما أعطى المؤمنين فرصة لاختبار ثباتهم وصبرهم على الإيمان والعقيدة الحقة، فلا ينبغي أن يتوهم بأن القوة والسلطة أو الكثرة في برهة من الزمن هي دليل الحقانية، أو أن الاستضعاف والقلة في الناصر الذي نزل على الأئمة فقتلوا وشردوا وسجنوا وعذبوا هم وأتباعهم هو دليل الضعف والوهن، كلا بل لأن الله سبحانه جعل الدنيا دار الاختبار والامتحان، فأعطى لكل طرف فرصته ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فيرتقي الصابر إلى درجة الأولياء، وينحط الظالم إلى الدرك الأسفل من النار.

وهذه الحقيقة التي تحدث عنها النبي صلى الله عليه وآله بقوله لعلي عليه السلام: «يا علي! إن الله تبارك وتعالى قد قضى الفرقة والاختلاف على هذه الأمة» إلى أن قال: «ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة دار القرار» واستشهد بقوله

تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[1] تكشف الستار عن العديد من الأسرار المهمة والأسئلة التي قد تخطر في أذهان البعض:

منها: لماذا لم ينتقم الله سبحانه من أعداء الأئمة الذين قتلوهم وعذبوهم في الدنيا كما هو معروف من سيرتهم عليهم السلام؛ إذ ما منهم إلاّ مسموم أو مقتول.

ومنها: لماذا صبر الإمام علي عليه السلام حينما غصبوا حقه في الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وتحمل ما نزل فيه من الأذى والبلاء؟

ومنها: لماذا أذن الله سبحانه بأن يكون الحكم والسلطة بيد أعدائه وأعداء رسوله وأوليائه ولم يأخذها منهم أو يطردهم منها؛ بل جعل القانون الحاكم على أعمال العباد هو قانون الأسباب والمسببات فلم يتعامل مع أوليائه بالإعجاز أو بالتصرفات الإلهية، كما أن أولياءه الذين يملكون أمر الكون والموجودات مسخرة لهم لم يستعملوا هذه السلطة في معاملة أعدائهم، فلذا استشهد أمير المؤمنين عليه السلام وهو يعلم قاتله، وكان قادراً على الانتقام منه ولكنه لم يفعل، وكذلك الحسن والحسين وسائر الأئمة عليهم السلام، وذلك لأنهم يعلمون قانون الله وحكمته في خلقه وهم لا يخالفون إرادة الله سبحانه ومشيئته قيد أنملة، فيتركون السنن الكونية التي أرادها الله سبحانه أن تكون حاكمة على عالم الدنيا تأخذ مجراها ولو كانت على حساب دمائهم ودماء أبنائهم وأتباعهم.

الحقيقة التاسعة: أن السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة رهينان بولاية الأئمة عليهم السلام واتباعهم، فلا سعادة بدونهم، ولا شقاء بولايتهم، ولذا قال صلى الله عليه وآله

١ – سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

لابن مسعود بعد أن عين الأئمة على المسلمين: «قد جمعت لكم في مقامي هذا ما إن فارقتموه هلكتم، وإن تمسكتم به نجوتم، والسلام على من أتبع الهدى»[١].

ومن الواضح أن التمسك يستدعي مستوى من الالتزام والاتباع أبلغ من مجرد المحبة أو التأثر، وهو الاتباع والانقياد والاعتماد في كل المجالات، وقد أرشد إلى أن هذا الأمر لم ينشأ بلا حكمة، بل لأن في اتباعهم الهدى وملازمة الحق والعلم والمعرفة، فالإمامة لا تخضع إلى موازين الهوى والعصبية والتحزبات الفئوية والقبلية ونحوها، بل تخضع لموازين الكفاءات و المؤهلات الذاتية كالعلم والحق والهدى، ولذا وجه صلى الله عليه وآله الأمة إلى علي عليه السلام وقال: «هو فيكم بمنزلتي فيكم، فقلدوه دينكم، وأطيعوه في جميع أموركم، فإن عنده جميع ما علمني الله تبارك وتعالى من علمه وحكمته»[٢].

الحقيقة العاشرة: أن هذه الحقائق العميقة لم تكن خافية على أكثر الأمة، بل كانت معروفة مشهودة من قبل الأكثر، لاسيما كبار الصحابة والأعيان فيهم، كما تؤكد ذلك رواية سليم بن قيس الهلالي عن حديث علي عليه السلام في حلقة الصحابة التي كان فيها أكثر من مائتي رجل، منهم: سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وعمار، والمقداد، وأبو ذر، وهاشم بن عتبة، وابن عمر، وابن عباس، ومحمد بن أبي بكر، وعبد الله بن جعفر، ومن الأنصار أُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو

١ - كمال الدين: ص٢٦٢؛ ح٨؛ الاحتجاج: ج١، ص٨٩؛ بحار الأنوار: ج٣٦، ص٢٤٧، ح٥٩.
٢ - الغدير: ج١، ص١٦٦.

الهيثم بن التيهان، ومحمد بن سلمة، وقيس بن سعد بن عبادة، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وغيرهم[١].

ونلاحظ أن الصحابة انقسموا فئتين: فئة أطاعت أمر ربها فاتبعت علياً وآل علي عليهم السلام وما قدمت ولا أخرت عنهم أحداً، وفئة أخرى خالفت ذلك وقدمت غيرهم عليهم، وجعلتهم أئمة وقادة، وأقصوا أولياء الله عن مناصبهم.

ومن هنا نشأ التفريق بين المسلمين وصارت الأمة الواحدة فرقاً مختلفة متوزعة في الآراء والمذاهب حتى بلغت سبعمائة مذهب[٢] من مجموع ثلاث وسبعين فرقة. وبهذا نعرف أن توحيد الأمة وإعادتها إلى الحق يتوقف على القبول بالحق وإتباع الأئمة عليهم السلام الذين نصبهم الله ورسوله، فإن كل إصلاح عام يبدأ من القيادة والزعامة ولا حلّ بدونه.

ومن هنا قال الشهرستاني: وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة؛ إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان[٣]، ثم تعرض إلى اختلاف المهاجرين والأنصار فيها منذ رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم اختلاف الصحابة بعضم مع البعض الآخر وخروج جماعة منهم على علي أمير المؤمنين عليه السلام مع أنه مع الحق والحق معه[٤].

١ - انظر كمال الدين: ج١، ص٢٦١، ح٢٥.
٢ - تحفة الأبرار (للطبري): ص٣٩.
٣ - الملل والنحل: ص٢٤.
٤ - الملل والنحل: ص٢٦- ٢٨.

المطلب الثاني: في تعيين أسماء الأئمة عليهم السلام في الكتاب العزيز

وقد عقدناه للإجابة عن سؤال ربما يخطر في بعض الأذهان خلاصته: أن الإمامة إذا كانت بهذه الأهمية الكبيرة في الدين والحياة فلماذا لم يذكرها الباري عز وجل في القرآن وينص على أسماء الأئمة واحداً واحداً، وبه يرتفع النزاع والتخاصم، وتتوحد عقيدة المسلمين وكلمتهم؟

والإجابة عن هذا التساؤل فيها جانبان: نقضي وحلي.

أما الجانب النقضي ففيه جوابان:

الجواب الأول: أن هذا الإشكال لو صح للزم إبطال نظرية الخلفاء أيضاً؛ لأنهم لم يذكروا في القرآن أيضاً، فمن أين قالوا بخلافتهم؟

الجواب الثاني: أنه لو صح للزم إبطال الكثير من أحكام الشريعة؛ لأنها لم تذكر في القرآن مثل تفاصيل أحكام الصلاة والصيام والحج والزكاة التي هي من أركان الإسلام؛ بداهة أن القرآن اكتفى بذكر حكمها في الجملة ولم يبين كيفية فعلها من حيث الأجزاء والشرائط والأوقات ونحوها.

فالإشكال المذكور لو تم لكان سارياً في مختلف جوانب الشريعة، بل و يبطل نظرية المستشكل، فما يقال في الجواب عنه يجاب به عن الإمامة.

وأما الجانب الحلي ففيه أربعة أجوبة:

الجواب الأول: عدم تسليم الدعوى؛ لأن القرآن الكريم نص على أهل البيت عليهم السلام بأسمائهم في آيات عديدة:

منها: ما نص فيه على، اسم رسول الله صلى الله عليه وآله كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾(١) و﴿طه﴾(٢) و﴿إِلْ يَاسِينَ﴾(٣) كما نص على اسم علي أمير المؤمنين عليه السلام ووضعه في مصاف الأنبياء وأولياء الله المقربين إبراهيم وإسحاق ويعقوب حيث عضدهم بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(٤). وقوله (علياً) يقرأ مفعولاً به موصوفاً، و﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ صفته. تقدمت الصفة عليه للإشارة إلى علو رتبته عليهم؛ لرجحان تقديم جهة الكمال والأفضلية في الذكر لإفادة الحصر، وهو متداول كثيراً في لغة العرب، كما يقال في مقام بيان حصر الكمال وعلو الرتبة بشخص، كما يقال مثلاً: (أطع حبيب الله محمداً) و(أقرأ كتاب الله القرآن) وهذه قراءة أهل البيت عليهم السلام وقد تضافرت عنهم عليهم السلام في روايات عديدة(٥).

منها: رواية يونس بن عبد الرحمن قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: إن قوماً طالبوني باسم أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب الله عز وجل فقلت لهم من

---

١ – سورة الفتح: الآية ٢٩.

٢ – سورة طه: الآية ١.

٣ – سورة الصافات: الآية ١٣٠.

٤ – سورة مريم: الآية ٥٠.

٥ – انظر تفسير القمي: ج٢، ص٥١؛ كمال الدين: ص١٣٩، ح٧؛ تأويل الآيات الباهرة: ج١، ص٣٠٤، ح٩.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال: «صدقت هو هكذا»[١].

والرحمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ اسم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله كما ورد عن أئمة الهدى[٢]، ويعضد هذه الآية المباركة قوله تعالى في رد الشيطان الذي تعهد بإغواء الناس بقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾[٣] فإن قوله: ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ يحتمل قراءتين أخريين غير ما عليه رسم القرآن:

الأولى: أن يقرأ بالإضافة فيكون: «هذا صراط علي مستقيم» وهذه القراءة لأهل البيت عليهم السلام [٤]، وهي تتوافق مع سياق الآية؛ لأنها في معرض الحديث عن عباد الله المخلصين الذين يعجز الشيطان عن العبث بهم، ولا شك أن المخلصين من عباده هم محمد وآل محمد وطريقهم هو الذي ينجي من حبائل الشيطان وضلالاته.

الثانية: أن يقرأ على الرفع المنوّن فيكون: «هذا صراطٌ عليٌّ» وهي قراءة أخرى لأهل البيت عليهم السلام وردت عن الصادق عليه السلام، وتبعه فيها جمع من القراء والمفسرين[٥]، فتفيد اتحاد المبتدأ والخبر نظير قولهم: (هذا رسولٌ محمدٌ) و (ذلك كتابٌ قرآنٌ) وعليه تكون الآية قد وصفت علياً بالصراط، ويتناسب

---

١ – تأويل الآيات الباهرة: ج١، ص٣٠٤، ح١٠؛ بحار الأنور: ج٣٦، ص٥٧، ح٣.
٢ – تفسير القمي: ج٢، ص٥١؛ تفسير كنز الدقائق: ج٨، ص٢٣٣.
٣ – سورة الحجر: الآية ٤١-٤٢.
٤ – انظر تفسير العياشي: ج٢، ص٢٤٢، ح١٥.
٥ – انظر مجمع البيان: ج٦، ص١١٦؛ تفسير كنز الدقائق: ج٧، ص١٢١؛ تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٢٠، ح٥٣.

الوصف مع مقامه ورتبته؛ لأنه طريق الهداية والإمام الحجة الذي يوصل إلى الحق، وهي صفة الصراط أيضاً، وهذا ما يتطابق مع قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

ومنها: ما نص فيه على اسم فاطمةعليها السلام أي الكوثر، وهو اسم علم لها؛ لأنها امتداد النبيصلى الله عليه وآله ومظهر خيراته وبركاته في الوجود؛ لأنهصلى الله عليه وآله حفظ بين الناس بأولاده وذريته من فاطمة الذين مثلوه في حقيقته الجسدية والمعنوية؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[2] ولا يستقيم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ إلاّ بما ذكرنا، وأما تفسير الكوثر بمعناه اللغوي كالخير الكثير أو النهر في الجنة[3] فلا يتناسب مع قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ كما قد لا يخفى على من له خبرة بلغة العرب وموارد استعمالاتهم، التي بها نزل القرآن الكريم؛ إذا لا تناسب بين الكوثر بمعنى الخير الكثير مع رميه بالبتر وانقطاع النسل حتى يمنّ عليه به بخلاف الكوثر بمعنى فاطمة فإنه يتناسب مع مقام الامتنان والرد على شانئه الذي رماه بالابتر.

فحمل الكوثر على الخير الكثير ونحوه يستلزم إخراج الخطاب الإلهي عن السياق الصحيح؛ لأنه من قبيل إقحام موضوع في موضوع آخر أجنبي عنه،

١ - سورة الأنعام: الآية ١٥٣.
٢ - سورة الكوثر: الآيات ١-٣.
٣ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥٩؛ الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص٤٤٢- ٤٤٣؛ روح المعاني: ج٣٠، ص٦٦٠- ٦٦١.

ويعزز ذلك شاهدان:

الشاهد الأول: أمره بالصلاة ورفع اليدين إلى المنحر في تكبيرها الوارد في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فإن فيه مزيد الخضوع والاستكانة والتزين للصلاة كما في الأخبار، كما يتناسب مع تفسير الكوثر بالذرية الطيبة[١]، لأن فيها امتداده المادي والمعنوي وكفاية الشانئ وقطع نسله ومحو ذكره[٢] لما فيه من ضرر على الدين وشر على الناس وهما نعمتان عظيمتان بهما تتم غايات البعثة وغرض الرسالة يستحقان مزيد الشكر والخضوع؛ بالصلاة لأن الأول يديمها بقاءً، والثاني يكف أيدي الأعداء عنها.

الشاهد الثاني: إن تفسير الكوثر بالخير الكثير مبتلى بالمانع؛ لمنافاته للحكمة؛ لأن الامتنان عليه صلى الله عليه وآله بالخير الكثير أو النهر في الجنة كعطاء إلهي لرسول الله صلى الله عليه وآله أمر مفروغ منه؛ إذ لا شك في أنه أعلى مكانة ورتبة من كل ما خلق، وقد أعطاه الله بما هو أسمى وأشرف من هذين، فبشارته بهما يكون من قبيل الإخبار بالأمر المعلوم، وعليه فالذي تقتضيه اللغة ودلالة الاقتضاء في الآية لتنزيه كلام الحكيم من اللغوية هو حمل الكوثر على أنه اسم علم للصديقة الطاهرة[٣] عليها السلام وإن كان داعي التسمية هو مناسبة اسمها للخير الكثير، كما يسمي الرجل ولده شاكراً أو عادلاً ونحوهما ويريد به العلمية والصفة معاً.

وبهذا نجمع بين الروايات العديدة التي فسرت الكوثر بالمعنى اللغوي

---

١ - انظر تفسير كنز الدقائق: ج١٤، ص٥٣٦، تفسير السورة المباركة.

٢ - انظر تفسير القمي: ج٢، ص٤٤٥؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٤، ص٥٣٧، تفسير السورة المباركة.

٣ - انظر تفسير الأمثل: ج٢٠، ص٣٨٧؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٥، ص٧٤٤، تفسير السورة المباركة.

وبما ورد عن أئمة الهدى عليهم السلام في تفسيره بفاطمة عليها السلام، فإن فاطمة عليها السلام كوثر في الاسم وكوثر في الصفة والأثر، كما أنها مستودع سر النبوة والإمامة، وبها قوام الدين الذي يحيه أولادها الأئمة عليهم السلام إلى يوم القيامة، وهي مصدر بقاء نسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا يحصى عدده في كل زمان ومكان[١].

وهذا ما يتناسب مع شأن نزول السورة وسياقها الوارد جواباً للشامتين به صلى الله عليه وآله وسلم بأنه أبتر؛ إذ روي أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي لما رأى رسول الله يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاص قالوا: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتر، فسمته قريش عند موت ابنه أبتر[٢]، وقد سموه بذلك طعناً وامتهاناً؛ إذ كانوا يقولون إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا عقب له يموت فنستريح منه، ويدرس دينه؛ إذ لا يقوم مقامه من يدعو إلى الله فينقطع أمره[٣]، إلّا أن حكمة الله سبحانه ووعده الحق وآياته الظاهرة في أوليائه كشفت عن العكس، فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من أعدائهم من بني أمية وبني العباس في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم، كما ذكره الفخر الرازي في تفسيره[٤].

---

١ - روح المعاني: ج٣٠، ص٦٦١-٦٦٢؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٦٩، (كثر).
٢ - مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥٩؛ وانظر تفسير القمي: ج٢، ص٤٤٥.
٣ - مجمع البيان: ج١٠، ص٤٦٠؛ الاحتجاج: ج١، ص٣٥.
٤ - انظر تفسير الرازي: ج١١، ص١١٥، تفسير الآية المباركة.

والخلاصة: أن الكوثر اسم لفاطمة عليها السلام أسماها الله سبحانه به؛ إذ منّ على رسوله بوجودها المبارك الذي صيره مصدر الخير والبركة في الوجود وامتداد النبوة والإمامة بشكلهما الظاهر المتجسد في أولادها المعصومين عليهم السلام، وبجوهرهما الرباني المتجسد في مقاماتهم المعنوية ومكانتهم الإلهية في الوجود كهداة وحجج وأئمة على الخلق أجمعين.

وحينئذ يجمع بين هذا المعنى والمعاني الأخرى للكوثر التي وردت بها الروايات المباركة بأحد وجوه ثلاثة:

الأول: أن نحمل الكوثر على أنه موضوع كاسم علم للصديقة الطاهرة والمعاني الأخرى آثار لهذه التسمية؛ إذ لا شك في أن دخول الجنة والوصول إلى نهرها أو إلى حوض الكوثر والانتهال منه – هذه كلها – من آثار بركات فاطمة عليها السلام والإيمان بها وبأولادها المعصومين عليهم السلام كما عرفت تفصيله.

الثاني: أن نحمل التسمية على أنه مشترك لفظي وضع مرة كاسم علم وأخرى للخير الكثير.

الثالث: أن نقول بأن الكوثر وضع للخير الكثير، وحينئذ يكون انطباقه على الصديقة الكبرى يكون من باب أظهر المصاديق وأكملها، وعليه فلا يمنع أن ينطبق هذا العنوان على نهر الجنة والحوض ونحوهما كما ينطبق على معنى الإسلام والقرآن وغيرها من المعاني العديدة التي ذكرت له[1].

---

١ – انظر تفاصيل الأقوال في تفسير الرازي: ج١١، ص١١٤-١١٩؛ تفسير الأمثل: ج٢٠، ص٣٨٧، تفسير السورة المباركة.

وقد ورد عن جماعة أنهم فسروا الكوثر بجميع نعم الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم[١]، وهو ينطبق على ما ذكرنا، وعلى كل تقدير فإن اسم الكوثر بأي واحد من هذه الصيغ أخذناه فإنه يدل على ذكر الصديقة الطاهرة فاطمة عليها السلام في القرآن في مقام تعزيز مكانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والدفاع عنه في مقابل أعدائه والحفاظ على وجوده الجسمي والروحي إلى يوم القيامة، وهذه آية بينة لمن تحرى الحقيقة يتوصل من خلالها إلى مكانة الزهراء وأولادها في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الإسلام.

ومنها: آية التطهير التي نصت على أن أهل البيت عليهم السلام طاهرون مطهرون من كل نقص وخلل في أرواحهم وأبدانهم، وأهل البيت اسم جمع وهو علم أطلق على أهل بيت النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بالوضع التعييني أو التعيني، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين، وكان مشهوراً بين الصحابة والمسلمين[٢]، بل أجمع عليه علماء الإسلام كافة[٣]؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٤] ومن الواضح أن صفة الطهارة المعنوية والمادية ملازمة للعصمة، وهي لا تناسب إلاّ مقام النبوة والإمامة على الخلق كما هو واضح[٥].

---

١ – انظر تفسير الرازي: ج١١، ص١١٩.
٢ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٦،(أهل).
٣ – انظر مجمع البيان: ج٨، ص١٥٦؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٧، ص٤٨٤؛ روح المعاني: ج٢١، ص٢٦٨، تفسير الآية المزبورة.
٤ – سورة الأحزاب: الآية٣٣.
٥ – انظر الروايات الواردة في هذا الشأن في تفسير كنز الدقائق: ج١٠، ص٣٧٦ وما بعدها.

ومنها: آية آل ياسين؛ إذ قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾[١] فإن القراءة المشهورة بين المسلمين هي قراءة أهل البيت عليهم السلام، وهي بمد الألف وليس بكسرها[٢]، والمراد من آل ياسين بإجماع المسلمين هم أهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم علي وفاطمة والحسنين والعترة من ذرية الحسين؛ لأن ياسين اسمه وآله أهله كما تضافرت الأخبار به[٣] وعن ابن عباس في بيان معنى الآية قال: السلام من رب العالمين على محمد وآله، والسلامة لمن تولاهم في القيامة[٤].

وفي رواية الاحتجاج عن علي عليه السلام في بيان وجه مجيء الآية بلفظ ﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾ بينما أرادت (آل ياسين) قال عليه السلام: «إن الله سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الاسم حيث قال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[٥] لعلمه بأنهم يسقطون قوله: سلام على آل محمد كما أسقطوا غيره»[٦].

والغرض من ذلك ظاهر، ولا مانع من حمل (إل) على إلياس النبي، وحينئذ يحمل آل ياسين على التأويل أو على استعمال اللفظ في أكثر من معنى، لاسيما مع توفر القرينة[٧].

ولعل حكمة التعبير بإل بدلاً عن آل تعود إلى جهة الخصوصية أيضاً، فإن

١ – سورة الصافات: الآية ١٣٠.
٢ – تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص١٦٠؛ مجمع البيان: ج٨، ص٣٢٨.
٣ – انظر معاني الأخبار: ص١٢٢، ح٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ص١٨٥، ح١؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٤٤٨– ٤٥١، الأحاديث ١– ١٢.
٤ – معاني الأخبار: ص١٢٢، ح١.
٥ – سورة يس: الآية ١–٣.
٦ – الاحتجاج: ص٢٥٣.
٧ – انظرتفسير تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٩٦، تفسير الآية المزبورة.

إل يدل على مزيد القرب والخصوصية بالقياس إلى آل؛ لأن الآل يطلق على مطلق الأقرباء، بخلاف إل فأنه لا يطلق إلاّ على أخص الأقرباء[1] فيكون أقوى دلالة على المطلوب.

والحاصل: أن الآيات المباركة ذكرت أسماء علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وأكدت على مقاماتهم الربانية عند الله سبحانه، وشهدت لهم بالعصمة والبركة والهداية إلى الحق، وهي في نفسها كافيه لمن يتحرى الحقيقة بحيادية.

الجواب الثاني: لو سلّمنا ـ جدلاً ـ أن القرآن لم ينص على الأئمة عليهم السلام بأسمائهم، فإن مما لا خلاف فيه بين المسلمين أنه ذكرهم بأوصافهم وخصوصياتهم، وذكر الشيء بأوصافه وخصوصياته أبلغ من ذكر اسمه وأجمل، ولذا اشتهر القول بأن الكناية أبلغ من التصريح، لا سيما وأن الأوصاف التي ذكرها القرآن كانت في محضر الصحابة، ومشاهدتهم لها شهود عين ووجدان لا حدس وبرهان، فما كان يخفى على أحد منهم مدلولها، كما عرفته من آيات الولاية والتصدق بالخاتم وكمال الدين، وتبليغ الرسالة، وإنذار العشيرة الأقربين، والمبيت على الفراش، وسورة الدهر وآية التطهير وآية المودة وغيرها مما هو كثير ومعروف بين المسلمين، بل قال ابن عباس: نزل في علي وحده ثلاثمائة آية[2]، وقال غيره: نزل فيهم ربع القرآن[3]، وقال

---

١ - انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٣١٤، (أهل).

٢ - المراجعات: ص١٠٠- ١٠١؛ الصواعق المحرقة: ص٧٦؛ كفاية الطالب(للكنجي الشافعي): ص٢٣١؛ ينابيع المودة: ص١٢٦.

٣ - شواهد التنزيل(للحسكاني): ج١، ص٤٤-٤٧؛ مناقب علي بن أبي طالب(لابن المغازلي): ص٣٢٨، ح٣٧٥؛ ينابيع المودة: ص١٢٦.

آخر: ثلث القرآن(١)، وفي الأخبار نصف القرآن وأكثر(٢).

وفي كل ذلك وردت روايات متضافرة، فالقول بالربع استند إلى رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال: «إن القرآن أربعة أرباع: ربع فينا أهل البيت خاصة، وربع حلال، وربع حرام، وربع فرائض وأحكام، والله أنزل فينا كرائم القرآن»(٣).

والقول بالثلث مستند إلى مثل رواية الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «نزل القرآن أثلاثاً: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام»(٤).

وهكذا القول بالنصف(٥)، وهناك أكثر من صيغة للجمع بين مداليل هذه الأخبار لا يسع المجال لذكرها هنا، ونكتفي بالقدر الذي تتفق عليه الأمة، وهي أن أهل البيت عليهم السلام ذكروا في القرآن وذكرت أوصافهم وخصوصياتهم، ولذا قال أبو جعفر عليه السلام كما في رواية محمد بن مسلم: « يا محمد! إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الأمة بخير فهم نحن، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهو عدونا»(٦).

١ - الكافي: ج٨، ص٤٠١، الحاشية رقم ٢.
٢ - انظر تفسير العياشي: ج١، ص١٠؛ بحار الأنوار: ج٨٩، ص١١٥، ح٤.
٣ - مناقب علي بن أبي طالب(لابن المغازلي): ص٣٢٨، ح٣٧٥؛ انظر تفسير البرهان: ج١، ص٥٤، ح٨.
٤ - الكافي: ج٢، ص٦٢٧، ح٢.
٥ - انظر تفسير البرهان: ج١، ص٥٧، ح١٠، ح١١.
٦ - تفسير العياشي: ج١، ص٢٥-٢٦، ح١-٦.

وحينئذ لا بد وأن تحمل الآيات التي ذكرت الأنبياء والصالحين على وحدة الطريق والهدف، فيكون تفسيرها بهم من باب المصداق لا الحصر، وهذه مسألة هامة كفيلة بإزالة الكثير من الغموض والشك عن الأذهان، ومن هنا جاء في رواية ابن مسكان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتنكب الفتن»[١] وفي رواية داود بن فرقد عن الصادق عليه السلام: «لو قرئ القرآن كما أنزل لألفيتنا فيه مسمّين»[٢] أي من دون تأويل أو تلاعب بصرف دلالات الآيات عن ظهورها، أو تفسير شكل القراءات لا نقص العبارات كما هو واضح.

ويكفي المتحري عن الحقيقة في هذا حديث الثقلين الذي تواتر بطرق الفريقين الدال على ملازمة القرآن للعترة وعدم انفكاكهما إلى يوم القيامة، وحيث إن العترة لا تنطبق إلاّ على علي وأولاده عليهم السلام يكون أقوى دلالة من التصريح بأسمائهم، بل إن التصريح بأسمائهم مع انحصار المعنى فيهم ممتنع في الحكمة لاستلزامه توضيح الواضح.

وأيضاً الأحاديث الدالة بالنص الصريح على أن علياً مع القرآن والقرآن مع علي وهما لا يفترقان أبداً دليل آخر، وقد مرت عليك بعض نصوص الأحاديث فلا نعيد[٣].

وقد وردت بطرقنا أحاديث كثيرة جداً عن العترة الطاهرة ذكر العلامة البحراني ثلاثة وثلاثين حديثاً منها في تفسير البرهان تعزز هذه الحقيقة،

١ - تفسير العياشي: ج١، ص٢٥-٢٦، ح١-٦.
٢ - تفسير العياشي: ج١، ص٢٥-٢٦، ح١-٦.
٣ - انظر تفاصيل ذلك في كتاب المراجعات: ص٢٥ وما بعدها، المراجعة(٨).

ونكتفي بذكر اثنين منها:

الأول: حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعلي بن أبي طالب عليه السلام واعلموا أن علياً لكم أفضل من كتاب الله؛ لأنه مترجم لكم عن كتاب الله تعالى»[1].

الثاني: ما رواه أبو جعفر الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف نص فيها على ولاية علي والأئمة من ولده عليهم السلام قال فيها: «معاشر الناس! إن علياً والطيبين من ولدي هم الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، وكل واحد منهما مبيّن عن صاحبه موافق له لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض بأمر الله في خلقه، وبحكمه على أرضه، ألا وإن الله عزّ وجل قاله وأنا قلته عن الله عزّ وجل، ألا وقد أديت، ألا وقد بلغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، ألا وإنه ليس أمير المؤمنين غير أخي هذا، ولا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره»[2].

هذا وقد صنف جمع كبير من العلماء كتباً عديدة في الآيات النازلة في علي وأولاده عليهم السلام بطرق الفريقين بما يغني المنصف إذا توخى الحقيقة والحيادية العلمية، وفيها ما يثبّت القدم، ويشفي الغليل في هذا المجال[3].

الجواب الثالث: أن القرآن أمر الناس باتباع النبي صلى الله عليه وآله فيما يأمر وينهى،

١ – مائة منقبة: ص١٦١؛ وانظر تفسير البرهان: ج١، ص٣٣، ح٣٢.
٢ – روضة الواعظين: ص١٠٢؛ تفسير البرهان: ج١، ص٣٣-٣٤، ح٣٣.
٣ - من باب النموذج انظر تأويل الآيات الطاهرة للسيد علي الحسيني الاسترابادي؛ تفسير نور الثقلين للشيخ عبد علي العروسي الحويزي؛ تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني ؛ علي في القرآن وأهل البيت في القرآن للمرجع السيد صادق الشيرازي دام ظله.

وحرم عليهم مخالفته؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[٢] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وعلى هذا فإنه يكفي للتصديق بإمامة علي وأولاده عليهم السلام هو تنصيب النبي صلى الله عليه وآله وتعيينه خليفة وحاكماً على المسلمين من بعده. وهذا ما قد اتفقت عليه أمة الإسلام؛ لتواتر النقل بطرق كثيرة على أن النبي نص على علي بإمرة المؤمنين وبوراثة النبي صلى الله عليه وآله وخلافته والوصاية عنه، وأمر الناس بمحبته وإطاعته، وحرم عليهم مخالفته.

والإنسان المؤمن يؤمن بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله برمته من دون تفريق بين أمر وآخر وحكم وآخر، وكما قبل المسلمون من النبي صلى الله عليه وآله أحكامهم في الصلاة والصيام والحج وأخذ تفاصيلها منه، وقبلوا منه إخباره عن المعاد والقيامة والجنة والنار يجب أن يقبلوا منه ما ورد في أمر الإمامة والخلافة، وعليه فحتى لو فرضنا جدلاً أن القرآن لم ينص على إمامة علي وأولاده فإنه يكفي لمن رام الحقيقة تنصيص النبي صلى الله عليه وآله عليه، وقد اتفق المسلمون على أن الذي يفكك في أوامر النبي وسنته بين أمر وآخر لا يعد مؤمناً بالنبي أو مؤمناً بالإسلام.

الجواب الرابع: لو فرضنا أن القرآن لم يذكرهم حتى في الكناية فإن عدم الذكر لا يساوق الإنكار، كما لا يستلزم ثبوت إمامة غيرهم، وذلك لأن المتكلم قد يكتفي بالاشارة ويسكت عن ذكر تفصيل الشيء لأجل وجود

١ - سورة الحشر: الآية ٧.

٢ - سورة التغابن: الآية ١٢.

٣ - سورة النساء: الآية ٨٠.

المانع منه، بخلاف عدم الذكر فأنه يكشف عن عدم وجود المقتضي له، وهذه من القواعد البلاغية التي تقوم عليها المحاورات العقلائية في مختلف جوانب الحياة.

ولذا أسسوا قواعد لإطلاق الكلام، وأخرى لإجماله، وثالثة لمعالجة الإجمال وهكذا، وذلك لأنهم قد يجدون أن المتكلم سكت عن بيان بعض ما يريده في كلامه لأجل مصالح تقتضيها الحكمة.

وهذه القاعدة تكفي للإجابة عن السؤال المذكور؛ إذ إن القرآن الكريم ربما لم يذكر أسماء أهل البيت عليهم السلام بالصراحة لوجود مصالح تقتضي ذلك:

المصلحة الأولى: وضوح الأمر، فإن إمامتهم عليهم السلام كانت معروفة لدى جميع المسلمين فلا يشك فيها أحد من جهة تنصيص النبي صلى الله عليه وآله أو الإذعان لأفضليتهم على جميع الصحابة من حيث العلم والدين والاخلاق والعصمة وغيرها من فضائل صرح الجميع بأنها ثابتة لهم لا لغيرهم، فأمر إمامتهم على الخلق وحاجة الخلق إليهم في جميع شؤون الدين والدنيا كانت من الأمور الواضحة التي لا تخفى على أحد من المسلمين بما لا تبقى معه حاجة إلى التنصيص على إمامتهم بالأسماء الصريحة، بل إن التصريح بأسمائهم مع هذا الوضوح والظهور يكون من قبيل توضيح الواضح الذي يتنزه عنه كلام الحكيم.

المصلحة الثانية: الامتحان والاختبار؛ إذ إن من سنن الله سبحانه في خلقه سنّة الامتحان والاختبار، ولعل من أصعب الامتحانات وأهمها التي مرت في تاريخ الأمة الإسلامية هو الامتحان بالإمامة والخلافة؛ لأنه المحك الذي

ميّز المؤمنين الصادقين من غيرهم؛ لما فيه من رغبات ودواع تتطلع إليها النفوس؛ بداهة أن حب الرئاسة هو آخر ما يخرج من قلوب بني آدم كما يقول علماء الأخلاق، فلولا أن يمتحن العباد بذلك ويتميز لوقعت الأمة في تيه وضلال كبير بسبب عدم تمييز الحق من الباطل، ولعلها كانت تقتدي بالمنافقين واتباع الهوى والشيطان، وتتخذهم أئمة فتضل في الدنيا وتعذب في الآخرة. هذا من جهة، ولبطلت الحجة الإلهية على العباد في الآخرة فحتى تكون حجة الله دامغة يوم القيامة في بيان مقامات الناس وثوابهم وعقابهم لابد وأن يعرضوا جميعاً إلى الامتحان، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] والآية تتضمن دلالات هامة على المطلوب:

الدلالة الأولى: سنّة الامتحان، فإنه سبحانه بدل القبلة التي كان المسلمون يصلون إليها وهي بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة لأجل غاية واحدة فقط، وهي امتحانهم وتمييز مطيعهم من عاصيهم كما يفيده الاثبات بعد النفي وهو قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ والمقصود بالعلم هنا ليس معناه الحقيقي؛ لأن علمه سبحانه عين ذاته، فهو أزلي قديم فلا تجدد فيه ولا حدوث، وإنما المراد ترتيب أثر العلم وهو الحجة، فإن حجة الله سبحانه على الأمة في الطاعة والعصيان تتم

١ – سورة البقرة: الآية ١٤٣.

بالاتباع للنبي أو الانقلاب عليه.

الدلالة الثانية: أن هذه الآية تشير إلى التوافق المضموني مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[١] لأن الآيتين تشيران إلى امتحان الأمة وتمييز مؤمنها من غير المؤمن بتحويل القبلة في حياة النبي وبالإمامة بعد وفاة النبي.

وتوضيح ذلك: أن المراد من الأمة الوسط هم آل محمد عليهم السلام لا جميع الأمة؛ لوضوح أن الوسطية هنا تعني الاعتدال في مقابل الإفراط والتفريط[٢] اللذين يبتلى بهما الناس في شتى أمورهم الدينية والدنيوية، والوجدان والبرهان يشهدان بأن غير المعصوم غالباً ما يخرج عن الوسطية والاعتدال في أموره، ويكفيه أنه معرض لارتكاب الأخطاء والذنوب والافراط والتفريط، فتختص دلالة الآية بالمعصومين عليهم السلام، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام لاتفاق الأمة على أن لا معصوم سواهم، وهذا ما تؤكده الروايات الواردة بطرق الفريقين.

ففي رواية بريد العجلي عن الباقر عليه السلام: «نحن الأمة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه، وحججه في أرضه»[٣].

وروى الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله إيانا عنى بقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟

١ - سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

٢ - انظر مجمع البيان: ج١، ص٤١٦.

٣ - الكافي: ج٢، ص١٩١، ح٤.

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ فرسول الله شاهد علينا، ونحن شهداء الله على خلقه، وحجته في أرضه، ونحن الذين قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾»[١].

وهذا ما يقضي به العقل أيضاً، فإن الذي لا يقبل الله شهادته على صاع من تمر أو دينار أو درهم في الدنيا كيف يقبل شهادته في الآخرة على الأمم الأخرى من حيث معتقداتها وأعمالها كما أرشدت إليه الأخبار الشريفة عن الصادق عليه السلام[٢]؟

وبذلك نستنتج عدم صحة قول بعض المفسرين بأن المراد من الأمة عموم الأمة المسلمة[٣]، وذلك لأنها من حيث أفرادها غير منزهة عن الإفراط والتفريط، فالأمة بما هي بشر لا تتصف بالوسطية المذكورة، ولو وصفت بالوسطية فبلحاظ وجود بعض أفرادها كذلك، فتكون التسمية بالأمة من باب إطلاق لفظ العام على الخاص وهو كثير الاستعمال في لغة العرب وفي آيات الذكر الحكيم[٤].

ووجه بطلان هذا الرأي هو معارضته بالآيات الكثيرة التي ذمت الأكثرية،

١ - شواهد التنزيل: ج١، ص١١٩؛ انظر مجمع البيان: ج١، ص٤١٧، تفسير الآية المزبورة.

٢ - انظر تفسير العياشي: ج١، ص٦٣، ح١١٤ من سورة البقرة؛ المناقب (لابن شهر اشوب): ج٣، ص٣١٤؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص١٦٧، ح٤٠٩، ح٤١١.

٣ - تفسير القرطبي: ج١، ص٥٥٧، تفسير الآية المزبورة؛ وانظر مواهب الرحمن: ج٢، ص٨٨، تفسير الآية المباركة.

٤ - كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ النساء/ ١٥، فإن الإطلاق عام يشمل جميع المسلمين إلاّ أن المقصود به الحكام والقضاة.

ووصفتهم بأنهم: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾[١] و: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢] و: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾[٣] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[٤] وأنهم وقعوا في الفتنة، وعصوا الله والرسول إلى آخره من آيات وصفت أكثر الأمة بالأوصاف التي تتنافى مع الوسطية والاعتدال. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن منطوق الآية صريح في أن الأمة الوسط هي التي تحظى بمقام الشهادة على الناس، ولا يعقل أن تكون كل الأمة بما فيها الفاسق والمرتد والمنافق شهداء على الناس؛ بداهة أن الذي يحظى بمقام الشهادة هو الذي يليق في أن يكون شاهداً وميزاناً للحق والباطل، وليس ذلك إلاّ المعصوم.

الدلالة الثالثة: أن الآية المباركة حددت الغاية من تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة، وهي امتحان الأمة واختبارها، والغاية هي معرفة الذي يؤمن ويذعن لفعل الله ورسوله وتمييزه عن المرتد والمنافق اللذين ينقلبان على عقبيهما تمرداً وعصياناً، وفي عين الحال جعلت تحديد هذه الغاية في سياق وصف الأمة بالوسطية والشهادة الذي هو من مختصات الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فيدلنا على وجود شباهة كبيرة بين القبلة وبين الإمام من عترة النبي صلى الله عليه وآله، وهذه الشباهة تتلخص في أمرين:

أحدهما: أن القبلة تؤم في الصلاة والعبادة، وبها تتوحد غايات المسلمين،

١ - سورة المائدة: الآية ٥٨.
٢ - سورة يونس: الآية ٥٥.
٣ - سورة يونس: الآية ٦٠
٤ - سورة الزخرف: الآية ٧٨.

وعليها تجتمع كلمتهم، فكذلك الإمام فإنه يؤم ويقصد في أخذ الأحكام والعبادات، وبه تتوحد كلمة الأمة على التقوى، وهذا ما أكدته النصوص المتواترة عن النبيﷺ في أحاديث الثقلين والمنزلة والولاية وغيرها على ما عرفته مما تقدم.

ثانيهما: أن استقبال الكعبة جاء في الرتبة الثانية بعد بيت المقدس، وهي لا تلغي قدسية القبلة الأولى، بل جاءت في امتدادها، فإن توجه العبد إلى بيت المقدس أو توجه إلى القبلة لا يضر الله شيئاً؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1] إلّا أنه سبحانه أراد أن يختبر طاعة الأمة من معصيتها فغير وجهتهم إلى الكعبة؛ لأن هوى أهل المدينة كان إلى بيت المقدس لا إلى الكعبة، وكان من الكبير عليهم مخالفة هواهم، كما أن هوى أهل مكة كان إلى الكعبة فأمرهم قبل ذلك بالتوجه إلى بيت المقدس، وكان من الكبير عليهم مخالفة هواهم[2].

وبهذا التحويل وقع الاختبار والامتحان، ولذا قال سبحانه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾[3] فالذين اهتدوا يطيعون الله ورسوله ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من حكمهم وقضائهم، وأما ضعاف الإيمان أو غير المؤمنين فيصعب عليهم ذلك، وهذه الخصوصيات ذاتها تنطبق على الإمام بعد رسول اللهﷺ، فإن

١ - سورة البقرة: الآية ١١٥.

٢ - انظر تفصيل ذلك في كتاب الاحتجاج: ج١، ص٨٦؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص١٦٧، ح٤١٢؛ تفسير القرطبي: ج١، ص٥٦٠، تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

٣ - سورة البقرة: الآية ١٤٣.

الله سبحانه امتحن الأمة بالإمام حيث حول وجهتهم إليه، وأمرهم باتباعه والانقياد إليه؛ لأنه امتداد للنبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ومظهر من مظاهره وخليفة عنه؛ ليتبين المؤمن منهم من غير المؤمن.

وتشهد لهذا المعنى الروايات الكثيرة الواردة بطرق الفريقين:

منها: ما روي في الاستنصار عن ابن شاذان عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله يقول: «معاشر الناس! اعلموا أن لله تعالى باباً من دخله أمن من النار ومن الفزع الأكبر» فقام إليه أبو سعيد الخدري فقال: يا رسول الله! أهدنا إلى هذا الباب حتى نعرفه، فقال: «هو علي بن أبي طالب سيد الوصيين، وأمير المؤمنين، وأخو رسول ربّ العالمين، وخليفته على الناس أجمعين. معاشر الناس! من أحب أن يستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها فليتمسك بولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإن ولايته ولايتي، وطاعته طاعتي. معاشر الناس! من سرّه أن يتولى ولاية الله فليقتد بعلي بن أبي طالب والأئمة من ذريتي فإنهم خزّان علمي» فقام جابر بن عبد الله الأنصاري فقال: يا رسول الله! فما عدة الأئمة؟ فقال: «يا جابر! سألتني رحمك الله عن الإسلام بأجمعه، عدتهم عدة الشهور وهي اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، وعدتهم عدة العيون التي انفجرت لموسى بن عمران‌عليه‌السلام حين ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه أثنتا عشرة عيناً، وعدتهم عدة نقباء بني إسرائيل. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[1] فالأئمة يا جابر عدتهم اثنا

١ - سورة المائدة: الآية ١٢.

عشر أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم القائم صلوات الله عليهم»[١].

والحديث صريح في أن مقام الإمامة ليس من المقامات السياسية التي يرجع أمره إلى اختيار الأمة، بل هو مقام تكويني وتشريعي يختاره الباري تبارك وتعالى كما يشهد له التشبيه بعدة الشهور والعيون التي انفجرت لموسى ونقباء بني إسرائيل الذين بعثهم الله هداة إليهم.

المصلحة الثالثة: وجود المانع، فإن الله سبحانه تكفل بحفظ كتابه من التحريف؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢] وله في الحفظ طريقان:

أحدهما: التكفل بجمعه بألفاظه وقراءته وبيانه بما يحول دون مخالطة غيره له، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٣] فإنها دالة على أن جمع القرآن وقراءته وبيان معانيه الواقعية ترجع إلى الله لا إلى الناس، وبها تبطل نظرية جمع القرآن التي قال بها العامة، كما تبطل القراءات السبعة.

ثانيهما: رفع الدواعي التي تختلج في نفوس أهل البدع والضلالة للتحريف.

وتوضيح ذلك: أن سنّة الله سبحانه في إيجاد الأشياء وإعدامها جرت على قانون السببية لا الإعجاز كما ورد في الحديث: «أبى الله أن يجري الأشياء

١ - الاستنصار: ص٢٠-٢١؛ التحصين: ص٥٧٠؛ غاية المرام: ص٢٤٤، ح٢.
٢ - سورة الحجر: الآية ٩.
٣ - سورة القيامة: الآيات ١٧- ١٩.

إلاّ بالأسباب»[١] وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾[٢] وعليه فلأجل أن يحفظ الباري كتابه من التحريف لابد وأن يهيئ الأسباب المانعة منه، ومن الأسباب رفع دواعي التحريف، فإن في علم الله سبحانه أن قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وآله ما آمنوا بالإسلام إلاّ للخوف أو للمصلحة، وكانوا منافقين، وظلوا على نفاقهم إلى آخر أعمارهم كما عرفت من الكثير من الشواهد المتقدمة، بل وصرح به القرآن في آيات عديدة كما عرفته في آية الانقلاب المتقدمة، وآية التشابه والتأويل، حيث يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾[٣].

والإطلاق يشمل كل طائفة من كافر ومنافق وصاحب بدعة باتفاق أكثر المفسرين[٤]، والزيغ هو الانحراف عن الاستقامة[٥] وهو من أمراض القلوب؛ لأنه يميل بها عن الحق.

وآية الارتداد أي قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾[٦] حيث أخبرت عن ارتداد جماعة من

---

١ - مختصر بصائر الدرجات: ص٥٧؛ الفصول المهمة: ج١، ص٦٤٧، وفيه: «إلا بأسباب»؛ مصباح الفقاهة: ج٣، ص٧٩٥.

٢ - سورة الكهف: الآية ٨٩.

٣ - سورة آل عمران: الآية ٧.

٤ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٤١؛ تفسير القرطبي: ج٢، ص٣٩٠، تفسير الآية المزبورة.

٥ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٨٧، (زيغ)؛ مجمع البيان: ج٢، ص٢٤٠، تفسير الآية المزبورة؛ مجمع البحرين: ج٥، ص١٠، (زيغ).

٦ - سورة المائدة: الآية ٥٤.

المؤمنين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما تواتر أمره في روايات الفريقين، واتفق عليه المفسرون[١]، بل صرح القرآن بأن هناك طائفة من المسلمين يشكون في القرآن ذاته ولا يؤمنون به، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٢].

وواضح أن الشك في القرآن يقود صاحبه إلى تحريفه أو إنكاره، وهذا أمر معروف من تصرفات البشر في حالة عدم إيمانهم بالشيء وهو في نفسه يكفي مانعاً لعدم ذكر الأسماء حذراً من إنكار القرآن برمته أو تحريف آياته.

ويعزز هذا المضمون آية المنافقين الذين تآمروا لاغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العقبة، وهم اثنا عشر[٣]، عرفهم رسول الله بأسمائهم وأشخاصهم، وأخبر عنهم الباري عز وجل بقوله: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[٥].

ومن البديهي أن الذين يخططون وينفذون لقتل النبي في شخصه يخططون لقتله في شخصيته المتمثلة بخليفته ووصيه علي عليه السلام، إلى غير ذلك من الآيات البينات والتي تدل بكل وضوح وصراحة على أن هناك قوماً يكفرون برسول

١ - انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٧؛ تفسير القرطبي: ج٣، ص٥٦٨، تفسير الآية المزبورة.
٢ - سورة يونس: الآية ٤٠.
٣ - مجمع البيان: ج٥، ص٩١.
٤ - سورة التوبة: الآية ٦٤.
٥ - سورة التوبة: الآية ٤٨.

الله، ويشكون بكتابه، وكانوا كارهين لتنصيب علي عليه السلام إماماً كما عرفت، فلو كان الباري عز وجل يذكر أسماء الأئمة عليهم السلام في القرآن لكان قد وفر الداعي عند هؤلاء المرتدين والمنافقين للتلاعب بآيات القرآن وتحريفها، وتؤكد هذه الحقيقة شواهد أربعة:

أحدها: إقرار جمع من الصحابة بوقوع التغيير والزيادة والنقيصة في القرآن، وإليه ذهب جمع كبير من علماء العامة كالبخاري ومسلم والترمذي والحاكم وأحمد ومالك والسيوطي وغيرهم[١].

ثانيها: التحريف الذي وقع في ألفاظ القرآن من قبل بعض كُتاب الوحي لولا أن يعصم الله سبحانه الكتاب من محاولاتهم، ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢] فإن الآية تنص على صنفين من الكذابين على القرآن:

الصنف الأول: يدعي الوحي والنبوة كذباً، وهؤلاء معروفون من أمثال مسيلمة والأسود العنسي وسجاح.

والصنف الثاني: يفتري الكذب وينسبه إلى الله ليتوهم الناس أنه قرآن،

---

١ - انظر تفاصيل ذلك في كتاب الإمامة الكبرى والخلافة العظمى (للقزويني): ج١، ص٣٢٠ وما بعد.

٢ - سورة الأنعام: الآية ٩٣.

وكان يقول: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهو عبد الله بن أبي سرح؛ إذ تضافرت الروايات بطرق الفريقين إنه كان يكتب الوحي للنبي‌ﷺ، فكان إذا قال له: أكتب عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً، وإذا قال له: أكتب غفوراً رحيماً كتب عليماً حكيماً، فيقول له النبي‌ﷺ: «هو واحد هو واحد» أي سواء كتبت هذا أو ذاك فإنه لا ينكتب إلاّ ما أنزله الله سبحانه؛ لأن جبرئيل يصلحه، ثم ارتد وهجا النبي‌ﷺ ولحق بالمشركين في مكة، فهدر رسول الله‌ﷺ دمه ولو كان معلقاً بأستار الكعبة، ثم رجع إلى الإسلام في عام الفتح بوساطة من عثمان أخوه في الرضاعة بعد أن غيّبه، ولما أطمأن أتى به إلى النبي‌ﷺ وهو في المسجد فقال: يا رسول الله! أعف عنه، فسكت رسول الله‌ﷺ، ثم أعاد فسكت، ثم أعاد فسكت، فقال: «هو لك»، فلما مر قال رسول الله‌ﷺ لأصحابه: «ألم أقل من رآه فليقتله؟» فقال: عبّاد بن بشر كانت عيني إليك يا رسول الله أن تشير إليّ فأقتله، فقال‌ﷺ: «الأنبياء لا يقتلون بالإشارة»[١] وفي رواية أخرى: «أن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين»[٢].

ثالثها: تحريف معاني القرآن عبر الاجتهادات التي كان يقوم بها بعض الصحابة في مقابل نصوص القرآن، كما حدث في تحريم عمر لمتعة النساء والحج مع أن القرآن نص على الأولى بقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[٣] ونص على الثانية بقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ

١ - مجمع البيان: ج٤، ص١١١-١١٢، تفسير الآية المزبورة؛ انظر بحار الأنوار: ج١٧، ص١٧٩.

٢ - انظر تفسير القرطبي: ج٤، ص٣٧-٣٨، تفسير الآية المزبورة.

٣ - سورة النساء: الآية ٢٤.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[١] وكان المسلمون يتمتعون على عهد رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وكذلك في عهد أبي بكر بالقبضة من التمر والدقيق[٢]، إلّا أن عمر حرمهما وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنا أنهى عنهما، وأعاقب عليهما، متعة الحج ومتعة النساء[٣].

ونلاحظ هنا أنه مع إقراره بحليتهما في عهد رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يجتهد في تحريمهما، ولذا عارضه جمع من الصحابة والتابعين وأولهم علي بن أبي طالب‌عليه‌السلام أعلم الأمة، وكان يقول: «لولا ما سبق من رأي عمر لأمرت بالمتعة ثم ما زنى إلاّ شقي»[٤].

وثانيهم عبد الله بن عباس حبر الأمة، حيث كان يشدد في تحليلها، وكان يقول: ما كانت المتعة إلاّ رحمة من الله تعالى رحم بها أمة محمد‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، ولولا نهيه عنها لما احتاج إلى الزنا إلاّ شفي[٥]، أي القليل.

وأما تحريم الحج فكان من مخالفيه ولده عبد الله، وروي أنه سئل عن متعة الحج قال: هي حلال، فقال له السائل: إن أباك قد نهى عنها، فقال: أرأيت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله أأمر أبي نتبع أم أمر رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم؟

١ - سورة البقرة: الآية ١٩٦؛ وانظر تفسير البيان: ج٢، ص٣٩، تفسير الآية المزبورة.
٢ - انظر صحيح مسلم: ج٤، ص١٣١؛ فتح الباري: ج٩، ص١٧٣؛ السنن الكبرى: ج٧، ص٢٣٧.
٣ - بداية المجتهد: ج١، ص٣٤٦؛ الدر المنثور: ج٢، ص١٤١.
٤ - المصنف (لعبد الرزاق): ج٧، ح١٤٠٢٩.
٥ - أحكام القرآن (للجصاص): ج٢، ص١٤٧.

فقال الرجل: أمر رسول الله ﷺ، قال: لقد صنعها رسول الله ﷺ[١].

ومثل هذا فعل عثمان حيث اجتهد فأجاز نكاح الأختين إذا كانتا ملك يمين وهو خلاف صريح قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[٢] [٣] والشواهد على هذه الاجتهادات كثيرة، وكلها تنم عن أن بعض الصحابة كانوا يجتهدون في الدين والقرآن، وكانوا يدخلون فيهما ما يريدون، أو يخرجون منهما ما يريدون[٤].

رابعها: التحريف الكثير الذي وقع في السنّة المباركة وتوظيفها لخدمة الدنيا والأغراض الأموية وإقصاء الأئمة وجر الأمة إلى فتن الملوك والسلاطين وضلالاتهم حتى تواتر بطرق الفريقين عنه ﷺ: «قد كثرت عليّ الكذابة، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٥].

وروى العقيلي عن حماد بن زيد قال: وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ اثنى عشر ألف حديث[٦]، وروي عن عبد الله بن زيد المقري: أن رجلًا من الخوارج رجع عن بدعته، فجعل يقول: انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه، فإنا كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثاً[٧]، وعن البخاري أنه قال: أحفظ مائة

١ - سنن الترمذي: ج١، ص١٥٧.
٢ - سورة النساء: الآية ٢٣.
٣ - موطأ مالك: ج٢، ص١٨؛ المحلى (لابن حزم): ج٩، ص٥٢٢؛ تفسير القرطبي: ج٥، ص١١٧، تفسير الآية المزبورة.
٤ - راجع في هذا كتاب النص والاجتهاد للسيد شرف الدين العاملي لتجد الكثير من الشواهد.
٥ - الكافي: ج١، ص٦٢، ح١؛ تحف العقول: ص١٩٣؛ وانظر صحيح مسلم: ج١، ص٨.
٦ - ضعفاء العقيلي: ج١، ص١٤؛ الرواشح السماوية: ١٩٦، وفيه: «اربعة عشر ألف حديث»
٧ - انظر شرح الدراية (للشهيد الثاني): ص٥٨؛ الرواشح السماوية: ١٩٦.

ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح[١]، وكان أهم غرض يقف وراء الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله هو غصب الخلافة عن أهل البيت وإقصاء علي وأولاده عليهم السلام عنها، والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة نكتفي ببعض النماذج منها:

النموذج الأول: صحيفة عبد الله بن عمر إذ قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتاب، وذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلاّ حق»[٢] وفي الحديث ثلاث دلالات هامة:

الأولى: أن المراد من (قريش) ليس جميعها، بل بعض وجوهها وزعمائها كما هو المتعارف في أساليب البيان من إطلاق لفظ الشعب أو العشيرة على زعيمها أو وجهها.

---

١ - أضواء على السنّة المحمدية: ص١٤٤ عن تحذير الخواص (للسيوطي)؛ هذا وقد كثرت الأحاديث الموضوعة في كتب العامة، حتى ألف السيوطي، والمغاني، وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم كتباً في التنبيه عليها، وأثبت العلامة الأميني في الغدير سلسلة لبعض الكذابين والوضاعين من رجال الحديث عندهم فبلغوا ستمائة وعشرين شخصاً، كما وضع قائمة للأحاديث الموضوعة والمقلوبة من قبل بعض أولئك الرجال فبلغت ثمانية وتسعين ألف وستمائة وأربعة وثمانين حديثاً، وبالإضافة إلى الأحاديث المتروكة والمسقطة عندهم بلغت أربعمائة وثمانية آلاف وثلاثمائة وأربعة وعشرين حديثاً. انظر الغدير: ج٥، (نظرة التنقيب في الحديث)؛ قواعد الحديث(الغريفي): ص١٣٦ - ١٣٧، الهامش.

٢ - انظر فتح الباري: ج٩، ص١٤١.

الثانية: أن جعل كلام النبيﷺ كسائر كلام الناس يبتلى بالإفراط والتفريط والحق والباطل والرضا والغضب ينم عن أن قائله لا يعتقد بعصمة النبيﷺ، وأن كلامه وحي.

الثالثة: أن النبيﷺ قد أمر عبد الله بالكتابة؛ لأن كلامه وحي يوحى وليس بكلام بشر عادي، وهناك قرينتان داخلية وخارجية ربما تكشفان عن القائل بهذا القول والسبب الذي يقف وراءه. أما الداخلية فهي قول عبد الله: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله، ومن الشيء الذي سمعه هو إمامة علي وأهل بيته وتنصيب رسول اللهﷺ له خليفة على المسلمين في الغدير وغيره.

وأما القرينة الخارجية فهي منع عمر من وصية النبيﷺ في حين وفاته، فقد روى ابن عباس:أنه لما حضرت النبيﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال: «هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده» قال عمر: إن النبي غلبه الوجع، وعندكم كتاب الله، فحسبنا كتاب الله، واختلف أهل البيت فمنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال: «قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع»[1] وفي نص آخر: أن النبي ليهجر[2].

والاختلاف الواقع كشف عن أن هذا الاعتقاد الخاطئ بالنبي كان عند جماعة من الصحابة، وكان هذا المنع أحد أهم أسباب الاختلاف والفرقة بين المسلمين إلى يومنا، ولذا روى ابن عيينة عن سليمان الأحول عن سعيد بن

١ - الطبقات الكبرى: ج٢، ص٢٤٤.
٢ - نهج السعادة: ج٥، ص٢٦٩.

جبير عن ابن عباس إنه قال: يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وآله وجعه يوم الخميس فقال: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً» فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هجر رسول الله! قال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه» وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، ونسيت الثالثة[1].

وهذه الثالثة تشير إلى وجود مطلب هام اقتضت السياسة نسيانه، كشف عن هذا الحوار الطويل الذي جرى بين عمر وعبد الله بن عباس إذ سأل عمر عبد الله بن عباس فقال: هل بقي في نفسه ـ أي علي بن أبي طالب ـ شيء من أمر الخلافة؟ فأجابه ابن عباس بالإيجاب. قال عمر قولاً اعترف فيه بحق علي عليه السلام فيها. قال: ولقد أراد صلى الله عليه وآله في مرضه أن يصرح باسمه ـ أي علي ـ فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام[2].

والنبي صلى الله عليه وآله حيث أخرجهم ولم يكتب لهم الكتاب بعد قولهم (غلبه الوجع) ونحوه يتضمن حكمة بالغة؛ لأنه لو كان يوصي مع هذين القولين لانجر الاختلاف بينهم إلى النبي نفسه وأنه يهجر أم لا، وأنه هجر فكتب أم لا، وهذا النحو من الاختلاف يؤدي إلى هدم الرسالة وتكذيب الرسول صلى الله عليه وآله، وهو منزلق خطير لا ينبغي الوقوع فيه، لاسيما وأن الأدلة على إمامة علي عليه السلام كانت كافية للأحاديث والوصايا الكثيرة جداً التي قالها النبي صلى الله عليه وآله في حقه قبل ذلك، فالحجة على الإمامة كانت تامة لمن أراد الاستجابة.

١ - صحيح البخاري: ج٤، ص٣١؛ عمدة القارئ: ج١٤، ص٢٩٨، ح٣٥٠٣.
٢ - شرح نهج البلاغة: ج١٢، ص٢١.

النموذج الثاني: صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري ذكرها جمع من أعلام الجمهور[١]، وروى مسلم أنها كانت في مناسك الحج، ويقوى الاحتمال في أنها كانت متضمنة لحجة الوداع التي ألقى فيها رسول الله ﷺ خطبته الجامعة في مختلف شؤون الإسلام والمسلمين، وعين فيها علياً عليه السلام إماماً وخليفة للناس من بعده، ولكن ذهبت ضمن الممنوعات لدى منع تدوين السنّة مع أنها كانت تحظى باهتمام كبير من قبل الصحابة[٢]، ويعضد هذا الاحتمال ما رواه الخطيب البغدادي بسنده عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: جاء علقمة بكتاب من مكة - أو اليمن - صحيفة فيها أحاديث في أهل البيت، بيت النبي ﷺ، فأستاذنا على عبد الله - أي ابن عمر- فدخلنا عليه. قال: فدفعنا إليه الصحيفة. قال: فدعا الجارية ثم دعا بطست فيها ماء، فقلنا له: يا أبا عبد الرحمن! انظر فيها، فإن فيها أحاديث حساناً، فجعل يميثها فيه ويقول: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾[٣] القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بما سواه[٤].

وهذه الواقعة تنم عن أن القائل كان يفصل بين القرآن والسنّة، ويجد أن السنّة مخالفة للقرآن وشاغلة عنه، فأين هذا الاعتقاد من قوله سبحانه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾[٥].

١ - انظر الطبقات الكبرى: ج٧، ص٢٢٩؛ المصنف: ج١١، ص٢٠٢٧٧؛ تذكرة الحفاظ: ج١، ص١٢٣.
٢ - انظر التاريخ الكبير: ج٧، ص١٢٥، ح٨٢٧.
٣ - سورة يوسف: الآية ٣.
٤ - انظر البداية والنهاية: ج٨، ص١٠٧.
٥ - سورة النجم: الآيات ٣-٤.

النموذج الثالث: سياسة معاوية، فإنه بنى سياسته على عداء أهل البيت وإقصائهم عن الخلافة، وقد عرفت بعض ذلك مما تقدم، وروي أنه لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى من سنة ٤١ هجرية قال له: أردت إيصاءك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني، ويسعد سلطاني، ويصلح به رعيتي، ولست تاركاً أيصاءك بخصلة لا تتحمّ - أي لا تتجنب - عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم، وباطراء شيعة عثمان والإدناء لهم والاستماع منهم[1] ونفذ المغيرة له هذه الوصية، وسار على النهج الذي أراده.

وتؤكد الروايات أن معاوية لم يكن يؤمن بالإسلام ولا برسوله، فقد روى الزبير بن بكار عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئت من اكفر الناس وأخبثهم. قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سناً – يا أمير المؤمنين - فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى أخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فو الله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه؟

١ - شيخ المضيرة أبو هريرة: ص٢٠٢؛ وانظر تاريخ الطبري: ج٤، ص١٨٨؛ الكامل في التاريخ: ج٣، ص٤١٣؛ شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٦٩.

فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه؟ ملك أخو تيم - أي أبوبكر- فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي - أي عمر - فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلاّ أن يقول قائل: عمر، وأن ابن أبي كبشة - يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي من تسميات المشركين الحاقدين له - ليصاح به كل يوم خمس مرات «أشهد أن محمداً رسول الله» فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك؟ لا والله إلاّ دفناً دفناً[1].

وأما في علي عليه السلام فقد كتب نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة. يقول فيها: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، وانظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم، وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا إليّ بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه طلباً للدنيا والجوائز.

ولما فشا الأمر كتب إلى عماله: أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته. ولهذا رويت أخبار كثيرة في فضائل الصحابة كذباً وزوراً[2].

---

١ - انظر شرح نهج البلاغة: ج٥، ص١٢٩- ١٣٠؛ المسترشد: ص٦٨٠.

٢ - مختصر البصائر: ص١٣؛ بحار الأنوار: ج٣٣، ص١٩١؛ الاحتجاج: ج٢، ص١٧.

وقال أبو جعفر الاسكافي: إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير(١).

ومن هذا الباب ما رواه الأعمش قال: قدم أبو هريرة العراق مع معاوية سنة ٤١هـ وجاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً وقال: يا أهل العراق! أتزعمون أني (أكذب) على رسول الله وأحرق نفسي بالنار والله لقد سمعت رسول الله يقول: إن لكل نبي حرماً وإن حرمي المدينة ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيهما حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها، فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاه إمارة المدينة(٢).

وسياسة معاداة علي والتدبير لإقصائه وإقصاء ولده كانت قائمة شاخ عليها الصغير وهرم عليها الكبير كما قال معاوية؛ لذا قال الفيلسوف ابن رشد: إن معاوية أقام دولة بني أمية وسلطانها الشديد، ففتح بذلك باباً للفتن التي لا تزال إلى الآن قائمة قاعدة حتى في بلادنا هذه الأندلس(٣).

والذي يتأمل في هذه الشواهد الكثيرة يجزم بأن هناك استعداداً تاماً لدى القوم في تحريف القرآن ومحو آياته أو تبديلها أو إنكارها، فإن الذي لا يعتقد بالنبي ولا بالقرآن والآخر الذي يضع الحديث ويحرف السنّة ويخالف

١ – انظر شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٩٣.
٢ – شرح نهج البلاغة: ج٤، ص٦٧.
٣ – ابن رشد وفلسفته: ص٦٠.

الرسول لأجل السلطة والدنيا وعداء لعلي وآل علي عليهم السلام لا يحد من عصيانه وتمرده شيء ولو استلزم ذلك تحريف الكتاب كما هو واضح، ومن هنا نقول: لعل عدم ذكر أسماء الأئمة عليهم السلام في القرآن كان من باب اللطف بالعباد، وإلاّ لكانت دواعي التحريف كبيرة، وحينئذ لا يبقى دين ولا شريعة فضلاً عن غيرها، والمطلب هذا عميق ومفصل اكتفينا منه بالميسور.

المصلحة الرابعة: تعزيز مرجعية الإمام والإمامة في الأمة، وذلك للحاجة إلى فهم معاني القرآن ومقاصده، ولا توجد مرجعية علمية للأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سوى علي وأهل بيته عليهم السلام يهدون الأمة إلى مقصود الباري في آياته، وهذا ما أجمعت عليه فرق المسلمين، وبه وردت النصوص، ففي رواية المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عز وجل، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»[1] ولذا لابد له من شارح ومبيّن وهو الإمام، ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام كما في خبر مسعدة بن صدقة عن الصادق عليه السلام في حديث مفصل: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم، أخبركم عنه، إن فيه علم ما مضى وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلمتم»[2] وهو معنى: «فيه تبيان كل شيء» لوضوح أن تفاصيل كل شيء غير بينّة في القرآن، وإنما الذي يبينها الإمام، وفي هذا حكمة بالغة؛ لأنها تتضمن إرجاع الأمة إلى الإمام دائماً لتمضي عن دليل ومرشد فلا

١ - الكافي: ج١، ص٤٩، ح٦.
٢ - الكافي: ج١، ص٦١، ح٧؛ تفسير البرهان: ج١، ص٣٦، ح٥.

تضيع بالجهل، أو تضللها الفتن والأهواء كما في رواية موسى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره، كأنه في كفي فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. قال الله فيه تبيان كل شيء»(١) وفي رواية سليمان الأعشى عن أبيه قال: قال علي عليه السلام: «ما نزلت آية إلاّ وأنا علمت فيمن أنزلت، وأين أنزلت، وعلى من نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً طلقاً»(٢).

وهذه الحقيقة كان يذعن لها جميع الصحابة، وكانوا يصرحون بها في الملأ العام، وهو ما نص عليه رسول الله صلى الله عليه وآله في روايات عديدة(٣).

ومن هنا أرجع القرآن الكريم الأمة إلى أهل البيت، وسماهم بالراسخين في العلم وبأهل الذكر. قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ**﴾(٤) وقد قرأت الواو في ﴿**وَٱلرَّٰسِخُونَ**﴾ على نحوين استئنافية وعليه بعض العامة، وعاطفة وعليه الأكثر(٥).

---

١ - بصائر الدرجات: ص١٩١، ح٧.

٢ - تفسير العياشي: ج١، ص٢٨، ح٩؛ تفسير البرهان: ج١، ص٤٣، ح٢٤.

٣ - انظر مستدرك الصحيحين: ج٣، ص٤٩٩؛ أسد الغابة: ج٥، ص٥٢٠؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١١٣؛ وانظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٢٧١ وما بعدها.

٤ - سورة آل عمران: الآية ٧.

٥ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٤١؛ تفسير القرطبي: ج٢، ص٣٩٢، تفسير الآية المزبورة.

والمعنى على القولين لا ينطبق إلاّ على الأئمة عليهم السلام من عترة النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنهم الذين رسخوا في العلم، والعلم يشمل المعارف الربانية وأحكام الحلال والحرام والناسخ والمنسوخ والعام والخاص في القرآن وغيرها من علوم ومعارف تتعلق بحياة الإنسان في النشأتين، ومنه علم التأويل الذي لا يستند إلى الألفاظ فقط، بل إلى بطون القرآن، وبه وردت الأخبار المعتبرة[١].

وفي كتاب الاحتجاج بسنده عن الباقر عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه خطبة الغدير، وفيها قال صلى الله عليه وآله: «معاشر الناس! تدبروا القرآن، وأفهموا آياته، وانظروا محكماته، ولا تتبعوا متشابهه، فو الله لن يبيّن لكم زواجره ولا يوضح لكم تفسيره إلاّ الذي أنا آخذ بيده ومصعده إليّ وشائل بعضده، ومعلمكم أن من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وهو علي بن أبي طالب أخي ووصيي، وموالاته من الله عز وجل أنزلها عليّ»[٢].

وفي الكافي بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام حديث طويل يقول فيه: «فإن قالوا: من الراسخون في العلم؟ فقل: من لا يختلف في علمه، فإن قالوا: فمن هو ذاك؟ فقل: كان رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب ذلك، فهل بلغ أو لا؟ فإن قالوا: قد بلغ، فقل: فهل مات صلى الله عليه وآله والخليفة من بعده يعلم علماً ليس فيه اختلاف؟ فإن قالوا: لا، فقل: إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله مؤيد ولا يستخلف رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ من يحكم بحكمه، وإلاّ من يكون مثله إلاّ النبوة، وإن كان

١ - انظر الكافي: ج١، ص٤٨٤، ح١٤؛ تفسير القمي: ج٢، ص١٣٠ سورة الروم، ص٤٥١ سورة الناس.
٢ - الاحتجاج: ج١، ص٧٥.

رسول الله صلى الله عليه وآله لم يستخلف في علمه أحداً فقد ضيع من في أصلاب الرجال ممن يكون بعده»(١).

ومن هنا أمرت الأمة بالرجوع إليهم عليهم السلام والسؤال منهم في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) فإن الذكر هنا هو رسول الله صلى الله عليه وآله على أصح الأقوال(٣). أو أجلى مصاديقه؛ لأنه سبحانه وصفه بذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٤) فإن ﴿رَّسُولًا﴾ بدل من ﴿ذِكْرًا﴾ وهو بدل الكل من الكل.

وأهل الذكر هم أهل محمد صلى الله عليه وآله؛ لأنهم الوحيدون الذين ينطبق عليهم هذا العنوان، ويقدرون على الإجابة على جميع أسئلة الأمة، وإطلاق الأمر بالسؤال منهم يجري في سائر الأزمنة إلى يوم القيامة، وينفي احتمال أن يكون المراد من أهل الذكر أهل الكتاب؛ لأن شريعتهم منسوخة بالإسلام، فالرجوع إليهم بالسؤال بعد مجيء الإسلام ارتداد أو عصيان أو دعوة إلى الإيمان بما يقولون، والكل باطل. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٥).

وبهذا وردت الأخبار المتضافرة، ففي الكافي بسنده عن الباقر عليه السلام قال

---

١ - الكافي: ج١، ص٢٤٥، ح١؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣١٧، ح٣٧.

٢ - سورة النحل: الآية ٤٣.

٣ - انظر مجمع البيان: ج٦، ص١٥٩، تفسير الآية المزبورة.

٤ - سورة الطلاق: الآيتان ١٠-١١.

٥ - سورة آل عمران: الآية ٨٥.

رسول الله صلى الله عليه وآله: «الذكر أنا والأئمة عليهم السلام أهل الذكر»[١] وروى الطبري في تفسيره بسنده عن جابر الجعفي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «نحن أهل الذكر»[٢] وفي عيون الأخبار ذكر محاورة جرت بين المأمون والإمام الرضا عليه السلام بحضور جمع من العلماء، حيث فسر الإمام: ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ بالعترة الطاهرة عليهم السلام وقال: «اسألونا أن كنتم لا تعلمون» فقالت العلماء: إنما عنى بذلك اليهود والنصارى، فقال الإمام عليه السلام: «سبحان الله وهل يجوز ذلك إذاً يدعونا إلى دينهم ويقولون: إنه أفضل من دين الإسلام؟».

فقال المأمون: فهل عندك في ذلك شرح بخلاف ما قالوا يا أبا الحسن؟

فقال: «نعم، الذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن أهله، وذلك بيّن في كتاب الله عزّ وجل، حيث يقول في سورة الطلاق .... إلى آخر المحاورة»[٣].

وهذا ما تؤكده شواهد الأحداث، فقد أجمع المؤرخون والمحدثون والفقهاء وغيرهم على أن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يعهد عنهم عجز أو عيّ في أي علم من العلوم منذ نعومة أظفارهم، كما أنهم لم يدرسوا عند أحد، ولم يأخذوا العلم من أحد.

بل وأجمعوا على أن علومهم عليهم السلام إلهامية لدنية، وكانوا يعرفون لغات

١ - الكافي: ج١، ص٢١٠، ح١.

٢ - تفسير ابن جرير الطبري: ج١٧، ص٥؛ وانظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص٣٢٩.

٣ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص١٧٩، ح١؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٦٥ وما بعدها، الأحاديث ٨٧- ١٠٢.

الشرق والغرب[١]، كما يعلمون بحقائق سائر الشرائع والديانات، وهذه الحقيقة كانت مشهودة للجميع لا يشك فيها أحد، وحتى ثبت الباري هذه الحقيقة في نفوس الأمة كان لابد من إخفاء بعض الحقائق في ألفاظ عامة أو مطلقة؛ لكي تلتجئ الأمة إلى أهل البيت عليهم السلام لمعرفة معانيها ومراميها، فيكون هذا الرجوع مقدمة للرجوع إليهم في أمر الإمامة والخلافة، وهذا يفسر لنا أسباب وقوع التشابه والإجمال في القرآن الكريم، إلاّ أن العداء والعصبية عند بعض والمصالح الدنيوية عند آخرين وضعف العقيدة عند ثالث – هذه جميعاً – منعت بعض الأمة من الرجوع إليهم، والأخذ من علومهم، فضلاً عن الرجوع إليهم في الإمامة.

المصلحة الخامسة: اقتضاء اللطف والرحمة الإلهية، إذ لو كان عيّنهم باسمائهم الشريفة وخالفتهم الأمة لكان ذلك من موجبات نزول العذاب فيتنافى مع الأغراض الإلهية في الخلق وهو ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض محاججاته، فقد روي في الاحتجاج عنه عليه السلام مجيباً لبعض الزنادقة، حيث سئل عن سبب عدم التصريح بهم والاكتفاء بالتعريض، قال عليه السلام: «بعثه الله بالتعريض لا بالتصريح، وأثبت حجة الله تعريضاً لا تصريحاً بقوله في وصية: من كنت مولاه فهذا مولاه، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي» وليس من خليقة النبي ولا من النبوة أن يقول قولاً لا معنى له، فلزم الأمة أن تعلم أنه لما كانت النبوة والأخوة موجودتين في خلقة هارون ومعدومتين في من جعله النبي صلى الله عليه وآله بمنزلته أنه قد استخلفه على أمته

١ – انظر تحفة الأبرار (للطبري): ص١٣١.

كما استخلف موسى هارون، حيث قال له: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾[١] ولو قال لهم: لا تقلدوا الإمامة إلاّ فلاناً بعينه وإلاّ نزل بكم العذاب لأتاهم العذاب، وزال باب الإنظار والإمهال»[٢] والحكمة الجارية في السنّة الشريفة جارية في القرآن بالأولوية، بل الجمع بين حديث المنزلة وما نزل في شأن هارون وموسى عليهما السلام يدلنا على حقانية إمامة أمير المؤمنين في القرآن.

وتقرير ذلك: اتفقت كلمة المسلمين على تواتر حديث المنزلة لفظاً ومضموناً، ولم يخالف ذلك حتى المعروفون بمخالفتهم لعلي أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مواضع عديدة بلغت المائة أو أكثر[٣] لعلي عليه السلام: «يا علي! أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي»[٤] وهو صريح في مساواتهما في المراتب والمناصب إلاّ النبوة؛ إذ ختمت النبوة بالمصطفى صلى الله عليه وآله لأنه الخاتم لما سبق والفاتح لما أستقبل ولا حاجة بعده إلى نبوة أو نبي، بل انحصرت الحاجة بالإمامة والإمام.

وواضح أن الحديث الشريف ذكر الأصل دون التفاصيل؛ إذ أثبت عموم المنزلة بين النبي وعلي أمير المؤمنين ولم يستثن منها إلاّ النبوة، ومعنى ذلك أنه أوكل معرفة التفاصيل إلى العقل والقرآن لانحصار طرق المعرفة بالثلاثة، وكل واحد منها يعضد الآخر والعقل والقرآن هنا يتفقان على أن عموم

١ - سورة الأعراف: الآية ١٤٢.
٢ - الاحتجاج: ج١، ص٣٨٠.
٣ - انظر غاية المرام (للبحراني): ص٤٧٨ - ٤٩١؛ الغدير: ج٣، ص١١٣ - ١٢٤.
٤ - انظر صحيح مسلم: ج٤، ص١٠٤؛ صحيح البخاري: ج٥، ص٣؛ مسند أحمد: ج١، ص١٧٠.

المنزلة تثبت إمامة علي عليه السلام وخلافته لرسول الله صلى الله عليه وآله.

أما الأول: فلأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إماماً حاكماً وقدوة للناس فلابد وأن يكون مَنْ في منزلته مثله كما تقتضيها قواعد المحاورات ودلالات الالفاظ في الفهم العقلائي ولا ينكرها إلاّ مكابر.

وأما الثاني: فلأن القرآن الكريم نص على جملة من المهام التي ثبتت لهارون عليه السلام بعضها في حضوره وبعضها في غيابه، وعمدتها ثلاثة هي: الوزارة والمشاركة في أمر موسى عليه السلام، وثبتتا له في حضوره، والخلافة ثبتت له في غياب موسى عليه السلام، فبعد أن أرسل الباري موسى عليه السلام وأمره بتبليغ فرعون ودعوته إلى الحق طلب موسى عليه السلام أن يؤازره بأخيه هارون لتحقيق غايتين هما الوزارة والمشاركة في أمره؛ قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾[1].

والوزارة تعني المساعدة والمعاونة التي بها تشد القوة، ومنه سمي الوزير وزيراً[2]، وهو الذي يتحمل ثقل أميره وشغله[3]، والمشاركة في الأمر رتبة أعلى من الوزارة، وتعني الشراكة في القرار ومسؤوليته وأعبائه وليست مجرد الأعانة وكلا المهمتين ثبتتا لهارون في حضور موسى عليه السلام .

وأما الخلافة فثبتت له في غيابه لما ذهب موسى لمناجاة ربه عز وجل إذ قال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾[4] وهي تعني

١ - سورة طه: الأيات٢٩-٣٢.
٢ - مجمع البحرين: ج٣، ص٥١١، (وزر).
٣ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٨، (وزر).
٤ - سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

النيابة عن موسى في كل مهامه ومناصبه[١] .

والمستفاد من مجموع الآيتين والرواية أن علياًعليه السلام بمنزلة هارون من موسى فتثبت له جميع مناصب هارون الثلاثة ما كان منها في حضور موسى وما كان في غيابه، فيكون هو الوزير والمشارك في أمر النبي المصطفى في حضوره وهو خليفته بعد غيابه، وهذا ما أكدته العديد من المواضع التي نص فيها رسول الله على عموم المنزلة لما كان يستخلف علياًعليه السلام في المدينة، وبه يرد على أرجاف المرجفين وتقولات المنافقين[٢] ومنطوق الآيتين يشير إلى حقيقتين أخريين:

الحقيقة الأولى: أن موسىعليه السلام وصف هارون بالأخ ، ولا يعقل أن يريد بها الأخوة النسبية فقط؛ لاستلزامها توضيح الواضح، لا سيما وأنه يخاطب الباري عز وجل بحقائق الأمور، ولا يستقيم المعنى إلاّ بحمل الأخوة على أخوة الروح والمنهج، وهو بديهي؛ إذ لا خصوصية للنسب في المهام الإلهية، وهذا ما ينطبق على أمير المؤمنينعليه السلام باتفاق الكلمة؛ إذ وصفه النبيصلى الله عليه وآله وسلم بأخيه في مواطن عديدة ونفى هذا الوصف عن غيره وقال: « لا يدعي أحد بعده الأخوة للنبي إلاّ كذاب»[٣] وهذا ما تؤكده شواهد التأريخ؛ إذ لم يدع أحد من الصحابة هذا الوصف مع أن بعضهم تقمص بعض أوصاف علي ونسبها لنفسه كالفاروق والصديق، وواضح أن أخوتهماعليهما السلام أخوة المنهج.

١ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٤، (خلف).

٢ – انظر إرشاد المفيد: ج١، ص١٤٢.

٣ – انظر الاستيعاب: ج٢، ص٤٧٣؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٤؛ حق اليقين: ص٢٠٧.

الحقيقة الثانية: أن قوم موسى عليه السلام عصوه في خلافته واستضعفوا هارون وكادوا يقتلونه كما شهد به الباري في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾[1] وهو ذاته ما وقع لعلي عليه السلام في خلافته؛ إذ نازعه القوم فيها وانتزعوها منه بعد أن استضعفوه ولم يجد ناصراً إلاّ النفر القليل. كما تواتر ذكره في التأريخ.

ويتحصل: أن حديث المنزلة وأن أثبت الكبرى لعلي أمير المؤمنين عليه السلام نص على أن منزلته عليه السلام منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله ولم ينف عنه إلاّ النبوة إلاّ أن القرآن نص على أن المنزلة تعني الوزارة والإمامة والخلافة، فيثبت بالقطع واليقين حقانية إمامة علي عليه السلام وبطلان إمامة غيره بالنص الصريح في القرآن ومتواتر السنّة.

كما يتحصل منه أيضاً ثلاث نتائج هامة:

النتيجة الأولى: أن الإمامة تثبت بالنص الصريح كما نص موسى على هارون عليه السلام واستخلفه في قومه وليست باختيار الأمة وبيعتها.

النتيجة الثانية: أن الإمامة والخلافة من شؤون النبوة والنبي، فهي من أصول الدين وليست من فروعه.

النتيجة الثالثة: ثبوت حقانية نظرية الإمامية في الإمامة التي تثبت الإمامة بالنص الصريح، وأنها من أصول الدين وقوامه، وكفرانها مساوق للكفران بالنبي والنبوة، وبطلان نظرية العامة التي تقوم على أنها بالبيعة والاختيار وأنها من فروع الأحكام؛ لأنها مخالفة للقرآن والسنّة.

---

١ - سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

وهذا ما يعززه دعاء النبي صلى الله عليه وآله في مواضع عديدة في أن يجعل لعلي عليه السلام ما جعله موسى لهارون عليه السلام ، فعن ابن عباس عن أبي ذر الغفاري قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم إني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً وكان علي عليه السلام راكعاً، فأوحى بخنصره اليمنى إليه وكان يتختم فيها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي صلى الله عليه وآله، فلما فرغ النبي من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم إن أخي موسى سألك فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[1] فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾[2] اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللهم فاشرح صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري» قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله صلى الله عليه وآله الكلمة حتى نزل عليه جبرائيل من عند الله فقال: يا محمد اقرأ: قال: «وما أقرأ» قال: اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3]»[4].

وفي قرب الاسناد بإسناده إلى جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: وقف

١ - سورة طه: الآيات ٢٥- ٣٢.

٢ - سورة القصص: الآية ٣٥.

٣ - سورة المائدة: الآية ٥٥.

٤ - تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٤١١، ح٥٨.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعرّج ثم قل: «اللهم أن عبدك دعاك فاستجبت له، وألقيت عليه حجة منك، وطلب منك أن تشرح له صدره، وتيسر له أمره، وتجعل له وزيراً من أهله، وتحل العقدة من لسانه، وأنا أسألك بما سألك به عبدك موسى أن تشرح به صدري، وتيسر لي أمري، وتجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي»[1].

والنتيجة التي نستخلصها من كل ما تقدم هي أن القرآن الكريم اكتفى بالتنصيص على أسماء الأئمة عليهم السلام بأوصافهم الخاصة دون أسمائهم اتكالاً على فهم الأمة واتفاقها على أفضليتهم فيها، أو اعتماداً على تنصيص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا يكفي للمؤمن دليلاً وحجة، كما يكفي حجة على المنكر أو المعاند.

وبذلك يظهر أن توحيد عقيدة المسلمين واتحاد كلمتهم لا يكمن في عدم ذكر أسماء الأئمة في القرآن؛ لأنه حتى إذا ذكرها كان المعاندون الجاحدون ينكرون ذلك، أو يحرّفون القرآن، ولكانت الفتنة أكبر وأعمق، وإنما تكمن في تخلي الأمة عن تعصبها واتباعها للحق الصريح، وقبولها بما قبله الله ورسوله لها في الإمامة، وهو الذي يقضي به العقل والشرع وسيرة العقلاء المنصفين.

١ - قرب الأسناد: ص٢٧، ح٩٠.

الفَصلُ الثّالِثُ

صفات الإمام عليه السلام ومقاماته الإلهية

وفيه تمهيد ومباحث:

المبحث الأول: في علم الإمام عليه السلام

المبحث الثاني: في قدرة الإمام عليه السلام وولايته العامة (الولاية التكوينية والتشريعية للإمام عليه السلام)

المبحث الثالث: في عصمة الإمام عليه السلام

تمهيد:

للإمام صنفان من الصفات.

أحدهما: يتعلق بمؤهلاته الذاتية ويعبر عنها بالصفات الحقيقية، وذلك لتقوّم شخصيته الإلهية بها، ومن دونها لا يمكن أن يكون حجة لله وخليفة للنبيﷺ ومتمماً لمهامه وأدواره في التكوين والتشريع، وعمدتها ثلاثة وهي:

١ـ العلم.

٢ـ القدرة.

٣ـ العصمة.

وهذه جميعاً من شروط مقام الإمام، ويجب توفرها فيه على نحو الانضمام، ولا يعقل اختلافها أو تخلفها؛ لأنها من المواهب والعطايا الإلهية التي لو تخلفت لم يكن الإمام مؤهلاً للإمامة.

وثانيهما: يتعلق بمقام الإمامة ويعبر عنها بالصفات الحقوقية، فحيث إن للإمام شخصية إلهية يمثل خلافة الله ورسوله بين البشر تثبت له حقوق في ذمة الأمة يجب احترامها، بها يكون المؤمن مؤمناً والجاحد جاحداً.

فهذه الصفات واجبة عقلاً وشرعاً؛ لأنها لو تخلفت كلها أو بعضها انتفى الغرض من تعيين الإمام وتنصيبه، كما ينتفي الغرض من بعثة النبي وإرساله،كما يجب على العباد الاعتقاد بها، والإذعان لها والعمل بمقتضياتها، مثل المحبة والولاية والطاعة ونحوها من صفات تقوّم عقيدة المأموم ومصيره الدنيوي والآخروي، فهي لا تقوّم شخصية الإمام، بل تقوّم شخصية المأموم المتبع للإمام، وتتميز بها عن غيره، فهنا نوعان من الصفات والمقامات في شخصية الإمام ومناصبه الإلهية. نفصّل الكلام فيهما في هذا الفصل والفصل الذي يليه وسيدور البحث في هذا الفصل عن شخصية الإمام وخصائصة الإلهية باعتبارها خصائص مشتركة بين الأئمة عليهم السلام وفي الفصل التالي نبحث عن خصائص الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف باعتباره آخر الأئمة وخاتم الأوصياء وإمام الزمان الحاضر إلى انقضاء الدنيا ثم عقدنا فصلاً آخراً تناولنا فيه حقوق الإمام وما يجب على الأمة من وظائف وواجبات عقلية وشرعية تجاهه وكيف كان، فإن شخصية الإمام من حيث ذاته - ليست كسائر الناس - وإنما هي كشخصية النبي في أوصافه وأفعاله، فلابد وأن يمتاز عن غيره بمواصفات وخصائص تؤهله لإمامة الخلق في الدنيا والآخرة وأهم هذه الخصائص ثلاثة كما عرفت، والكلام فيها يقع في ضمن مباحث.

المبحث الأول

في علم الإمام عليه السلام

والبحث فيه يقع في مقدمات ومطالب:

المقدمة الأولى: أقسام العلوم

العلم نقيض الجهل[1]، وهو عبارة عن إدراك الشيء بحقيقته أو بأوصافه وآثاره[2]، والأول يغلب في الحقائق المادية، والثاني في المعنوية، ومعناه ظاهر، ويختلف باختلاف متعلقه إلى نظري وعملي، كما ينقسم بلحاظ طرقه إلى أقسام، عليها يدور البحث هنا.

وتقرير ذلك: ان العلوم البشرية عند متعارف الناس تنقسم على ثلاثة أقسام هي:

١ـ العلوم البديهية الفطرية.

٢ـ العلوم النظرية.

٣ـ العلوم التجربية.

---

١ - معجم مقاييس اللغة: ص٦٦٣، (علم)؛ لسان العرب: ج١٢، ص٤١٧، (علم).

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٨٠، (علم)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٨٨، بصيرة (٣٦).

والأول منها لا يتوقف على تعليم وتعلم، بل مودع في فطرة الإنسان ودفائن عقله، مثل علم الإنسان بأن النقيضين لا يجتمعان، وأن جلب المنافع ودفع الأضرار من الأمور الحسنة، وغيرها من حقائق يدركها الإنسان بفطرته الأولية، ولذا لا يختلف عليها اثنان من صغير أو كبير أو جاهل أو عالم، بخلاف الثاني فانه يتوقف على دراسة وتحصيل، ولا يمكن للإنسان أن يدركها إلاّ بالدخول إلى المدارس والحضور عند المعلمين مثل علوم الرياضيات والطب والهندسة والأصول والفقه وهكذا، وعلى هذا الأساس يتفاضل الناس في درجاتهم العلمية.

وأما الثالث فهو كالثاني سوى أنه يختلف عنه في طريقة الكسب والتحصيل، فإن العلوم النظرية تكتسب بالدراسة والتحصيل النظري، بينما تكتسب العلوم التجربية بالعمل والتجارب الحسيّة مثل الفنون والصناعات، كالنجارة والحدادة والزراعة ونحوها.

ويعبر عن العلم الحاصل من هذين الطريقين بالعلم الحصولي؛ لأن تعلمهما يتوقف على تصور الشيء في الذهن ثم التصديق به؛ بداهة أن كل تصديق لابد وأن يسبقه تصور؛ لعدم وجود علاقة تربط ذهن الإنسان بالواقع الخارجي سوى الصورة التي تنطبع في الذهن عن الخارج.

فتحصيل هذه العلوم يتوقف على مقدمتين:

الأولى: ترتيب مقدمات متوالية تنتهي إلى العلم.

الثانية: رجوع هذه المقدمات إلى العلوم البديهية؛ لأن البرهان لابد وأن يرجع إلى الوجدان وإلاّ لم يكن برهاناً؛ بداهة أن كل ما بالعرض لابد وأن

ينتهي إلى ما بالذات، وإلاّ لا يمكن التصديق به.

ويمكن توضيح هذا بمثال: إذا أردنا إثبات حدوث العالم كنتيجة علمية فإنه لا يمكن التوصل إليها إلاّ عبر تقديم مقدمات اكتسبناها بالعلوم النظرية أو التجربية، والمقدمات هي:

١ـ معرفة معنى الحدوث.

٢ـ إدراك أن الحدوث يتقوم بالتغير؛ لأن الحادث هو الذي يسبق بالعدم، ويلحق به أيضاً.

٣ـ إدراك وجود ملازمة حقيقية بين التغير والحدوث، بحيث ندرك أن كلما كان الشيء حادثاً كان متغيراً وبالعكس.

٤ـ إدراك أن التغير من صفات العالم، ومن مجموع هذه المقدمات المترابطة نتوصل إلى النتيجة وهي أن العالم حادث، ونلاحظ أن توالي هذه المقدمات وتسلسلها بشكلها الصحيح ينتج لنا نتيجة علمية صحيحة لولاها لما أمكن تحصيلها، والذي أوصلنا إلى هذه النتيجة هي المقدمات النظرية والحسّية والجميع انتهى إلى المقدمة الفطرية البديهية، وهي وجود الملازمة بين التغيّر والحدوث.

وعليه فإن من شروط صحة النتائج العلمية هو ترتيب مقدماتها بشكلها المنطقي الصحيح، وحيث إن هذه مسألة قد يختلف عليها العقلاء صارت منشأ لكثرة الأخطاء واختلاف وجهات النظر بين العلماء وأهل المعرفة، ولذا وضعوا لها قواعد علم الميزان؛ ليصونوا ذهن الإنسان من الخطأ في التفكير، وعلى هذا الأساس تتكامل العلوم وتتطور معارف البشر وإن لم يتمكنوا من

تعصيم البشر من أخطائه بسبب خطأ بعض الضوابط الموضوعة في الميزان، أو بسبب الخطأ في تطبيقها، ولهذا البحث كلام مفصل لا يسعنا المجال لتفصيله.

والنتيجة التي نستخلصها منه هي أن العلوم البشرية بحسب المتعارف هي علوم اكتسابية يتوقف تعلمها على دراسة وتحصيل، وهي غير منزهة عن الأخطاء في المقدمات والنتائج، كما أنها تزداد وتضعف بحسب قابليات البشر، فلا تتوارث ولا تعصم الإنسان عن الخطأ، كما أنها عارضة عليه فربما ينساها أو يفقدها، وفي مقابلها تأتي العلوم الإلهية التي يفيضها الله سبحانه على بعض عباده، فإنها على النقيض منها تماماً؛ لأنها لا تتوقف على اكتساب وتعلم، كما أنها تعصم صاحبها من الأخطاء والضلالات، وفي عين الحال هي ثابتة لا تزول، بل قد تزيد وترتقي بحسب درجات أهلها، كما أنها قابلة للتوارث والانتقال من عالم إلى آخر يساويه في الرتبة والمقام الإلهي، لأنها مستمدة من نور الله سبحانه وقدرته، فلذا لا يضر بها الصغر والكبر، بل قد يكون العالم بها صبياً صغيراً وربما يكون وليداً في ساعة ولادته. قال سبحانه: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[1] وقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾[2] كما أنها مصيبة للواقع دائماً فلا تخطئ أو تتردد، ومنزهة عن الاختلاف والتعارض، ولذا نلاحظ أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام كلهم يخبرون عن حقائق ثابتة ومتوافقة بلا اختلاف أو تناقض، بل احدهم يكمل الآخر في البيان والمصداقية، ويعزز اللاحق ما

١ - سورة مريم: الآيتان ٢٤- ٢٥.

٢ - سورة مريم: الآية٣٠.

أفاده السابق، ولذا يعبر عنها بالعلوم الربانية أو اللدنية، لأنها مأخوذة من لدن عليم حكيم، وإذا لوحظ بعض التعارض في بعض الكلمات الواردة عنهم فذلك ناشئ من التحريف الذي وقع على كلماتهم أو شرائعهم.

المقدمة الثانية: علوم الأئمةعليهم السلام

إن علم الإمامعليه السلام يجب أن يكون من العلوم الإلهية لا الاكتسابية، وإلاّ لم يكن وجه لأن يكون إماماً وحجة على الخلق وخليفة للنبيصلى الله عليه وآله وسلم على أمته وشريعته؛ لأن العلوم الاكتسابية مما لا تعصم أهلها من الأخطاء،كما تساويه مع غيره من الناس.

وهذه الحقيقة يجب الاعتقاد بها عقلاً وشرعاً على ما ستعرفه من خلال البحث، بل روي عن أمير المؤمنينعليه السلام: «اعلم يا سلمان أن الشاك في أمورنا وعلومنا كالممتري في معرفتنا وحقوقنا»[١] أي كالشاك المتردد فيها[٢]، وهو يتضمن الكفر أو ينتهي إليه عادة[٣]، والذي تؤكده حقائق التاريخ وباتفاق جميع الأمة أن الأئمةعليهم السلام من عترة النبيصلى الله عليه وآله وسلم لم يتعلموا في مدرسة، ولم يحضروا عند معلم على الإطلاق، وأن علومهم كانت إلهية لدنية، بل سائر علماء المذاهب اخذوا منهم وتعلموا عندهم.

وقد أجمع المسلمون وغيرهم على أن أئمة أهل البيتعليهم السلام أعلم الأمة في كل جوانب الدين والدنيا، وأنهم أساتذة لجميع علماء المذاهب وأئمتها، بل

١ - انظر إرشاد القلوب: ج٢، ص٤١٦.
٢ - مفردات ألفاظ القرآن لكريم: ص٧٦٦، (مرى).
٣ - انظر مجمع البحرين: ج١، ص٣٩٠.

هو ما نص عليه النبيﷺ بتواتر أخبار الفريقين[1].

المقدمة الثالثة: الاعتقاد بعلم الإمامعليه السلام

يجب الاعتقاد بعلم الإمام بالنحو الذي جعله الله سبحانه له، وهو وجوب عيني على الجميع، فلا يجوز إنكاره، بل المستفاد من الأدلة أن إنكاره يستلزم إنكار الإمامة، وهو من منافيات الإيمان، وذلك لوجوه:

الأول: حكم العقل؛ لأن الاعتقاد بعلم الإمام من مقومات الاعتقاد بذات الإمام وشخصيته الإلهية؛ إذ لا يعقل أن تتم معرفة الإمام من دون معرفة خصوصياته وشؤونه، لا سيما إذا لوحظت الأدلة المتضافرة الدالة على أن الإمام لابد وأن يكون أفضل الأمة بعد النبيﷺ، ولا يمكن معرفة الأفضلية من دون معرفة وجوهها ومنها العلم.

وعليه فإن الجهل بعلم الإمام مستلزم للجهل بالإمام، وهو مساوق لأنكاره؛ لأن إنكار الصفة اللازمة إنكار للموصوف، وحينئذ ينطبق عليه المضمون المتواتر بطرق الفريقين عنهﷺ: «أن من لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[2].

الثاني: حكم الشرع، حيث تواترت الروايات الدالة على وجوب معرفة

---

١ - انظر كنز العمال: ج٦، ص١٥٦، ص٣٩٦؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١١٣؛ الطبقات الكبرى: ج٦، ص١٦٧؛ أسد الغابة: ج٦، ص٢٢؛ الاستيعاب: ج٢، ص٤٦٢؛ وانظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٢٧١- ٢٧٦.

٢ - انظر الكافي: ج١، ص٣٧٧، ح٣؛ عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢، ص٥٨، باب ٧؛ كفاية الأثر: ص٢٩٦؛ المعجم الكبير: ج١٠، ص٢٨٩، ح١٠٦٨٧؛ المعجم الأوسط: ج٤، ص٢٤٣، ح٣٤٢٩؛

الإمام بخصوصياته ومشخصاته المعنوية، وقد اطلعت في الفصلين السابقين على الكثير من النصوص الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله يصف فيها خلفاءه والأئمة من بعده بخصوصياتهم وسماتهم الخاصة ويعززه ما ورد عن العترة الطاهرة عليهم السلام:

منها: ما عن أبي الحسن عليه السلام قال: «من شك في أربعة فقد كفر بجميع ما انزل الله تبارك وتعالى. أحدها: معرفة الإمام في كل زمان بشخصه ونعته»[١] فلا يكفي معرفة ذات الإمام من دون معرفة مقاماته وأوصافه الربانية، ووجه الكفر بجميع ما أنزل هو الملازمة بين إنكار البعض وإنكار الكل؛ إذ إن الأحكام الإلهية لا تنجزأ ولا تتبعض.

فالمؤمن إما أن يقبلها جميعاً أو لا، ولذا نفى الباري تبارك وتعالى صفة الإيمان عن الذين يؤمنون بالإسلام وبرسوله ثم لا يقبلون بأحكامه، أو يتحرجون منها، أو يرجعون فيها إلى غيره؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢] كما ذم الذين يبعضون في الشريعة أو في الكتاب، فيقبلون منهما شيئاً ولا يقبلون غيره؛ إذ قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.[٣]

ومنها: ما عن الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام..... وبعده

١ - كمال الدين: ص٤١٣، ح١٤.
٢ - سورة النساء: الآية ٦٥.
٣ - سورة البقرة: الآية ٨٥.

معرفة الإمام الذي به يأتم بنعته وصفته وأسمه في حال العسر واليسر»[١] ومن أعظم نعوت الإمام وأوصافه علمه الإلهي.

الثالث: اتفاق كلمة المسلمين على أن معرفة النبي بشخصه وبخصوصياته من الواجبات، واستدلوا على صحة نبوته بأدلة منها تفوقه العلمي على أهل زمانه وإفحامه لعلماء عصره بإعجازه ونحو ذلك، ولا يمكن معرفة كل ذلك إلاّ بمعرفة علمه وأعلميته، وهذا الاتفاق ينطبق على الإمام أيضاً؛ لأنه كالنبي في المهام والأدوار سوى الوحي ولتنصيص الكتاب على أن الإمام هو نفس النبي إذ قال سبحانه: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[٢] وعنى بذلك علياً عليه السلام باتفاق جميع أهل الأديان فضلاً عن المسلمين، ولتنصيص النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن علياً وأولاده عليهم السلام هم خلفاؤه وأقرب الخلق إليه.

ولعل مما يشهد لهذا الاتفاق السيرة المتبعة لدى العلماء وأهل المعرفة في بحثهم عن علوم الأئمة عليهم السلام وأوصافهم وخصوصياتهم الإلهية لدى تعرضهم للمباحث الاعتقادية، ولولا أنهم يجدون أن الاعتقاد بها واجب لم يكن وجه لاطباقهم على البحث عنها أو الخوض في تفاصيلها، بل واستنكارهم على الذين يشككون في ذلك، ويعدونهم من ضعاف الإيمان أو مختلي العقيدة، فتأمل.

والحاصل: أن الاعتقاد بعلم الإمام واجب على كل مسلم؛ لأنه من مقومات معرفة الإمام والاعتقاد به، وهذا مما لا كلام فيه، وإنما الكلام في

---

١ – كفاية الأثر: ص٢٦٣.

٢ – سورة آل عمران: الآية ٦١.

حدود المعرفة الواجبة، والمسألة فيها احتمالات ثلاثة:

الاحتمال الأول: المعرفة التفصيلية، فلا يكفي مجرد المعرفة بأصول العلم، بل لابد من الإحاطة بحقيقته وبكيفيته وأصنافه وسائر تفاصيله، وذلك لتوقف المعرفة التفصيلية بالإمام عليها والتي هي من الواجبات العقلية والشرعية، وما يتوقف عليه الواجب واجب.

الاحتمال الثاني: المعرفة الإجمالية، وذلك لجواز الاكتفاء منه بالمقدار الذي يتوقف عليه معرفة الإمام عليه السلام بصفاته الأساسية كأصل العصمة مثلاً، وحيث إن معرفة العلم من الواجبات الغيرية فلا تكون معرفة الفرع أكثر من معرفة الأصل، لاسيما وأن الوجوب مشروط بالقدرة، فلا يكلف العباد بأكثر مما يطيقون، ولاشك في أن بعض مراتب العلوم التفصيلية للأئمة عليهم السلام مما يدق معناها ويخفى على الأذهان العادية، فتكليفهم بتحصيلها مما يعد من التكليف بغير المقدور.

الاحتمال الثالث: التفصيل بين مراتب الناس ومستوياتهم؛ إذ يكتفى من عموم الناس بالمعرفة الإجمالية، كما هو الحال في أغلب شؤون العقيدة وأصول الدين؛ إذ لا يكلف الناس بالمعرفة التفصيلية في مجال المعرفة، ويكتفى منهم بالمعرفة والالتزام الإجمالي بما هو الحق في الواقع في مجال العمل؛ لقصورهم عن بلوغ أغوار المعارف الدقيقة.

وأما خواص الناس من العلماء وأهل الفضل فإنه لا يكتفى منهم بالعلم الإجمالي، وذلك لأن تفاصيل المعرفة مما لابد منها في حفظ الدين وتثبيت عقائد المسلمين، وهذا مما لا يتم عبر المعرفة الإجمالية، وحيث إن المعرفة

التفصيلية مقدورة للخواص يكلفون بها.

ولا يبعد القول بأن المعرفة الإجمالية واجب عيني على الجميع، إلاّ أن المعرفة التفصيلية واجب كفائي. نعم لاشك في أن تفاوت مراتب الناس وتفاضلهم في المعرفة يرجع إلى حدود معرفتهم بمواصفات الإمام وخصوصياته، ولعل إلى هذا تشير الروايات التي تقول: «من زاره عارفاً بحقه وجبت له الجنة»[١] «وأن قدر قرب الناس منهم عليهم السلام يعرف بقدر روايتهم ومعرفتهم عنهم»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار.

نعم إذا توقف حفظ الشريعة وتثبيت العقائد على المعرفة التفصيلية فحينئذ يجب على العلماء التصدي لبيان ذلك وتحديده؛ لأن ذلك من الواجبات النفسية التي لا يضاهيها واجب، وبذلك يظهر أن معرفة علم الإمام تعود إلى معرفة الإمام عليه السلام، فتكون من ضروريات الدين، فيترتب على إهمالها المعصية، وعلى إنكارها ما يترتب على إنكار الضروري، وواضح أن المعرفة التفصيلية نسبية وتكون على حسب مستويات العارفين واستعداداتهم إذ لا يمكن الإحاطة التفصيلية التامة بخصائص الإمام الإلهية لمحدودية العارف.

وكيف كان فإن معرفة علم الإمام عليه السلام يقع في ضمن مطالب:

---

١ - انظر مصباح المتهجد: ص٧٧٢.

٢ - انظر جواهر الكلام: ج٤، ص٨؛ نهج السعادة: ج٧، ص٢٣.

المطلب الأول: في مراتب علم الإمام عليه السلام وطرقه

إن حقيقة علم الإمام عليه السلام من الأسرار الغيبية التي لا يمكن إدراك كنهه وحقيقته بواسطة العقل، شأنه شأن سائر الصفات الغيبية التي لا سبيل للعاقل من دركها سوى مراجعة الشرع وإن كان للعقل دور في فهمها وتوجيهها، ومن هنا لابد من الرجوع إلى النص لاستخراج تعريف علم الإمام وفهم حدوده وأبعاده، ولدى مراجعة النصوص العديدة الواردة بهذا الشأن وجدنا أنها لم تعرف العلم تعريفاً واحداً، بل أشارت إلى أن علومهم على مراتب عمدتها ثلاث:

المرتبة الأولى: العلم الجبلي

والمراد به العلم الذي أودعه الله سبحانه في نفوس الأئمة عليهم السلام منذ أن خلقهم، وفيه مزايا ثلاث:

١ـ أنه لا ينفك عن وجودهم المبارك.

٢ـ أنه لا يحصل بالتعلم والتعليم، بل بالخلق والتكوين.

٣ـ أنه محيط بالحقائق فلا يخالطه جهل أو شك أو خطأ.

ومصدر هذا العلم روح الإمام وجوهره النفسي؛ لسموها وتجردها، وهذا ما تؤكده روايات النورانية الدالة على أن روح الإمام كروح النبي مشتقة من نور الله سبحانه، والنور ذاتيه العلم والتجرد والإحاطة، فلا ينفك عنه أو يتخلف.

وتوضيح ذلك: أن النور في اللغة والعرف والمصطلح هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره[١]، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[٢] وهو نوعان مادي محسوس تبصره وتبصر به العين، ومعنوي يبصره ويبصر به القلب الحق، من مصاديقه العقل والإيمان والقرآن كما جاءت به النصوص[٣]، والإمام الذي يأتم به الناس هو المصداق الأكمل للنور؛ لأنه التجسيد الحي للحق والإيمان به والعمل لأجله.

وبه ترتفع غواشي الجهل والضلالة لمن يكون بين الناس ويجد اختلافهم في العقائد والآراء والأخلاق والدوافع فلا يضيع أو ينخدع من يقتدي بالإمام، بل إن حقيقة الإمام في روحه وقلبه هي النور، فكل ما للنور من

١ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٧، (نور)؛ لسان العرب: ج٥، ص٢٤٠، (نور)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٥٠٤، (نور)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٥، ص١٣٤، بصيرة (٥٧)؛ وانظر أنوار التنزيل: ج٢، ص٤٨٠.

٢ – سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

٣ – مجمع البيان: ج٤، ص١٥٢؛ وانظر الآيات ١٥ من سورة المائدة، ٥٢ من سورة الشورى، ٢٢ من سورة الزمر.

الصفات والكمالات تثبت له، وصفات النور هي:

١ـ التجرد والنزاهة عن مخالطة الظلمة.

٢ـ الكشف عن الأشياء وهو من ذاتياته.

٣ـ الإحاطة بالأشياء المنكشفة؛ لأنه علة الكشف وسببه.

٤ـ الاستغناء في الفعل، فإن كاشفية النور ذاتية، لا يحتاج إلى غيره فيها.

٥ـ الظهور العام، فإن النور ظاهر في نفسه لكل صاحب بصر أو بصيرة، فلا يخفى أمره إلاّ على الأعمى الذي أعماه الجهل والضلالة، وهذه الخصوصيات مودعة في حقيقة النور منذ أن خلقه الله سبحانه وجعله، وجميع هذه الخصوصيات والمزايا ثابتة للأئمة عليهم السلام ومشهودة فيهم.

فجميع الأشياء منكشفة لهم وحاضرة عندهم، وهم حجة على جميع الخلائق، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾[1] بالدلالة التضمنية لصدق النور على كل ما يهدي، فيشمل القرآن والإمام عليه السلام[2]، أو بالنصوص العامة التي لازمت بين القرآن والإمام، ونصت على عدم افتراقهما كحديث الثقلين وحديث الوصية ونحوهما، فإنها تدل على أن كل ما يثبت للقرآن من الأوصاف يثبت للإمام عليه السلام بقانون الملازمة أو الاتحاد، أو النصوص الخاصة التي فسرت النور بالإمام عليه السلام،

١ – سورة التغابن: الآية ٨.

٢ – انظر تفسير الرازي: ج١١، ص٢٢، تفسير الآية المزبورة.

وهي متضافرة في الألفاظ ومتواترة في المعنى.

منها: صحيحة الكابلي قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن معنى الآية فقال: «يا أبا خالد! النور - والله - الأئمة من آل محمدصلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة، وهم - والله - نور الله الذي أنزل، وهم - والله - نور الله في السموات الأرض»[١].

ومنها: صحيحة محمد بن الفضيل عن أبي الحسنعليه السلام قال: «والإمامة هي النور»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار[٣].

ويدل على هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٤] إلى آخر الآية.

حيث ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد من المشكاة هو نبينا المصطفىصلى الله عليه وآله، فكأنه قال: مثل محمدصلى الله عليه وآله وهو المشكاة والمصباح قلبه والزجاجة صدره

١ - تفسير القمي: ج٢، ص٣٧١؛ الكافي: ج١، ص١٩٤، ح١.
٢ - الكافي: ج١، ص١٩٥، ح٦.
٣ - انظر الكافي: ج١، ص١٩٥، ح٤.
٤ - سورة النور: الآيات ٣٥- ٣٧.

شبهه بالكوكب الدري، ثم رجع إلى قلبه المشبه بالمصباح فقال: يوقد هذا المصباح من شجرة مباركة يعني إبراهيمعليه السلام؛ لأن أكثر الأنبياء من صلبه. يكاد نور محمدصلى الله عليه وآله يتبين للناس ولو لم يتكلم به[١]، كالزيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه النار.

وعن الباقرعليه السلام: «المشكاة نور العلم في صدر النبيصلى الله عليه وآله... والزجاجة صدر عليعليه السلام صار علم النبيصلى الله عليه وآله إلى صدر عليعليه السلام ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال: يكاد العالم من آل محمدصلى الله عليه وآله يتكلم بالعلم قبل أن يسأل ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني إماماً مؤيداً بنور العلم والحكمة في أثر إمام من آل محمدصلى الله عليه وآله، وذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله عز وجل خلفاءه في أرضه، وحججه على خلقه، لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم[٢] والروايات بهذا المضمون كثيرة مختلفة في بعض ألفاظها متواترة في مضمونها[٣]، وتشهد لصحة دلالتها قرينتان داخليتان:

الأولى: قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فإن الغرض من التشبيه هو التجسيد والتمثيل للنور الإلهي، وهذا ما لا يتحقق إلاّ بشخصية النبيصلى الله عليه وآله ومن يقوم مقامه وهو الإمامعليه السلام.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ فإنها دالة على أن هذا النور

١ - انظر مجمع البيان: ج٧، ص٢٥١، تفسير الآية المزبورة؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٥٠٤، (نور).
٢ - انظر التوحيد: ص١٥٧ - ١٥٨، ح٣.
٣ - انظر تفسير كنز الدقائق: ج٩، ص٢٨٥، وما بعدها.

له بيت ومحل إقامة يهتدي إليه الناس، بل نص على أن النور هو رجال في تلك البيوت، وهذا ما لا يتحقق إلاّ بالنبي والأئمة عليهم السلام، يؤكده ما رواه أنس بن مالك وبريدة أن النبي صلى الله عليه وآله لما قرأ الآية: سئل أيّ بيوت هذه؟ فقال: «بيوت الأنبياء» فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله! هذا البيت منها - يعني بيت علي وفاطمة عليهما السلام - قال: «نعم من أفاضلها»[1].

وقد اتفقت كلمة الفريقين على أن الآية نازلة في أهل البيت عليهم السلام، بل روى العلامة البحراني قدس سره تسعة أحاديث من طرقنا وأربعة من طرق العامة تدل على ذلك[2]، وأضاف التستري في إحقاق الحق الكثير مما روي من طرقهم، وقرره أعلامهم في كتبهم مثل الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل، والسيوطي في الدر المنثور، والثعلبي في الكشف والبيان، والبغدادي في عوارض المعارف، والآلوسي في روح المعاني وغيرهم[3].

ومن طرقنا روى الصدوق قدس سره في كمال الدين مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «وإنما الحجة في آل إبراهيم لقول الله عز وجل: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[4] فالحجة الأنبياء وأهل بيوتات الأنبياء حتى تقوم الساعة؛ لأن كتاب الله ينطق بذلك، ووصية الله جرت بذلك في العقب من البيوت التي

١ - مجمع البيان: ج٧، ص٢٥٣، تفسير الآية المزبورة.
٢ - انظر غاية المرام: ص٣١٧.
٣ - إحقاق الحق: ج٣، ص٥٥٨؛ ج٩، ص١٣٧؛ ج١٤، ص٤٢١؛ ج١٨، ص٥١٥.
٤ - سورة النساء: الآية ٥٤.

رفعها الله تبارك وتعالى على الناس، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ وهي بيوتات الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى»[١] وهم علي وآله عليهم السلام.

وهو المعنى الوارد في الزيارة الجامعة عن الجواد عليه السلام: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين حتى منّ علينا بكم، فجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها أسمه»[٢] وإطلاقها يشمل البيوت المعنوية، فيكون المعنى أنهم مصدر العلم والحكمة الإلهية، والبيوت المادية أي مساكنهم ومراقدهم[٣]، فهم مصدر العلم الإلهي ومظهره.

والحاصل: أن القرآن الكريم دل على أن روح النبي والأئمة عليهم السلام جوهرها النور، والنور لا يشوبه جهل أو ظلام أبداً، بل هو حقيقة شفافة منزهة عن كل عيب منذ خلقها وتكوينها، وهذا ما تؤكده الروايات المتواترة بطرق الفريقين، والدالة على أن أرواح النبي والأئمة اشتقت من نور الله سبحانه، وبهذا صاروا مظاهر علمه ومعادن حكمته.

ففي رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وهو يخاطب علياً عليه السلام: «يا علي! أن الله تبارك وتعالى كان ولا شيء معه، فخلقني وخلقك روحين من نور جلاله، فكنا أمام عرش ربّ العالمين نسبح الله ونقدسه ونحمده ونهلله»[٤].

---

١ - كمال الدين: ص٢١٨، ح٢.

٢ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٧٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص١٦١، ح١٨٣.

٣ - انظر بحار الأنوار: ج١٠٢،ص١٤١.

٤ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣، ح٥؛ شرح أصول الكافي: ج٤، ص٢٢٧، ح٢؛ تأويل

وفي حديث النورانية عن أمير المؤمنينعليه السلام: «كنت أنا ومحمد نوراً واحداً من نور الله عز وجل، فأمر تبارك وتعالى ذلك النور أن يشق فقال للنصف: كن محمداً، وقال للنصف: كن علياً، فمنها قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي مني إلاّ علي»[١].

ويبدو أن الحديثين ناظران إلى الأسبقية في الرتبة أو في الرتبة والزمان أيضاً على سائر الأئمة الآخرينعليهم السلام؛ لأنهم جميعاً جوهر واحد من حيث الحقيقة النورية، ففي رواية جابر عن أبي جعفرعليه السلام قال: قال: «أن الله تعالى خلق أربعة عشر نوراً من نور عظمته قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا»[٢].

ونلاحظ أن الحديث الأول ناظر إلى خلق الروح، والثاني ناظر إلى خلق الروح والجسد، وأما الحديث الثالث فناظر إلى خلق أرواح النبي وأهل بيته جميعاً، فهم أربعة عشر نوراً، ولعل الزمان المذكور من باب الكناية عن طول المدة، أو محمول على الأعوام الإلهية لا الزمانية، وربما يحمل على المعنى الحقيقي؛ إذ لا يوجد ما يمنع من المدة المذكورة عقلاً أو شرعاً.

وفي حديث الهلالي عن الصادقعليه السلام: أن الله سبحانه علم الملائكة بحقيقة النور الذي اشتقت منه النبوة والإمامة فقال لها: «هذا نور من نوري، أصله

الآيات: ج٢، ص٧٧٣، ح٤.

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٣، ح١.

٢ - المحتضر: ص١٢٩.

نبوة، وفرعه إمامة، فأما النبوة فلمحمد عبدي، وأما الإمامة فلعلي حجتي ووليي، ولولاهما ما خلقت خلقي»[١] ونصه يؤكد ثلاثة معان:

الأول: أن قوام النبوة بالعبودية لله سبحانه، وهذه من خصوصيات أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ ارتضاه سبحانه عبداً له، وهو يكشف عن سر علو مقامه ورتبته.

الثاني: أن علياً عليه السلام حجة على الأمة في الإيمان وغيره سيحتج به الله سبحانه.

الثالث: أن النبي والإمام عليهما السلام هما العلة الغائية للخلق.

وفي حديث سلمان رضوان الله عليه ما يشير إلى مزاياهم وخصوصياتهم، حيث قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا سلمان! فهل علمت مَنْ نقبائي ومَنْ الاثنا عشر الذين اختارهم الله للإمامة بعدي؟» فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا سلمان! خلقني الله من صفوة نوره ودعاني فأطعت، وخلق من نوري علياً فدعاه فأطاعه، وخلق من نوري ونور علي فاطمة فدعاها فأطاعته، وخلق مني ومن علي وفاطمة الحسن والحسين فدعاهما فأطاعاه، فسمّانا بالخمسة الأسماء من أسمائه: الله المحمود وأنا محمد، والله العلي وهذا علي، والله الفاطر وهذه فاطمة، والله ذو الإحسان وهذا الحسن، والله المحسن وهذا الحسين، ثم خلق منا من صلب الحسين تسعة أئمة فدعاهم فأطاعوه قبل أن يخلق الله سماءً مبنية وأرضاً مدحية أو هواء أو ماء أو ملكاً أو بشراً، وكنا بعلمه نوراً نسبحه ونسمع ونطيع»[٢].

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج١٥، ص١١، ح١٣.
٢ - بحار الأنوار: ج١٥، ص٩، ح٩.

وورد مضمون هذا الحديث بطرق العامة عن سلمان أيضاً مع بعض الاختلاف في الألفاظ[١]، وروى ابن المغازلي في المناقب مسنداً، وكذلك ابن الجوزي في تذكرته ما فيه مضمون الحديث المتقدم، وفي لفظه: «ففيّ النبوة، وفي علي الخلافة»[٢].

وفي رواية ابن أبي الحديد عن أحمد بن حنبل في مسنده، وفي كتاب فضائل علي عليه السلام: «فكان لي النبوة، ولعلي الوصية»[٣].

وروى الصفوري الشافعي في (نزهة المجالس) بسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله خلقني وخلق علياً نورين بين يدي العرش نسبح الله ونقدسه، قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما خلق الله آدم أسكننا في صلبه، ثم نقلنا من صلب طيب وبطن طاهر حتى أسكننا في صلب إبراهيم، ثم نقلنا من صلب إبراهيم إلى صلب طيب وبطن طاهر حتى أسكننا في صلب عبد المطلب، ثم افترق النور في عبد المطلب فصار ثلثاه في عبد الله، وثلثه في أبي طالب، ثم اجتمع النور مني ومن علي في فاطمة، فالحسن والحسين نوران من نور ربِّ العالمين»[٤] وتدل هذه الأحاديث على أن النور الإلهي هو الذي يكوّن حقيقة النبي والإمام في أصلها وجوهرها، وهي مشتقة من صفاته العليا، وهذه الحقيقة تؤكد ثبوت ثلاث خصائص إلهية لهم.

١ - انظر فرائد السمطين: ج١، ص٤١، ح٥.
٢ - انظر المناقب (لابن المغازلي): ص١٤٤، ح١٣٠؛ تذكرة الخواص: ص٥٠.
٣ - شرح نهج البلاغة: ج٩، ص١١٧.
٤ - شرح احقاق الحق: ج٥، ص٢٤٨؛ نزهة المجالس: ج٢، ص١٩٥.

أولها: مظهريتهم للأسماء الإلهية؛ إذ إنهم عليهم السلام الأسماء الحسنى والأمثال العليا التي تتجلى فيهم المظاهر الإلهية كما ورد في الآيات والروايات. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] وتضافرت الروايات على أن الأسماء الحسنى هم الأئمة عليهم السلام، ففي صحيحة معاوية بن عمار عن الصادق عليه السلام في بيان معنى الآية المباركة قال: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلاّ بمعرفتنا»[2].

والمقصود بيان المصداق لا حصر المعنى على ما حقق في محله، ووجه المناسبة هو أن الاسم في اللغة ما يدل به على الشيء والجمع أسماء، فإذا دلت على معاني الكمال في ذاته أو فعله توصف بالحسنى كالقادر والحي والعالم والرازق والخالق ونحوها، وعلى هذا لا يختص الاسم بما ذكر، بل يشمل الأنبياء والأولياء؛ لأنهم يدلون على كمالات الخالق وصفاته بصفاتهم وأعمالهم، وكلما ارتفعت مقاماتهم كانت التسمية بالأسماء الحسنى أنسب، وحيث إن هذا المعنى يستدعي قابلية عالية في القابل يبتلى بالجحود - عادة - من قبل القاصرين أو المعاندين كالماديين والدهريين الذين نسبوا الخلق والإحياء والرزق من الأسماء إلى المادة أو الدهر، والوثنيين الذين نسبوا النفع والضرر إلى أصنامهم، وبعض الجاهلين الذين ينسبون الفعل والتأثير

١ - سورة الأعراف: آية ١٨٠.
٢ - الكافي: ج١، ص١٤٣، ح٤.

إلى بعض الأسباب الكونية ونحوها وبعضهم ينسبون إلى الباري عز وجل بعض صفات النقص جهلاً كالمجسمة والمجبرة والمعطلة ونحوهم، والكل ملحد في أسمائه كما وصفتهم الآية المباركة لأنهم يحيدون عن الطريق الحق.

والملحوظ أن هذا الجحود مما ابتلي به الأئمة عليهم السلام؛ إذ انقسم الناس تجاههم بين معتدل منصف آمن بهم بحسب ما تقتضيه قواعد العلم والإيمان، وسلم لفضلهم ومكانتهم في التكوين والتشريع وبين منكر جاحد بكل ذلك، وساواهم بغيرهم، وبين معادٍ ناصب للعداء لهم حتى قتلهم وشردهم وعرضهم إلى صنوف الأذى، ولذا قال سبحانه: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

وثانيها: مظهرية العلوم الإلهية، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٢] إذ اختلف المفسرون في المراد من الإمام في الآية، فذهب الأكثر إلى أنه اللوح المحفوظ، وذهب بعضهم إلى أنه صحائف الأعمال[٣]، وبعض آخر إلى أنه القرآن الكريم[٤]، إلّا أن الروايات المباركة الواردة بطرق الفريقين نصت على أن المراد من الإمام هو علي أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من بعده عليهم السلام ويوافقه الظهور لتبادر المعصوم من لفظ

١ - سورة الأعراف: الآية ١٤٧.

٢ - سورة يس: الآية ١٢.

٣ - مجمع البيان: ج٢، ص٢٦٣؛ تفسير الميزان: ج٢٢، ص٦٨؛ وانظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٠٨، تفسير الآية المزبورة.

٤ - تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٣٥، تفسير الآية المزبورة.

الإمام، بل هو ما تشهد له قرينة الوصف بصيغة اسم الفاعل، (مبين) أي الذي يبيّن ويوضح المعاني[١] بالنطق الفصيح أو بالعمل الصريح.

ففي معاني الأخبار عن الباقر عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: «لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ قام أبو بكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله! هو التوراة؟ قال: «لا» قالا: فهو الأنجيل؟ قال: «لا» قالا: فهو القرآن؟ قال: «لا» قال: فأقبل أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هو هذا إنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء»[٢].

ويتوجه إحصاء العلم فيه عليه السلام بالقول بأنّ خزانة العلوم والمعارف الإلهية عنده، فلا يمكن معرفته سبحانه إلاّ بواسطته، وهو يتناسب مع حجيته على الخلائق للملازمة بين الحجية والعلم، وهذا ما تؤكده الروايات الأخرى.

ففي بصائر الدرجات بسنده عن سورة بن كليب قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «والله أنا لخزان الله في سمائه وأرضه لا على ذهب ولا على فضة إلاّ على علمه»[٣].

وفي رواية سدير عن أبي عبد الله عليه السلام: «نحن خزان الله على علم الله نحن

---

١ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٥٧- ١٥٨ (بان)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٢١٨، (بين).

٢ - معاني الأخبار: ص٩٥، ح١.

٣ - بصائر الدرجات: ص١٢٤، ح١؛ الكافي: ج١، ص١٩٢، ح٢.

تراجمة وحي الله، نحن الحجة البالغة على ما دون السماء وفوق الأرض»[١].

وفي رواية علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «أن الله خلقنا فأحسن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا، فجعلنا خزانه في سماواته وأرضه، ولولانا ما عرف الله»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار، وهي كثيرة.

ووجه تسميتهم بالخزائن هو أنهم مفاتيح العلوم الإلهية والأمناء على أسرارها، ففي اللغة خزائن السموات والأرض ما خزنه الله فيهما من الارزاق ومعايش العباد، وخزائن الله: غيوب الله سميت خزائن لغيوبها واستتارها. وخزن المال: غيبه. يقال: خزنت المال واختزنته أي كتمته وجعلته في المخزن، وكذا خزنت السر أي كتمته[٣]، والخازن هو الحافظ للشيء والأمين عليه، ومن هنا أطلق على ملائكة النار اسم الخزنة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾[٤].

ويمكن أن نجمع بين الأقوال المختلفة في بيان معنى الإمام ونرفع التنافي بينها بأحد وجوه:

الوجه الأول: أن نحمل قلب النبي والإمام عليهما السلام على أنه اللوح المحفوظ من باب الوحدة العينية أو المصداقية باعتبار أنه وعاء المشيئة الإلهية ومظهر

١ – بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٠٥، ح٤.
٢ – مسائل علي بن جعفر: ص٣١٩– ٣٢٠، ح٨٠١.
٣ – مجمع البحرين: ج٦، ص٢٤٣، (خزن).
٤ – سورة الزمر: الآية ٧٣.

الإرادة الربانية فكل ما ينتقش في اللوح المحفوظ من المقدرات الإلهية ينقش في قلوبهم بسبب الإحاطة النورية، أو الإلهام أو المشاهدة ونحوها من وجوه العلم، وهذا ما يؤكده قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا صاحب اللوح المحفوظ ألهمني الله عز وجل علم ما فيه»[١] كما أن أعمال العباد تعرض عليهم في كل اثنين وخميس ليكونوا شهداء عليها، أو ممضين لها على ما عرفته من المباحث المتقدمة.

كما أنهم القرآن الناطق الذي يشرح تفاصيله ويبين خاصه ومقيده وناسخه ومنسوخه وظاهره وتأويله، ولا يتنافى القرآن الصامت الذي يحصي الأشياء بإجمالها وبين القرآن الناطق الذي يحصيها بتفاصيلها.

ويتحصل: أن الأقوال المذكورة تتوافق مع الروايات التي نصت على أن الإمام المبين هو الإمام المعصوم عليه السلام من جهة أن اللوح المحفوظ هو قلب الإمام، أو من باب اتحادهما في المصداق باعتبار أن اللوح المحفوظ له مرتبتان ظاهرة وباطنة، وقلب الإمام هو الرتبة الظاهرة منه، كما أطلق اسم السراج على رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله سبحانه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٢] من باب الاتحاد المصداقي بينهما واختلاف الرتبة، فإن الشمس سراج الماديات والنبي صلى الله عليه وآله سراج المعنويات، فتأمل.

الوجه الثاني: أن نحمل اللوح المحفوظ على معناه الباطن وهو علم الله

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٤، ح١.
٢ - سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

سبحانه المحيط بكل الأشياء، ولا يناله تحريف أو تغيير، وإليه يشير قول البعض منهم ابن عباس، حيث فسروا اللوح المحفوظ بلوح طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب[١]، كما يشهد له قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾[٢] بناءً على أن محفوظاً وصف للوح[٣] فيدل على أن العلم الإلهي لا يطلع عليه إلّا من ارتضاه واصطفاه كالملك في بعض مراتبه، والنبي والإمام؛ في مرتبة أوسع وأعظم، بما أنه خازن العلم الإلهي، وحيث إن هذا العلم يشمل صحائف الأعمال والقرآن الكريم تتوافق الأقوال الثلاثة مع مفاد الروايات المباركة.

الوجه الثالث: أن نحمل اللوح المحفوظ على معناه الظاهر، وهو المحل الذي تكتب فيه المقدرات الإلهية، ويتوافق مع مفاد الروايات، وستمر عليك الأخبار الدالة على أن الله سبحانه عموداً من نور يجعله للإمام حتى يرى به الخلائق وأعمالهم، ويطلع به على الغيب[٤]، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[٥] .

كما يتوافق مع تفسير الإمام المبين بالقرآن أو بصحائف الأعمال؛ لأن

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٣١٩؛ تفسير الأمثل: ج٢٠، ص٧٥، تفسير الآية المزبورة.
٢ - سورة البروج: الآيتان ٢١-٢٢.
٣ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٣١٩، تفسير الآية المزبورة.
٤ - انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٠٠، ح١؛ بصائر الدرجات: ص٥٧٦، ح٥؛ الهداية الكبرى: ص٣٥٤.
٥ - سورة الجن: الآيتان ٢٦- ٢٧.

الجميع من عالم الغيب، والإمام عليه السلام ظاهر على ذلك العالم ومطلع عليه، ويعضد هذا الجمع قول النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: «أن الله خلق من نور قلبك ملكاً فوكله باللوح المحفوظ ، فلا يخط هناك غيب إلاّ وأنت تشهده»[١] هذا بناء على أن عمود النور هو الملك، وأما بناء على أنه حقيقة أخرى فيكون للإمام طريقان لمعرفة ما في اللوح المحفوظ عمود النور والملك، فارتفاع التنافي يكون أجلى. هذا وقد ذهب جمع إلى أن اللوح المحفوظ من الحقائق التي استأثر الله سبحانه بالعلم بكيفيته، وليس لنا علم بحقيقته، فلذا نقتصر في فهم معناه على ما ورد فيه من الآثار الصحيحة[٢]، وقد عبر عنه بالكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾[٣] وبالكتاب المكنون في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[٤].

وعليه تكون الروايات الواردة في تفسير الإمام المبين بالنبي والإمام عليهم السلام واردة لبيان المعنى المراد حصراً، أو لبيان المصداق الأكمل منه.

وثالثها: مظهرية الولاية التكوينية على الخليقة كما يفيده ما دل على العلاقة بين أسمائهم وأسماء الله سبحانه، فالمحمود اسم لله سبحانه أشتق منه اسم محمد، ولعل وجهه: أن المحمود اسم مفعول وهو الذي يمدح على كمالاته

١ - مشارق أنوار اليقين: ص١٣٦.

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٥٠، (لوح)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٤٦٨، بصيرة (٢٢).

٣ - سورة الحج: الآية ٧٠.

٤ - سورة الواقعة: الآيتان ٧٧- ٧٨.

وخصاله العالية ومحمد يقال لمن كثرت خصاله المحمودة[١]، وهذه الصفة ملازمة لشخصية رسول الله ﷺ في العالمين منذ بدء الخليقة وإلى يوم القيامة، إذ بشر برسول الله ﷺ جميع الأنبياء، وذكروا أوصافه وخصاله لأممهم، وسيظل كذلك محبوباً ممدوحاً عند الكل، بل وصفه ربه تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢] بل في مجمع البحرين: محمد اسمه ﷺ سمي به لأن الله وملائكته وجميع أنبيائه ورسله وجميع أممهم يحمدونه، ويصلون عليه[٣].

والعالي اسمه سبحانه وقد اشتق منه اسم علي عليه السلام، ومعنى العلي: الرفيع القدر، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[٤] يعلو أن يحيط به وصف الواصفين[٥]، فلا شيء أعلى منه شأناً، ولا أكبر سلطاناً[٦]، وهذه الصفات ملازمة لشخصية علي عليه السلام لعلو قدره عند الله وعند رسوله، بل في جميع الشرائع السماوية، وسلطانه في الدنيا والآخرة، لكنه في الدنيا علا القلوب حتى أن أعداءه وخصومه أذعنوا له في قلوبهم، وجحدوه بألسنتهم، كما هو معروف مشهور، وفي الآخرة سلطانه ظاهر على كل شيء حتى الجنة والنار فإنه قسيمهما.

---

١ – انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٥٦، (حمد).
٢ – سورة القلم: الآية ٤.
٣ – مجمع البحرين: ج٣، ص٤٠، (حمد).
٤ – سورة الحج: الآية ٦٢.
٥ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٨٣، (علا).
٦ – انظر كنز الدقائق: ج٩، ص١١٠، تفسير الآية المباركة.

والفاطر هو موجد الشيء ومبدعه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] أي الموجد والمبدع لها على غير مثال سبق[٢]، ولعل اشتقاق فاطمة منه يعود لوجهين:

أحدها: لأن فاطمة ليس لها شبيه أو مثال في مقاماتها وكراماتها، فهي بتول من أحداث النساء، وهي سيدة نساء العالمين، كما أنها فطمت شيعتها من النار، وفطم أعداؤها عن حبها، وفطم الخلق عن معرفتها، وفطمت عن الشر، ورضا الله في رضاها، وغضبه في غضبها، وهي الصديقة الحوراء الإنسية، وهي أم للنبوة والإمامة معاً، إلى غير ذلك من المقامات المعنوية التي وهبها الله سبحانه لها، وميزها على جميع الخلائق، وهذه المقامات فطرها الله سبحانه عليها فكانت مبتدعة الله سبحانه إذ لا شبيه لها ولا نظير، فهو الفاطر وهي فاطمة، وقرينة المقابلة في قوله: «فأنا الفاطر وهذه فاطمة»[٣] تشهد لهذا التوجيه؛ لأنها عليها السلام المصداق الأجلى لإبداعه سبحانه.

ثانيها: اشتراك الاسمين في معناهما، لأن الفطر هو الإيجاد، وبه ينقطع العدم بالوجود، والفطم هو القطع أيضاً، ومنه يسمى الصبي المفصول عن الرضاع بالفطيم[٤]، وكلاهما يشتركان في الغاية، وفاطمة قطعت بنورها ظلمات الكون كما قطعت الضلالة والجهل بها وبأولادها، كما تدل عليه

١ - سورة فاطر: الآية ١.

٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٠، (فطر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٨، (فطر)؛ وانظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٣١، تفسير الآية المزبورة.

٣ - علل الشرائع: ج١، ص١٣٥، ح٢؛ مدينة المعاجز: ج٣، ص٤٤٣، ح١١.

٤ - انظر لسان العرب: ج١٢، ص٤٥٤، (فطم).

بعض الأحاديث الواردة عن أبي الحسن عليه السلام [١]، وفي رواية ابن مسعود في حديث طويل عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «أن الله تعالى خلقني وخلق علياً من نور عظمته قبل أن يخلق الخلق بألفي عام؛ إذ لا تقديس ولا تسبيح، ففتق نوري فخلق منه السموات والأرض، وفتق نور علي بن أبي طالب عليه السلام فخلق منه العرش والكرسي، وفتق نور الحسن فخلق منه اللوح والقلم، وفتق نور الحسين فخلق منه الجنان والحور العين، ثم أظلمت المشارق والمغارب فشكت الملائكة إلى الله تعالى أن يكشف عنهم تلك الظلمة، فتكلم الله جل جلاله بكلمة فخلق منها روحاً، ثم تكلم بكلمة فخلق من تلك الروح نوراً، فأضاف النور إلى تلك الروح، وأقامها أمام العرش، فزهرت المشارق والمغارب، فهي فاطمة الزهراء، ولذلك سميت الزهراء؛ لأن نورها زهرت به السموات»[٢].

والإحسان معناه ظاهر، وهو من الألفاظ الجامعة لكل خير[٣]، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس أبناء ما يحسنون»[٤] أي ما يتقنون من العلوم والأفعال، ويشمل الماديات والمعنويات، ولذا عرفوه بأنه كل مبهج مرغوب فيه عقلاً أو حساً أو هوىً[٥].

١ – انظر علل الشرائع: ج١، ص١٧٨، ح٢.
٢ – الفضائل: ص١٢٧، (بتصرف).
٣ – انظر مجمع البيان: ج٦، ص١٩١، تفسير الآية ٩٠ من سورة النحل.
٤ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٣٦، (حسن).
٥ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٣٥، (حسن)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٢، ص٦٧، بصيرة (١٣).

ووجه تسميته سبحانه بذي الإحسان ظاهر، وإنما الكلام في وجه علاقته بالحسن عليه السلام حيث قال: «والله ذو الإحسان وهذا الحسن»[١] وفيه أكثر من توجيه:

أحدها: أنه سبحانه يتصف بكل الصفات الخيرة والأفعال الحسنة، وقد جعل الحسن عليه السلام مظهراً لكل ذلك، فلذا قال: «وهذا الحسن» ليكون شاهداً ودليلاً حسياً يكشف عن المعنى الغيبي بما يتسم به من كمالات وفضائل.

ثانيها: أنه من باب بيان المثل الذي يكشف حسن الباري وجماله في أفعاله وعلومه.

ولعل الفقرة تشير إلى صفات الذات الإلهية وكمالاتها، ففي اللغة ذا يرمز إلى ذات الشيء وهو نفسه وحقيقته[٢]. قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٣] أي حقيقته الجليلة؛ لما لها من العظمة والكبرياء، ومستحقة للحمد والمدح والتكريم، لنزاهتها عن كل ما لا يليق، فذو الجلال والإكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه أسماء الجمال والجلال جميعاً، وهو يتطابق مع معنى ذي الإحسان، فحقيقته الحسن والجمال[٤]، وقال سبحانه:

١ - مصباح الشريعة: ص٦٤؛ مقتضب الأثر: ص٦.
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٣٣،(ذو)؛ مجمع البحرين: ج١، ص١٥٣،(ذا).
٣ - سورة الرحمن: الآية ٢٧.
٤ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص٣٣٧؛ تفسير الميزان: ج٢٧، ص١٠٦؛ كنز الدقائق: ج١٢، ص٥٦٥ تفسير الآية المزبورة.

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾(١) أي ذوات ألوان من النعيم المادي والمعنوي.

والمحسن أسم فاعل، وهو معطي الإحسان ومفيضه، مشتق من الإحسان؛ لما ثبت من أن كل صفات الفعل تعود إلى صفات الذات، ويتوافق هذا المعنى مع الروايات الكثيرة الدالة على أن اسم الحسين أشتق من اسم الحسن(٢).

وفي الروايات الأخرى ما يؤكد هذا المعنى، فقد روي بطرق الفريقين عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال له: «يا بن مسعود! إن الله تعالى خلقني وخلق علياً والحسن والحسين عليهم السلام من نور قدسه، فلما أراد أن ينشئ خلقه فتق نوري وخلق منه السموات والأرض، وأنا - والله - أجل من السموات والأرض، وفتق نور علي وخلق منه العرش والكرسي، وعلي - والله - أجل من العرش والكرسي، وفتق نور الحسن عليه السلام وخلق منه الحور العين والملائكة، والحسن - والله - أجل من الحور العين والملائكة، وفتق نور الحسين عليه السلام وخلق منه اللوح والقلم، والحسين - والله - أجل من اللوح والقلم»(٣).

وتدل الرواية على ثلاثة أمور:

أحدها: أن خلق العالم حدث ببركة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن نوره.

---

١ - سورة الرحمن: الآية ٤٨.

٢ - معاني الأخبار: ص٥٨، ح٨؛ علل الشرائع: ج١، ص١٣٩، ح٩؛ وانظر المناقب (لابن شهراشوب): ج٣، ص٣٩٨.

٣ - كنز الفوائد: ص٢١١، ح٤؛ بحار الأنوار: ج٣٦، ص٧٣، ح٢٤؛ عوالم العلوم (الإمام الحسين عليه السلام): ص٦، ح١.

ثانيها: أن أركان العوالم الغيبية من العرش والكرسي والحور والملائكة خلقت من نور علي والحسن٤، والعرش والكرسي هما مظاهر القدرة والعلم الإلهيين كما في الأخبار[٤]، وهما يتناسبان مع اسم علي عليه السلام ومقامه، والحور والملائكة مظاهر اللطف والجمال الإلهي، وهما يتناسبان مع اسم الحسن عليه السلام ومقامه.

ثالثها: أن اللوح والقلم خلقا من نور الحسين عليه السلام، وبهما تجري المقدرات الإلهية في سائر عوالم الوجود المادي والمعنوي كما في الأخبار المتضافرة بطرق الفريقين[٥]، فاللوح كتاب الله الذي كتب فيه ما يكون إلى يوم القيامة، والقلم هو التقدير الإلهي في اللوح، وهما يتناسبان مع اسم الحسين عليه السلام ومقامه وخصوصياته المعنوية؛ إذ جعل الله سبحانه الحسين عليه السلام مظهر محبته وعزته، ولذا جعل حبه مكنوناً في قلوب العالم، وجعله مصباح الهدى وسفينة النجاة وباب الله ورحمته، وأعطاه من الفضل والكرامة ما لم يعط لأحد من أوليائه، وتؤكد ولايتهم التكوينية على الخلق رواية أحمد بن حنبل في أكثر من مصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الرحمن قبل أن يخلق عرشه بأربعة عشر ألف عام، فلم نزل نتمخض في النور حتى إذا وصلنا إلى حضرة العظمة في ثمانين ألف سنة، ثم خلق الله الخلائق من نورنا، فنحن صنائع الله، والخلق كلهم صنائع لنا»[٦].

٤ - انظر بحار الأنوار: ج٥٧، باب ٥، ح٦- ح٨.
٥ - انظر بحار الأنوار: ج٥٤، باب ٤، ص٣٥٧.
٦ - انظر اللمعة البيضاء: ص٦٤؛ احقاق الحق: ج٥، ص٢٤٦.

وقوله صلى الله عليه وآله: «نحن صنائع الله» ظاهر في معناه؛ إذ لا شك في أنهم مخلوقون مربوبون لله سبحانه لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً من دونه.

وأما قوله صلى الله عليه وآله: « والخلق كلهم صنائع لنا» فيحتمل أكثر من معنى:

منها: أنهم منشأ الخلق ومصدره من جهة الأصل؛ لأن الله خلق الأشياء من نورهم كما تدل عليه (من) النشوية.

ومنها: أنهم منشأ الخلق من حيث الصدور والنشأة؛ لأن المقدرات الإلهية تجتمع في اللوح والقلم، وهما مخلوقان من نور الحسين عليه السلام، ولازم ذلك ان يكونا بأمره وإرادته بإذن الله سبحانه.

ويشهد لهذين المعنيين ظهور السياق وظهور اللام في السببية، وحيث أن نور الحسين عليه السلام يرجع في السلسلة الطولية أو المظهرية إلى نور رسول الله صلى الله عليه وآله لأنه منشأ كل الأنوار يصح نسبة خلق كل الصنائع لهم.

ومنها: أنهم سبب نشوء الخلق من جهة الغاية، بناء على أن اللام في (لنا) للغاية، أي إن الله سبحانه خلق الخلق طراً لأجلهم إما لتوقف كمالاتهم ورقي مراتبهم عليهم أو لأجل إسعادهم، أو لأجل بيان فضلهم ومكانتهم، أو لغير ذلك من الوجوه والاعتبارات، فهم غاية الخلق، ولولاهم لم يخلق الله سبحانه الخلق، وهذا ما أكده حديث الهلالي عن الصادق عليه السلام الذي تقدم شطر منه، وإطلاق الحديث يشمل المعاني الثلاثة، وقد وردت بهذه المضامين

روايات عديدة ذكرها جمع من الأعلام نصاً أو مضموناً[١]، فالمقتضي له موجود والمانع منه مفقود؛ إذ لا مانع عقلي أو شرعي يحول دونه.

وتشترك هذه الأحاديث في الدلالة على حقائق هامة:

الحقيقة الأولى: أن حقيقة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام متكونة من النور الإلهي. وأن جميعهم يشتركون في حقيقة هذا النور.

والحقيقة الثانية: أن جميع المخلوقات ترجع إليهم إما في أصل نشأتها أو في وجودها أو غايتها، ومن كانت هذه صفته لامناص يكون علمه جبلياً في أصل ذاته، ومحيطاً بسائر الموجودات إحاطة وجودية وعلمية تامة لا يتنابها جهل او شك أو زوال، وهذه الحقيقة أشار إليها الأئمة عليهم السلام في أكثر من رواية، ففي رواية أبي بكر الحضرمي عن الصادق عليه السلام: «يا أبا بكر! ما يخفى عليّ شيء من بلادكم»[٢] وعن أبي الحسن عليه السلام في وصف الإمام عليه السلام: «هو مطلع على جميع الأشياء كلها»[٣].

وعن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: «أنا العالم بأنساب الناس في الأصلاب، وأنا أعلم بسرائركم فظواهركم، وما أنتم صائرون إليه، علم

١ – انظر سبل الهدى: ج١، ص٦٩؛ كشف الخفاء: ج١، ص٢٣٧، ح٨٢٦؛ تاريخ دمشق: ج٤٢، ص٦٧؛ إحقاق الحق: ج٥، ص٢٤٦؛ وقد فصلنا البحث فيه من حيث البرهان العقلي في كتابنا (المظاهر الإلهية) فليراجع من رام التفصيل؛ وانظر النبي الأعظم ووجوده النوري: ص٤٣.

٢ – بصائر الدرجات: ص٤٦٣، ح٧.

٣ – بصائر الدرجات: ص٤٦٣، ح٨.

منحنا به من قبل خلق الخلق أجمعين، وبعد فناء السموات والأرضين، ولولا تظاهر أهل الباطل ودولة أهل الضلالة ووثوب أهل الشك لقلت قولاً تعجب منه الأولون والآخرون»[١].

الحقيقة الثالثة: أن النبوة والإمامة من حيث مقاماتها وأشخاصها مقررة منذ أن بدأ الله سبحانه الخلق، فهما أول ما خلق الله سبحانه.

الحقيقة الرابعة: أن النبي والإمام هما أول من عبد الله سبحانه وقدسه، ومعنى ذلك أنهما أول من عرف الله، وبه تحققت الغاية من الخلق، حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] أي ليعرفوا ويعبدوا، وتحديد الجن والأنس هنا من باب التخصيص للأهمية، أو لأنهم المكلفون، أو لأنهم الأعقل، فذكرهم في الآية لا ينفي شمول الآية لغيرهم، لأن كل المخلوقات شاعرة وعاقلة ومكلفة بحسب ما لها من الإدراك والشعور على ما حقق في محله.

الحقيقة الخامسة: إن إمامة علي عليه السلام والأئمة من ولده عليهم السلام مقررة عند الله سبحانه قبل الخليقة وليست بالنص في الدنيا، ولا باختيار الناس أو بيعة أهل الحل والعقد، وهذا التقرير ليس في أشخاصهم فقط ، بل حتى في أسمائهم، بل إن أسماءهم مشتقة من أسماء الله سبحانه.

الحقيقة السادسة: أن ما للنبوة والإمامة من المقامات المعنوية ثابتة للسيدة

---

١ - مشارق أنوار اليقين: ص٩٨؛ الهداية الكبرى: ص٢٩٦.

٢ - سورة الذاريات: الآية ٥٦.

الزهراء عليها السلام، فهي معهما في كل شيء سوى النبوة والإمامة.

الحقيقة السابعة: أن النبي والإمام معصومان طاهران بالجوهر والحقيقة، وكذلك الصديقة الطاهرة، وأن هذه العصمة والطهارة ناشئة من قابلية القابل، وشبهة الجبر تدفع من جهات عديدة:

منها: علم الخالق باستحقاقهما لذلك، كالأستاذ الذي يعلم باستحقاق بعض تلامذته النجاح وبعضهم الفشل فيعطي لكل منهم ما يستحقه.

ومنها: علمه سبحانه بأنهما قادران على الحفاظ على هذه الرتبة عند الابتلاءات الشديدة، فإن المقامات المعنوية تختل بأدنى مخالفة، فالعادل مثلاً إذا بلغ رتبة العدالة يفقدها بأدنى معصية، ففضل العادل يظهر في الحفاظ على العدالة؛ لأنها تتوقف على مزيد من الجهاد والصبر والطاعة.

ومنها: تعاهدهم عند بارئهم تبارك وتعالى في أن يتصدوا للمقدرات الإلهية في الخلق، ويصبروا على الأذى في جنبه، فأدناهم الله وقربهم وجعلهم أولياءه وحججه إستناداً إلى هذا العهد، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] وقد مر عليك أن اليقين والصبر هما الركنان الأساسيان اللذان يقوم عليهما اختيار الأئمة عليهم السلام.

الحقيقة الثامنة: أن كل ما للنبي والأئمة عليهم السلام من المقامات والكمالات لا يخرجهم من حيز الإمكان والفقر والحاجة إلى الله سبحانه؛ إذ كل ما لهم فهو

١- سورة السجدة: الآية ٢٤.

من الله سبحانه وبإذنه وإرادته لا من أنفسهم، فأحاديث النورانية ونحوها تثبت أولية الخلق، ولا تعطيهم صفة القدم الذاتي ولا القدم الزماني، فإن المخلوق محتاج إلى الخالق في أصل وجوده وفي سائر كمالاته ومراتبه، فهم من دون الله سبحانه لا يملكون لأنفسهم حولاً ولا طولاً، ولا نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا، بل هم عليهم السلام على ما لهم من الكمالات والفضائل ذاتيهم الفقر والحاجة إلى الله تبارك وتعالى، وهذا المعنى مما تقضي به ضرورة العقل ونص عليه رسول الله صلى الله عليه وآله في أحاديث عديدة:

منها: ما رواه الخصيبي في (الهداية الكبرى) عن جابر الأنصاري قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى سلمان الفارسي والمقداد ابن الأسود وغيرهما، فلما اجتمعنا بين يديه وأمير المؤمنين عليه السلام عن يمينه قال: « .... فكنت نوراً شعشعانياً أسمع وأبصر وأنطق بلا جسم ولا كيفية، ثم خلق مني أخي علياً، ثم خلق منا فاطمة، ثم خلق مني ومن علي وفاطمة الحسن، وخلق منا الحسين، ومنه ابنه علي .... فكنا أنواراً بأرواح وأسماع وأبصار ونطق وحس وعقل، وكان الله الخالق ونحن المخلوقون، والله المكوّن ونحن المكوّنون، والله البارئ ونحن البرية .... فأخذ عليهم العهد والميثاق ليؤمنن به وبملائكته وكتبه ورسله .... والتسعة الأئمة من الحسين»[1].

وفي الزيارة الجامعة:

«وأن أنواركم وأشباحكم وسناءكم وظلالكم وأرواحكم وطينتكم

١ – الهداية الكبرى: ص٣٧٨– ٣٨٠.

واحدة، جلت وعظمت، وبوركت وقدست، وطابت وطهرت، بعضها من بعض، لم تزالوا بعين الله وعنده في ملكوته أنواراً تأمرون، وله تخافون، وإياه تسبحون، وبعرشه محدقون، وبه حافون حتى منّ بكم علينا»[١].

المرتبة الثانية: العلم اللدني

وهو العلم الذي يعلمه الله سبحانه لعبده بالنورانية القلبية أو بالمشافهة أو المشاهدة[٢]، ويتسم بأنه:

أولاً: لا يتوسط في تعليمه ملك أو نبي.

ثانياً: أنه يقيني لا يخالطه جهل أو شك.

ثالثاً: أنه ناشئ من السمو النفسي والحضور والمشاهدة، فلا يتوقف على تصور ثم تصديق، ولذا فهو ملازم للحقيقة والصواب فلا يخطأ.

رابعاً: أنه دائم لا يعرضه الضعف أو الزوال.

وقد ضرب الله سبحانه مثلاً لهذا النحو من العلم بالخضر عليه السلام، حيث أعطاه العلم، وجعله هادياً ودليلاً لنبيه موسى عليه السلام اقتضتها مصالح التربية والتكميل لموسى عليه السلام، ثم للبشر عموماً. قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ

١ - مستدرك الوسائل: ج١٠، الباب ٨٦ من أبواب المزار وما يناسبه، ص٤٢٠، ح١٧؛ بحار الأنوار: ج٩٩، ص١٥١، ح٥.
٢ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٢٣١.

ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[1] والآية دالة على أن العبودية لله سبحانه إحدى أهم مصادر العلم اللدني، وهذا ما يؤكده البرهان؛ لأن العبودية توجب نزاهة النفس ونورانيتها، وتزيد من قرب العبد من ربِّه، فيكون مؤهلاً لنيل الفيوضات الإلهية في العلم وغيره، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وأثر هذه الرحمة هو إعطاؤه العلم الإلهي الذي هو من مختصاته سبحانه.

وإضافة العبودية والرحمة والعلم إلى الضمير الجمعي الراجع إلى الخالق تبارك وتعالى يدل على أمور:

أحدها: أن هذه الإضافة تشريفية سامية لا ينالها إلاّ الخواص من العباد.

ثانيها: أن العلم الذي أعطي لم يكن من العلوم الظاهرية، بل العلوم الغيبية الباطنية الذي هو في حقيقته يعد من الرحمة الإلهية بخواص عباده.

ثالثها: أن هذا العلم ليس من قبيل العلوم التحصيلية الاكتسابية، بل من العلوم الربانية الخاصة التي يهبها الله سبحانه لأنبيائه وأوليائه بتعليمه لهم مشافهة أو مشاهدة كما يشهد له قوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ فإن (لدن)أخص في الدلالة من (عند)[2] ومن هنا سمي هذا النحو من العلم باللدني، وسياق الآيات ووقائع الأحداث يشهدان بأنه من قبيل العلوم الغيبية التي تكشف بواطن الأمور وحقائقها لا ظواهرها.

---

١ - سورة الكهف: الآية ٦٥.

٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٣٩ (لدن).

وهو إما لم يكن عند موسى عليه السلام فعلمه الخضر إياه كما هو ظاهر الآية، فيكون الخضر وسيلة التعليم الرباني لموسى عليه السلام، وفي سلسلته الطولية، فالمعلم هو الله والواسطة هو الخضر كما يعلم الله أنبياءه بواسطة الملائكة مع أن الملائكة أدنى درجة من الأنبياء، لا سيما إذا قلنا إن التعليم كان قبل إرسال موسى عليه السلام بالنبوة العامة لبني إسرائيل، أو كان هذا العلم عند موسى عليه السلام على ما يقتضيه مقام النبوة فيه إلاّ أنه أراد من التعليم إراءة المصاديق الخارجية من باب اطمئنان القلب، كما هو الحال في قضية إبراهيم عليه السلام حينما طلب من الباري عز وجل أن يعلمه كيف يحيي الموتى لأجل طمأنينة القلب، أو أن موسى كان يعلم الأمرين معاً إلاّ أنه كان مأموراً بأن يتعامل مع الأشياء بحسب الظاهر، فلا يجوز له أن يعمل عملاً ما لم تتحقق شروطه الشرعية، بينما الخضر كان يجوز له أن يعمل بحسب الواقع وعلم الغيب، فأراد موسى عليه السلام إظهار ذلك عبر الاعتراض والتساؤل، أو لغير ذلك من الوجوه.

وكيف كان، فإن الآية تدل على أن علم الخضر كان لدنياً، وقد حصل على هذه الدرجة من العلم عن طريق العبودية والصدق مع الله والإخلاص له، فإن العبودية من أسمى المراتب التي تزيل الحجب بين العبد وربَّه، فينظر العبد بنور الله وتتجلى له الحقائق بلا مانع أو حائل، وتؤكد هذه الحقيقة الأحاديث الواردة التي تدل على أن تقرب العبد إلى ربِّه بالعبودية والطاعة تجعله في عنايته ومحبته، وحينئذ يقول سبحانه في الحديث القدسي: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق

به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني اعطيته»[١].

ومن ذلك نعرف أن العلم اللدني لا يحصل من الخلقة والجبلة كما هو الحال في العلم الجبلي، بل له مفاتيح ومصادر، وأهم هذه المصادر هي العبودية والانقياد التام إلى الله سبحانه، وإليه يشير الحديث المبارك: «ليس العلم بكثرة التعلم، بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[٢] ومقام العبودية هذا يفتح الأبواب أمام العبد ليمتلك مفاتيح العلوم الإلهية اللدنية، ويمكن الإشارة إلى أهمها:

الأول: الإلهامات الربانية، ويعبر عنها بالعلوم الإفاضية، وذلك بأن يلقي الله سبحانه في روع وليه العلوم والمعارف، وهو يختص بما كان من جهة الله والملأ الأعلى[٣]، ويقابله الوحي؛ لأنه يكون بواسطة الملك، ولذا يعد الوحي من خواص الرسالة، والإلهام من خواص الولاية، ويشترك فيه النبي والإمام بخلاف الوصي[٤]، وقد علّم الله سبحانه آدم عليه السلام بهذا النحو حينما فتح له باب معرفة الأشياء؛ إذ قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٥] وذلك بأن جعل له قوة بها نطق، ووضع أسماء الأشياء وذلك بإلقائها في روعه[٦]،

١ – الكافي: ج٢، ص٣٥٣، ح٧؛ الجواهر السنية: ص١٢٠.
٢ – المحجة البيضاء: ج٥، ص٤٥؛ وانظر الفوائد الحائرية: ص٣٤٥؛ بحار الأنوار: ج١، ص، ٢٢٥، ح١٧.
٣ – انظر مفردات القرآن الكريم: ص٧٤٨،(لله).
٤ – معجم الفروق اللغوية: ص٦٩، (٢٧٩) الفرق بين الإلهام والوحي.
٥ – سورة البقرة: الآية ٣١.
٦ – مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٨١، (علم).

كما أنه سبحانه يعلم كل واحد من الحيوانات أفعاله وأصواته وأسلوب معيشته وعبادته: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[١].

وربما يضاف إلى الإلهام الإشراق النفسي إذا فسرنا الإشراق بمعنى إفاضة الأنوار الإلهية على القلب، وأما إذا فسرناه بمعنى ظهور مكنونات النفس من العلوم الارتكازية كما قد يظهر من كلمات أهل الإشراق - باعتبار أن العلوم مودعة في النفس ولكن يحول دونها الصوارف والظلمات المادية، ويزيلها إشراق النفس وجلاؤها بالرياضات والمجاهدات - فعلة العلم هو الإلقاء الإلهي في الروع، والإشراق يزيل المانع منه، فيكون من مراتب العلم الجبلي، وكيف كان فإن الروايات المباركة تؤكد حقيقة العلم الإلهامي.

منها: ما ورد عن الباقر والصادق عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أن الله مثل لي أمتي في الطين، وعلّمت الأسماء كما علّم آدم الأسماء كلها»[٢] وهي ظاهرة في التعليم بلا واسطة الملك، كما أن آدم كذلك.

ومنها: ما ورد عن الصادق عليه السلام في بيان كيفية ولادة الإمام عليه السلام وانعقاد نطفته في حديث طويل منه: «فإذا وقع من بطن أمه وقع واضعاً يديه على الأرض، رافعاً رأسه إلى السماء، فإذا وضع يديه إلى الأرض فإنه يقبض كل علم أنزله الله من السماء إلى الأرض»[٣] والروايات بهذا المضمون كثيرة بل

١ - سورة النور: الآية ٤١.
٢ - بصائر الدرجات: ص٨٥، ح٧؛ وانظر، ص٨٦، ح١٥.
٣ - بصائر الدرجات: ص٤٤١ - ٤٤٢، ح٤.

متواترة، وفي بعضها يعطيه الله سبحانه علم الأول وعلم الآخر[١]، وفي بعضها: «فإذا ولد أوتي الحكمة ... وزين بالعلم والوقار، وألبسه الهيبة»[٢].

ومنها: ما ورد عن الصادقعليه السلام في بيان أحوالهمعليهم السلام قبل الدنيا. قال: «فلما أراد أن يخلق الخلق نشرهم بين يديه فقال لهم: من ربكم؟ فكان أول من نطق رسول اللهصلى الله عليه وآله وأمير المؤمنينعليه السلام فقالوا: أنت ربّنا، فحملّهم العلم والدين، ثم قال للملائكة: هؤلاء حملة علمي وديني وأمنائي في خلقي»[٣].

ويؤكد أن هذا النحو من العلم كان بالإلهام قول الرضاعليه السلام في حديث طويل جاء فيه: «أن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً فلم يعِ بعده بجواب»[٤].

وعن أبي جعفرعليه السلام: «والأوصياء قد ألهموا إلهاماً من العلم علماً جماً»[٥].

وعن رسول اللهصلى الله عليه وآله أن الإلهام مائز بين النبي والإمام. قالصلى الله عليه وآله: « أعطاني الله خمساً، وأعطى علياً خمسة، وعد منها: وأعطاني الوحي وأعطاه الإلهام»[٦] إلى غير ذلك من الأخبار الصريحة في ذلك[٧].

---

١ - بصائر الدرجات: ص٤٣١، ح١؛ وانظر الهداية الكبرى: ص١٠٠-١٠١.
٢ - بصائر الدرجات: ص٤٣٢، ح ٤- ١٠؛ ص٤٤٠، ح٣.
٣ - بحار الأنوار: ج١٥، ص١٦، ح٢٢؛ التوحيد: ص٣١٩، ح١.
٤ - الكافي: ج١، ص٢٠٢، ح١؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٢٧، ح٣.
٥ - بصائر الدرجات: ص١٣٠، ح٢.
٦ - الفضائل (لابن شاذان): ص٥.
٧ - انظر الاختصاص: ص٢٨٦؛ الصحيفة السجادية: دعاء (٢٤) دعاؤه لأبويهعليهما السلام.

الثاني: الشهود القلبي، وهو يختص بمعرفة الحقائق المعنوية بمشاهدة القلب والبصيرة في مقابل المعرفة العقلية التي تقوم على الاستدلال والبرهان، والأخرى الحسية التي تقوم على التجارب والحواس، وهذا المقام يختص بأولياء الله سبحانه، وتزداد معارفه بحسب درجاتهم ومقاماتهم، ومصدر هذا العلم هو العبودية الخاصة والقرب المعنوي من الخالق تبارك وتعالى، وهو يزداد وينقص بحسب درجات القرب والبعد منه سبحانه.

الثالث: الشهادة، وتختص بمعرفة الحقائق بمشاهدة البصر بسبب حضور المعلوم لدى العالم، أو حضور العالم لدى المعلوم، وهو يتوقف على عناية ولطف إلهي، ولولاهما لم تحصل المشاهدة، وتؤكد واقعة المعراج على هذين البابين من العلم، فقد نص الباري عز وجل في القرآن الكريم على أنه أطلع نبيه الخاتم على حقائق علم الملكوت بالشهود والمشاهدة معاً حينما عرج به إلى السماء؛ إذ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[1].

وفي مقام آخر وصف هذه الآيات بأنها كبرى، كما وصف الرؤية للغيب بأنها رؤية القلب، وعللها بالعبودية والقرب المعنوي منه سبحانه، مما يدل على أن التقرب إلى الله سبحانه هو أوسع أبواب تحصيل العلوم الإلهية التي تربط العبد بربه وبالملأ الأعلى.

وتفصيل كل هذه المضامين تكشفها سورة النجم؛ إذ قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ

١ - سورة الإسراء: الآية ١.

شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[١].

ونلاحظ أن نصوص هذه الآيات المباركة تصنف على صنفين:

الصنف الأول: يشير إلى الشهود القلبي وحقيقته وأسبابه.

والصنف الثاني: يشير إلى المشاهدة الحسية وكيفيتها.

العلم الشهودي

ففي الصنف الأول يقول تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ومعرفة المعنى يستدعي توضيح بعض مضامين الآيات المباركة في ضمن نقاط:

الأولى: أن الآيات تناولت موضوع تعليم النبي ﷺ، ووصفت معلمه بأنه شديد القوى، وقد ذهب جمع غير قليل من مفسري العامة إلى أن المعلم هو جبرئيل[٢]؛ لأنه يتصف بشدة القوة، وقد وصفه في آيات أخرى بأنه:

١ - سورة النجم: الآيات ٥- ١٨.

٢ - انظر فتح القدير: ج٥، ص١٠٥؛ تفسير ابن كثير: ج٤، ص٢٦٥؛ الدر المنثور: ج٦، ص١٢٢؛ تفسير القرطبي: ج١٧، ح٨٥.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[١] إلّا أنه قصور عن معرفة مقام النبي صلى الله عليه وآله فالحق هو أن المعلم هو الله سبحانه لقرينة السياق والضمير في (عبده) الذي يأبى أن يحمل على جبرئيل، كما يتنافى مع قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فإنه لو حمل على جبرئيل لاستدعى حصول الحاصل؛ لأن جبرئيل كان معه في المعراج ولا معنى لدنوه وتدليه حينئذ، وهو ما تؤكده الأخبار الشريفة، كقول جبرئيل «لو دنوت أنملة لاحترقت»[٢] بينما واصل النبي صلى الله عليه وآله رقيه وصعوده هذا فضلاً عن ما ورد عن أئمة الهدى عليهم السلام في تفسيره بالباري عز وجل[٣].

وفي رواية الشيخ قدس سره بسنده عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لما عرج بي إلى السماء دنوت من ربي عز وجل حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى»[٤] وقريب منه ورد في رواية هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في حديث طويل أنه قال: «فلما أسري بالنبي وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب حجبه»[٥] وقد ورد هذا المضمون في روايات عديدة بطرق الفريقين[٦].

١ - سورة التكوير: الآية ٢٠.
٢ - مناقب آل أبي طالب: ج١، ص١٥٥؛ بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٨٢، ح٨٦؛ الغدير: ج١١، ص١٧٢.
٣ - تفسير لقمي: ج٢، ص٣٣٤؛ علل الشرائع: ص١٣١، باب١١٢، ح١.
٤ - الامالي (للطوسي): ص٣٥٢، مجلس ١٢، ح١٧.
٥ - تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٦٦، ح٢٠.
٦ - انظر الدر المنثور: ج٦، ص١٢٣؛ تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٦٥، ح١٦؛ تفسير الميزان: ج١٩، ص٣٥.

ولعل الإشكال الذي دعا أصحاب القول الأول لمخالفة الظهور وحمل الضمير على جبرئيل هو استلزامه التجسيم بحجة أن الدنو ظاهر في القرب المكاني وهو ممتنع النسبة إلى الباري عز وجل، إلاّ أنه يمكن دفعه إذا حملنا الدنو على المعنى الأعم من المكاني والمعنوي، وحيث إن الثاني يناسب صفات الباري عز وجل وجب أن يحمل عليه، فيكون المراد منه التعبير عن غاية القرب المعنوي الذي يجعله في أتم الاستعداد لنيل الفيوضات الإلهية والمشاهدات القلبية.

وعليه يكون معنى الآية أن الله سبحانه علم رسوله في الأفق الأعلى الذي اقترب فيه النبيﷺ من ربه فأوحى إليه.

الثانية: أن الدنو والتدلي أحدهما مكمل للآخر، فإن الدنو يفيد أصل الاقتراب، وأما التدلي فيفيد غاية القرب، سواء أخذ من الدنو والاسترسال[١]، وحيث إن زيادة المباني تفيد زيادة المعاني على ما قرره علماء البلاغة يفيد مزيد القرب، وينفي احتمال اللغوية في الآية، أو أخذ من الإرسال والتعليق كتعلق الثمر بالشجر[٢]، ولا مانع منهما؛ لأن أحدهما مترتب على الآخر ترتب المعلول على العلة؛ لوضوح أن مزيد القرب يحصل بالتعلق والانشداد، وما قد يعبر عنه بالفناء والوصول إلى حق اليقين، وأما إذا فسر التدلي بالفهم

١ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣١٧، (دلو)؛ مجمع البيان: ج٩، ص٢٨٨ تفسير الآية المزبورة.
٢ - مجمع البحرين: ج١، ص١٤٥، (دلا)؛ وأنظر معجم مقاييس اللغة: ص٣٤٣،(دلي).

والعلم على لغة قريش كما ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فالمعنى فيه أوضح وأجلى[١].

الثالثة: أن مستوى الدنو والاقتراب بلغ منتهاه إذ صار كقاب قوسين أو ادنى، والقاب هو المقدار[٢]، وقد حدده جمع من المفسرين بذراعين، وبه وردت رواية عن النبي صلى الله عليه وآله[٣] لأنه مقدار طول قوسين حملًا للقوسين على الاثنين، بل هو أدنى من ذلك وأقرب، وقد فسر بعضهم القاب بالأقل من ذلك فقال: القاب ما بين المقبض والسيّة من القوس[٤]، والسيّة: ما عطف من طرفي القوس، وبه وردت رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام[٥].

الرابعة: أن الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعود لرسول الله صلى الله عليه وآله كما يفيده السياق والروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام[٦]، والآية تتضمن دلالتين:

الأولى: أن محل الدنو والاقتراب كان في الأفق المعنوي، تشبيها له بالأفق المادي؛ لأنه لا نهاية له؛ ليشير إلى لا محدودية عوالم الملأ الأعلى.

الثانية: أن درجة الاتصال والاقتراب مهما زادت وبلغت النهاية تبقى الفاصلة كبيرة وعالية بين العالمين؛ بداهة أن النبي صلى الله عليه وآله بما له من درجات

١- انظر الاحتجاج: ج٢، ص٣٢٨؛ ج١، ص٥٢٢.
٢ - معجم مقاييس اللغة: ص٨٤٠، (قاب).
٣ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص٢٦٢.
٤ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٧، (قاب).
٥ - الكافي: ج١، ص٤٤٢، ح١٣.
٦ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٦٥، ح١٦.

ومقامات عالية فهو مخلوق ممكن ومحكوم بقوانين عالم الإمكان، بينما الخالق تبارك وتعالى مهما لطف واقترب من بعده فهو يبقى أسمى وأعلى مما يتصوره عقل أو قلب، وبهذه الإشارة يبطل القول بأن الاقتراب يستلزم تجسيم الخالق.

الخامسة: أن نهاية ما يصل إليه العبد من ربه تبارك وتعالى هو مقام العبودية، فإذا بلغه يكون قابلاً لتلقي الوحي والفيوضات الإلهية، ولم تشر الآية: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[1] إلى حقيقة هذا الوحي، وهل القرآن أم العلم، أم ما هو أوسع من ذلك؟ احتمالات والثالث أقوى، وهو ما يؤكده قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «في قاب قوسين علمني الله القرآن، وعلمني الله علم الأولين»[2].

نعم يمكن اختيار المعنى الأول إذا قلنا (ما) موصولة، ويمكن اختيار الثاني إذا قلنا بأنها مصدرية، إلاّ أن الأقوى هو الأعم، ويبدو من بعض الأخبار أن الوحي كان بالمباشرة من دون توسط ملك كما في تفسير القمي[3].

وتؤكد الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن ذلك الوحي؟ فقال: «أوحي إليّ أن علياً سيد المؤمنين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين وأول خليفة يستخلفه خاتم النبيين ...» وقال: «أمرت أنصبه للناس وأقول لهم: هذا وليكم من بعدي، وإنه بمنزلة السفينة يوم الغرق، من دخل فيها نجا، ومن خرج عنها غرق»[4].

١ – سورة النجم: الآية ١٠.
٢ – لوامع أنوار الكوكب الدري: ج١، ص١١٧ – ١١٨.
٣ – تفسير القمي: ج٢، ص٣٣٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٦٩، ح٣٠.
٤ – انظر تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٦٩ – ١٧٠، ح٣٠.

السادسة: أن هذه الرؤية ما كانت رؤية البصر ولا العقل، بل رؤية القلب، وهي تتسم بالحقانية، فلا ينالها زيغ أو خطأ أو شك، ولعل من هنا عبرت الآية عن القلب بالفؤاد، وقالت: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[١] فإن الفؤاد من الفأد وهو التوقد وشدة الحرارة[٢]، ويقال للقلب المتوقد: بالحب والشوق بالفؤاد.

السابعة: أن الدنو والقرب الخاص لم يكن يتاح لرسول الله ﷺ لولا وجود الاستعداد والمسانخة بين روحه وبين تلك العوالم الربوبية، وهذا ما أكده قول الصادق عليه السلام في رواية ابن سنان قال: «أنه أقرب الخلق إلى الله تعالى، وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسري به إلى السماء: تقدم يا محمد، فقد وطئت موطئاً لم يطأه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، فكان من الله عز وجل كما قال الله عز وجل: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بل أدنى»[٣] وهذا المضمون يتوافق مع مضامين أحاديث النورانية والطينة التي تشير إلى أن أرواح النبي والأئمة خلقت من نور الله سبحانه، وأن أجسامهم خلقت من أشرف طين في الجنة، وهو طين عليين.

الثامنة: أن رؤية الفؤاد كانت بالبصيرة لا بالبصر، فلا تخطأ ولا تزيغ، وطريق هذه الرؤية هي العبودية المطلقة للخالق تبارك وتعالى، وهي من الحقائق المشتركة بين النبي والإمام وإن اختلفت المقامات؛ لما عرفت من اشتراكهم في حقيقتهم النورية، وهو ما يؤكده قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام

١ - سورة النجم: الآية ١١.

٢ - معجم مقاييس اللغة: ص٨٠٥، (فأد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٦، (فأد).

٣ - تفسير القمي: ج٢، ص٣٣٤؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٦٦، ح١٨.

في جوابه لذعلب اليماني: «لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»(١) ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله هل رأيت ربك؟ أجاب: «رأيته بفؤادي»(٢).

كما أجاب أمير المؤمنين عليه السلام ذعلب اليماني حينما سأله هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه: «أفأعبد ما لا أرى»(٣) وبمثله أجاب الصادق عليه السلام عن سؤال رجل دخل عليه فقال: أرأيت الله حين عبدته؟ قال له: «ما كنت أعبد شيئاً لم أره» قال: وكيف رأيته؟ قال: «لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه»(٤).

ولعل هذه الرؤية هي التي كشف عنها الإمام الرضا عليه السلام ووصفها بالروح وقال: «إنها ليست بملك، بل هي عمود من نور يربط بين الإمام وربه» وقال: «إن الله أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك لم تكن مع أحد ممن مضى إلاّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي مع الأئمة منا تسددهم وتوفقهم، وهو عمود من نور بيننا وبين الله»(٥) ولهذه الرواية توجيه آخر سنتعرض له فيما يأتي.

---

١ - نهج البلاغة: ج٢، ص٩٩، الخطبة ١٧٩.
٢ - بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٨٧، ذيل مبحث المعراج.
٣ - نهج البلاغة: ج٢، ص٩٩، خطبة ١٧٩؛ شرح مئة كلمة: ص٢٢٠.
٤ - الاحتجاج: ج٢، ص٧٧؛ بحار الأنوار: ج٤، ص٣٣، ح١٠.
٥ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٠٠، ح١.

العلم بالمشاهدة

وأما في الصنف الثاني يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[١] ومعرفة معناه يستدعي توضيح بعض مضامين الآيات المباركات في ضمن نقاط:

الأولى: إن ظاهر الرؤية في هذه الآيات بصرية تتقوم بالمشاهدة الحسية لا الرؤية القلبية المجردة فقط ، ولذا قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ووصف ما رآه بأنه من آيات الله الكبرى، وقد اختلفوا في هذه الآيات، فبعضهم قال: إنه جبرئيل حيث رآه على هيئة عظيمة[٢]، وبعضهم قال: إنها الآيات العظام التي كانت حول شجرة السدرة[٣]، وبعضهم يرى أنها سدرة المنتهى لما لها من عظمة وجلالة؛ لأنها شجرة وريقة ذات ظلال وريفة في أوج السماوات في منتهى ما تعرج إليه الملائكة وأرواح الشهداء وعلوم الأنبياء وأعمال الناس، وهي مستقرة في مكان لا تستطيع الملائكة أن تتجاوزه[٤]، وفي بعض الأخبار عنه ﷺ أنه قال: «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى»[٥].

---

١ – سورة النجم: الآيات ١٣ – ١٨.
٢ – تفسير مجمع البيان: ج٩، ص٢٩٣، تفسير الآية المزبورة.
٣ – تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٥، ص٢٦٦.
٤ – تفسير الميزان: ج١٩، ص٣٢؛ تفسير الأمثل: ج١٧، ص١٦٣.
٥ – مجمع البيان: ج٩، ص٢٩٢؛ الكشاف (للزمخشري): ج٤، ص٢٩.

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظل أمة من الأمم»[١] ومن هنا قيل أن السدرة لها ظل عظيم في جوار رحمة الله، وهو محل تسبيح الملائكة ومأوى الأمم الصالحة[٢].

وكيف كان، فإن الرؤية لهذه الآيات بصرية تتقوم بالمشاهدة والحس وهذا ما تؤكده رواية صفوان بن يحيى عن الرضا عليه السلام حينما سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قال: «ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى»[٣] وقريب من هذا المضمون ورد في رواية حبيب السجستاني عن أبي جعفر عليه السلام[٤].

الثانية: أن هذه الرؤية ليست زائغة ولا طاغية كناية عن مطابقتها للواقع في رؤية حق اليقين التي لا تقبل الخطأ الناشئ من الانحراف، وهو ما عبر عنه بما زاغ البصر، أو الناشئ من التهويل والتخيل الكاذب، وهو ما عبر عنه بما طغى، كما يفيده معنى الزيغ والطغيان في اللغة وهو الأصوب من بين المعاني الأخرى التي ذكرها بعض المفسرين[٥].

الثالثة: أن الضمير والفاعل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فسر

١ - تفسير القمي: ج١، ص٩٥؛ التفسير الصافي: ج١، ٣١١؛ تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٦٥، ح١٧؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٥، ص٢٦٦.
٢ - تفسير الأمثل: ج١٧، ص١٦٤.
٣ - الكافي: ج١، ص٩٥، ح٢.
٤ - علل الشرائع: ج١، ص٢٧٨، ح١.
٥ - انظر مجمع البيان: ج٩، ص٢٩٣.

بتفسيرين:

الأول: أنهما جبرئيل والنبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وإليه ذهب أكثر المفسرين، فقالوا بأن الآية ناظرة إلى مشاهدة النبي صلى الله عليه وآله لجبرائيل مشاهدة واقعية على حقيقته، وكانت هذه المشاهدة الثانية بهذا النحو؛ لأنه صلى الله عليه وآله كان أكثر ما يرى جبرائيل على غير صورته الواقعية، كما ورد أنه رآه بصورة دحية الكلبي في مرات عديدة[1].

والثاني: أن الضمير يعود إلى الخالق تبارك وتعالى والناظر رسول الله صلى الله عليه وآله وهو الأصوب؛ لتضافر القرائن الداخلية والخارجية عليه، ولكن النظر لم يتعلق بذات الخالق تبارك وتعالى؛ لأنه لا تدركه الأبصار، وإنما كان النظر إلى آياته وتجلياته كما تجلى عز وجل لموسى للجبل، ويشهد له قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ومن الواضح أن الآية تحكي عن الشيء بأوصافه وكمالاته ولا تحكي عن ذاته.

كما أن غشيان السدرة لا يكون بجبرئيل، بل بنور الله سبحانه وهيبته وجلالته، ولعل من هنا عبر عن هذه الرؤية بالنزلة؛ إذ إنها لا تخلو من إشارة على تنزل الوجود العالي إلى الرتبة الأدنى.

وهذا ما أكدته النصوص المتضافرة عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام، ففي رواية حبيب السجستاني قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يا حبيب ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ

١ - انظر تفسير الميزان: ج١٩، ص٣١؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٥، ص٢٦٦.

﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾[١] يعني عندها وافى به جبرئيل حين صعد إلى السماء، فلما انتهى إلى محل السدرة وقف جبرئيل دونها وقال: يا محمد! إن هذا موقفي الذي وضعني الله عز وجل فيه، ولن أقدر على أن أتقدمه، ولكن أمض أنت أمامك إلى السدرة فقف عندها، قال: فتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السدرة، وتخلف جبرئيل عليه السلام. قال أبو جعفر: إنما سميت سدرة المنتهى لأن أعمال أهل الأرض تصعد بها الملائكة الحفظة إلى محل السدرة، والحفظة الكرام البررة دون السدرة يكتبون ما ترفع إليهم الملائكة من أعمال العباد في الأرض. قال: فينتهون بها إلى محل السدرة. قال: فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله فرأى أغصانها تحت العرش وحوله. قال: فتجلى بمحمد صلى الله عليه وآله نور الجبار عز وجل، فلما غشي محمداً صلى الله عليه وآله النور شخص بصره، وارتعدت فرائصه. قال: فشد الله عز وجل لمحمد قلبه، وقوى له بصره حتى رأى من آيات ربه ما رأى»[٢].

وهذا ما تعضده رواية علي بن إبراهيم في معنى قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله غشي نوره السدرة[٣].

وفي رواية إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام: «لما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: في هذا الموضع تخذلني؟

١ - سورة النجم: الآيات١٣-١٥.
٢ - علل الشرائع: ج١، ص٢٧٧، ح١؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٧١، ح٣٥.
٣ - تفسير القمي: ج٢، ص٣٣٨.

فقال: تقدم أمامك، فو الله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك، فرأيت من نور ربي وحال بيني وبينه السبحة. قلت: وما السبحة جعلت فداك؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأومى بيده إلى السماء وهو يقول: جلال ربي، جلال ربي ثلاث مرات»[١].

والمراد من السبحة يحتمل معنيين:

الأول: المعنى اللغوي، وهو التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص[٢]، والمعنى هنا التنزيه عن المشاهدة، فيكون المعنى حال بيني وبينه تنزهه عن المكان والرؤية بالرغم من حصول غاية القرب ومنتهاه.

الثاني: المعنى الكنائي، وهو الجلال الإلهي الذي لا يحتمله مخلوق أبداً حتى مثل رسول الله ﷺ، بل يزل منه حتى الجبل الراسخ، وإيماؤه إلى الأرض وحط رأسه كان خضوعاً لهذا الجلال العظيم، وعلى كل تقدير فإن القصور الذاتي في المخلوق يمنع من مزيد الرؤية والشهود.

والحاصل: أن الآيات المباركة تدل على أن الرؤية الثانية في معراج النبي ﷺ كانت بصرية حسية أدركها بالبصر؛ إذ تجلت له آيات ربه، والغرض من هذه الرؤية كان بلوغ اليقين واطمئنان القلب وقوته كما عرفته من بعض الروايات المتقدمة، كما تؤكده الروايات الأخرى المتضافرة.

ففي الاحتجاج عن ابن عباس قال: قالت اليهود للنبي ﷺ: موسى

---

١ - تفسير القمي: ج٢، ص٢٤٣؛ تفسير نور الثقلين: ج٧، ص١٧٣، ح٤١.

٢ - مجمع البحرين: ج٢، ص٣٦٩، (سبح).

خير منك. قال النبيﷺ: «ولِمَ؟» قالوا: لأن الله عز وجل كلمه بأربعة آلاف كلمة ولم يكلمك بشيء، فقال النبيﷺ: «لقد أعطيت أنا أفضل من ذلك» قالوا: وما ذاك؟ قال: « قوله عز وجل ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ وحملت على جناح جبرائيلعليه السلام حتى انتهيت إلى السماء السابعة، فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى حتى تعلقت بساق العرش، فنوديت من ساق العرش: إني أنا الله لا إله إلاّ أنا السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم، ورأيته بقلبي وما رأيته بعيني، فهذا أفضل من ذلك» قالت اليهود: صدقت يا محمد وهو مكتوب في التوراة[1].

وفي علل الشرائع بإسناده إلى ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين علي بن الحسينعليهما السلام لم أسري بنبيّه محمد إلى السماء؟ قال: «ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه»[2].

وفي التوحيد بإسناده إلى يونس بن عبد الرحمن قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفرعليهما السلام: لأي علة عرج الله عز وجل بنبيه إلى السماء، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وخاطبه وناجاه هناك، والله لا يوصف بمكان؟

فقالعليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه

١ - الاحتجاج: ج١، ص٥٦.
٢ - علل الشرائع: ج١، ص١٣١، ح١.

زمان، ولكنه عز وجل أراد أن يشرّف به ملائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه»[١] وكان مما أراه الله سبحانه ولاية علي والأئمة عليهم السلام وإمامتهم من بعده.

ففي عيون الأخبار بالسند الصحيح إلى الصادق عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لما أسري بي إلى السماء أوحى إليّ ربي جل جلاله فقال: يا محمد! إني اطلعت إلى الأرض اطلاعة فاخترتك منها فجعلتك نبياً، وشققت لك من اسمي اسماً، فأنا المحمود وأنت محمد، ثم اطلعت الثانية فاخترت منها علياً وجعلته وصيك وخليفتك وزوج ابنتك وأبا ذريتك، وشققت له اسماً من أسمائي، فأنا العلي الأعلى وهو علي، وجعلت فاطمة والحسن والحسين من نوركما، ثم عرضت ولايتهم على الملائكة فمن قبلها كان عندي من المقربين. يا محمد! لو أن عبداً عبدني حتى ينقطع ويصير كالشن البالي ثم أتاني جاحداً لولايتهم ما أسكنته جنتي، ولا أظللته تحت عرشي، يا محمد! أتحب أن تراهم؟ قلت: نعم يا ربّ، فقال عز وجل: ارفع رأسك، فرفعت رأسي فإذا أنا بأنوار علي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة بن الحسن القائم في وسطهم كأنه كوكب. درّي قلت: ربّ من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأئمة، وهذا القائم الذي يحل حلالي، ويحرم حرامي، وبه أنتقم من أعدائي، وهو راحة لأوليائي، وهو

١ - التوحيد: ص١٧٥، ح٥.

الذي يشفي قلوب شيعتك من الظالمين والجاحدين والكافرين»[١].

وهذا ما أكدته رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام: «والله ما جاءت ولاية علي بن أبي طالب من الأرض ولكن جاءت من السماء مشافهة»[٢].

ويتحصل من كل ما تقدم: أن الرتبة الثانية من العلم وهي رتبة العلم اللدني يخص الله سبحانه بها عباده المخلصين بالعلم الإلهي بالإفاضات تارة، وتارة بالشهود القلبي، وثالثة بالمشاهدة البصرية، وهذا الاختصاص منشأه العبودية التي تجعل في العبد قابلية واستعداداً خاصاً يدنيه من ربه، فيمنحه هذا المقام والرتبة.

وقد عرفت أن ما تواتر فيه النقل من الفريقين وجزم به العقل في أكثر من دليل وبرهان على أن محمداً وآل محمد عليهم السلام هم أقرب الخلق إلى الله، وأعلاهم رتبة، وبهذا القرب نالوا درجات عالية من العلم اللدني.

ولذا قال الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٣] قال: «وربّ الكعبة وربّ البنية (البيت) ثلاث مرات لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما؛ لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان، ولم

١ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٦١، ح٢٧.
٢ - الكافي: ج١، ص٤٤٢- ٤٤٣، ح١٣.
٣ - سورة الكهف: الآية ٦٥.

يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة»[١] كما تؤكد الروايات المتضافرة أنهم في كل ليلة جمعة يصلون ذروة القرب من ربهم تبارك وتعالى، فتنكشف لهم عوالم الغيب، ويتزودون منها بالعلم[٢].

المرتبة الثالثة: العلم التوسيطي

ويراد به العلم الذي يهبه الله سبحانه لهم عبر الوسائط والأسباب الغيبية ونحوها، وقد كشفت الآيات والروايات النقاب عن بعض طرق هذا العلم، ويمكن استخلاص المهم منها في ثلاثة:

الطريق الأول: النور الرباني

وهو من وسائل ارتباط الإمام بعالم الغيب وأسراره عبر عنه بعمود من نور، به يطلع الإمام على الحقائق والوقائع والأحداث. اخبرت عنه روايات كثيرة بطرق مختلفة بما يوجب الجزم بتواتره معنىً:

منها: رواية صالح بن سهل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كنت جالساً عنده فقال ابتداء منه: «يا صالح بن سهل! إن الله جعل بينه وبين الرسول رسولاً، ولم يجعل بينه وبين الإمام رسولاً» قال: قلت: وكيف ذاك؟ قال: «جعل بينه وبين الإمام عموداً من نور ينظر الله به إلى الإمام، وينظر الإمام به إليه، فإذا

١ - الكافي: ج١، ص٢٦١، ح١؛ وانظر بصائر الدرجات: ص١٤٩، ح١؛ دلائل الإمامة: ص١٣٢.

٢ - انظر الكافي: ج١، كتاب الحجة، باب٩٨؛ وباب١٠٠، الأحاديث ٦٥١- ٦٥٧.

أراد علم شيء نظر في ذلك النور فعرفه»[١].

ويؤكد مضمون هذا الحديث قوله تبارك وتعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[٢] والرصد هو الطريق، والمعنى أن يجعل للرسول طريقاً لمعرفة الماضي والمستقبل[٣]، والإثبات بعد النفي يفيد أن الاطلاع على عالم الغيب منحصر بمن يرتضيهم الباري عز وجل، وأول مراتبهم الأنبياء ثم الأئمة عليهم السلام بوحدة الملاك أو بالأولوية؛ لعلو رتبة الأئمة على سائر الأنبياء عدا رسول الله صلى الله عليه وآله، أو لاشتراكهم مع رسول الله في الحقيقة النورية والمقامات المعنوية عدا النبوة كما تشهد له آية المباهلة وغيرها.

ويتضمن الحديث المبارك الإشارة إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الارتباط النوري بين الله والإمام إن كان من الله سبحانه فهو نوع من العناية واللطف الإلهي بالإمام عليه السلام كما يشير إليه قوله: «ينظر الله به إلى الإمام» وأما إن كان من الإمام فهو يحتمل أن يكون النظر المعنوي بالبصيرة أي المعرفة، وهذا ما يقتضيه مقام الإمامة على الخلق، لكونها الهادية والحجة عليهم.

الحقيقة الثانية: أن النظر في هذا العمود باختيار الإمام عليه السلام، فمتى ما

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٣٤، ح١٠؛ بصائر الدرجات: ص٤٦٠، ح٢.
٢ - سورة الجن: الآيتان ٢٦ - ٢٧.
٣ - مجمع البيان: ج١٠، ص١٥٥، تفسير الآية المزبورة.

أراد أن يعلم شيئاً نظر فيه، وهذا لا يتوافق مع خصوصيات الإمام ومقاماته العلمية إلاّ بأحد وجوه:

الأول: أن يكون علم الأشياء حاضراً عنده في لوح النفس بمستوى الاستعداد لا الفعلية، وبالنظر يتجلى في رتبة الفعلية، كمن يعلم جدول الضرب في الحساب ولكنه لا يحضر عنده إلاّ إذا نظر فيه، واحضره في ذهنه.

الثاني: أن يكون علم الأشياء بنحوه الإجمالي حاضراً عنده إلاّ أن وجوده التفصيلي يستدعي النظر في عمود النور، لاسيما في الحوادث والتفاصيل الجزئية التي تحدث في كل لحظة وآن كأعمال العباد، ويقوي هذا الوجه ما ورد عن الإمامين الهادي والعسكري؛: «فإذا ولد ... رفع له عمود من نور في كل مكان ينظر فيه الخلائق وأعمالهم»[1] وفي رواية أخرى: «يرى به أعمال العباد»[2] وغيرهما من الروايات الكثيرة[3]، فتأمل.

الثالث: أن يكون علم الأشياء بنحوها التفصيلي حاضراً عنده عليه السلام إلاّ أن احتمال النسخ والتبديل من جهة أن الله سبحانه يمحي ما يشاء ويثبت يستدعي النظر في عمود النور لملاحظة حاله في الثبات والتبدل، وهذا الاحتمال إن صح يختص بالمقدرات الإلهية غير المحتومة؛ لأن ما كان في أم الكتاب محتوماً مما لا يتغير، ويتوافق هذا الوجه مع مضمون الرواية الواردة

١ - الهداية الكبرى: ص٣٥٤.

٢ - الهداية الكبرى: ص٢٤٠.

٣ - انظر الكافي: ج١، ص٢٥٨، باب أن الأئمة إذ شاءوا أن يعلموا علموا.

عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة» فقيل له: أية آية؟ فقال: «قول الله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1]»[2].

وما ورد عن أبي جعفر عليه السلام في وصف عمود النور: «نور كهيئة العين على رأس النبي صلى الله عليه وآله والاوصياء، لا يريد أحد منا علم أمر من أمر الأرض أو أمر من أمر السماء إلى الحجب التي بين الله وبين العرش إلاّ رفع طرفه إلى ذلك النور فرأى تفسير الذي أراد فيه مكتوباً»[3].

الرابع: أن يكون النظر إلى العلم الذي اختصه الله سبحانه بنفسه، ولم يطلع عليه ملائكته ورسله والأوصياء عليهم السلام بشكله التفصيلي، أو حتى بشكله الإجمالي، إلاّ أنه يطلعهم عليه بحسب المصالح والحكم، فيكون طريقه هو النظر في عمود النور، ولعل هذا ما يشير إليه قول الصادق عليه السلام: «إن لله علماً لا يعله إلاّ هو، وعلماً أعلمه ملائكته ورسله، فما أعلمه ملائكته وأنبياءه ورسله فنحن نعلمه»[4] ونحوها من الأخبار المتضافرة بهذا المضمون، وهذا المعنى يتوافق مع ما تقدم من رواية الإمام زين العابدين عليه السلام والروايات الأخرى التي تشير إلى زيادة علومهم في مثل ليلة القدر وليلة الجمعة، وربما

١ – سورة الرعد: الآية ٣٩.

٢ – الأمثل: ج٧، ص٤٣٦؛ ج١٩، ص١١٢؛ تفسير الميزان: ج١١، ص٣٨٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٥١٢، ح١٦.

٣ – بصائر الدرجات: ص٤٦٢، ح٥.

٤ – انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٦٠، ح٥.

يحمل اللفظ على ظاهره، وحينئذ يكون المعنى أن الإمام يرى ببصره ما يقع في اللوح المحفوظ ونحوه فيعلم ما فيه.

الخامس: أن يكون المراد من عمود النور هو الروح الخاص الذي يجعله الله سبحانه في الرسول والأئمة عليهم السلام ليسددهم ويعينهم في مهامهم الإلهية، وهذا الوجه كشف عنه الإمام الرضا عليه السلام، حيث يقول: «إن الله عز وجل أيدنا بروح منه مقدسة مطهرة ليست بملك، لم تكن مع أحد ممن مضى إلاّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي مع الأئمة منا تسددهم وتوفقهم، وهو عمود من نور بيننا وبين الله»[1].

وهذا يصح إذا حملنا قوله: «ليس بملك» على النفي المطلق، فيكون الروح من مراتب النفس السامية ونحوها، وربما يقال إنه حقيقة غير الملك، بل هو أعظم من الملك فيتطابق مع الآيات والروايات التي وصفت الروح بأنه يتنزل على الأنبياء والأئمة ويسددهم ويعلمهم كما في سورة القدر ونحوها، إلاّ انه يخرج موضوعاً عن هذا الطريق هنا ويدخل في الطريق الثاني.

الطريق الثاني: الملائكة

وقد دلت الأخبار الكثيرة على أن للملائكة أثراً مهماً في علوم الأنبياء والأئمة عليهم السلام، كما دلت على أربعة أصناف من الملائكة يقومون بهذا الدور:

الصنف الأول: الملائكة المحدثون؛ إذ تواترت الأخبار لفظاً ومعنى في أن الأئمة عليهم السلام تأتيهم ملائكة الله سبحانه وتحدثهم عن الله سبحانه تارة بواسطة

١ – عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢١٦ – ٢١٧، ح١.

النقر في أسماعهم، أو النكت في قلوبهم، وتارة بالمكاشفة والمشاهدة[١].

وفي الحديث الصحيح عن أبي الحسن عليه السلام: «الأئمة علماء صادقون مفهمون محدثون»[٢] وفي الروايات الأخرى أن فاطمة الصديقة محدثة أيضاً[٣]، وفي الكثير من الأخبار أن الملائكة تحدثهم وهم في بطون أمهاتهم.

الصنف الثاني: الملائكة المقرّبون ويأتون إليهم بالأخبار عن الوقائع والأحداث أو بإيصال العلوم الإلهية إليهم، فالمعلّم هو الله سبحانه بواسطة الملك، وهذا النحو من التعليم يأتي بنحوين:

أحدهما: الوحي القرآني، وهو من مختصات رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد خص الله به جبرائيل عليه السلام.

وثانيهما: التعليم والتسديد والوحي غير القرآني، وجعله الله سبحانه للمقربين من ملائكته، وهذا ما تضافر بل تواتر مضمونه بطرق الفريقين، بل هو ما أكده القرآن في الوحي إلى أم موسى وإلى مريم، بل وإلى النحل والأرض وغيرها.

وقد تواتر عن الإمام الحسن عليه السلام في أول خطبة خطبها بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعطيه الراية فيقاتل جبرائيل

١ - انظر الكافي: ج١، ص٢٦٤، باب جهات علوم الأئمة عليهم السلام؛ بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٩، ح٣.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٧١، ج٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٢٢، ح٤٤.
٣ - بصائر الدرجات: ص٣٩٢، ح١٦.

عن يمينه وميكائيل عن يساره»[١] كما كانا يحدثانه[٢].

وعن أبي جعفرعليه السلام قال: «بيت علي وفاطمة من حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسقف بيتهم عرش رب العالمين، وفي قعر بيوتهم فرجة مكشوطة إلى العرش معراج الوحي، والملائكة تنزل عليهم بالوحي صباحاً ومساءً، وفي كل ساعة وطرفة عين، والملائكة لا ينقطع فوجهم فوج ينزل وفوج يصعد، وأن الله تبارك وتعالى كشط لإبراهيمعليه السلام عن السماوات حتى أبصر العرش، وزاد الله في قوة ناظره، وأن الله زاد في قوة ناظرة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، وكانوا يبصرون العرش ولا يجدون لبيوتهم سقفاً غير العرش»[٣] وفي هذا الحديث إشارات إلى حقائق مهمة:

الحقيقة الأولى: أن الوحي النازل على الأئمةعليهم السلام ليس هو القرآن؛ لقيام الضرورة والإجماع على أن الوحي القرآني من مختصات رسول الله صلى الله عليه وآله فضلاً عن الأدلة الخاصة كرواية عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد اللهعليه السلام الذي أملاه جبرائيل على عليعليه السلام أقرآن هو؟ قالعليه السلام: «لا»[٤] وغيرها[٥].

---

١ - مجمع الزوائد: ج٩، ص١٤٦؛ الفضائل الخمسة: ج٢، ص٣٩٤- ٣٩٧؛ المعجم الأوسط: ج٣، ص٨٧، ح٢١٧٦؛ مسند أبي يعلى: ج١٢، ص١٢٥، ح٦٧٥٧؛ ذخائر العقبى: ص٧٤.

٢ - انظر فضائل الصحابة (لأحمد): ج٢، ص٦١٣، ح١٠٤٩؛ ذخائر العقبى: ص٦٩؛ وانظر الاختصاص: ص٢٨٦؛ بصائر الدرجات: ص٣١٧، ح١٠

٣ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص٩٧، ح٧١؛ مدينة المعاجز: ج٢، ص٤٤٩.

٤ - بصائر الدرجات: ص١٥٧، ح٧.

٥ - انظر بصائر الدرجات: ص٩٠- ٩٥.

فالوحي هنا محمول على معناه اللغوي، وهو الإعلام بخفاء[١] لا الاصطلاحي، ومن هنا أطلق الوحي على تعليم أم موسى في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[٢] وعلى تعليم النحل بناء بيوتها في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾[٣].

الحقيقة الثانية: أن نزول الملائكة إليهم عليهم السلام صباحاً ومساءً بل في كل لحظة وحين يتوافق مع كونهم حجة على الخلق، وأن أعمال العباد تعرض عليهم في كل يوم وفي كل أسبوع وفي كل شهر بحسب اختلاف المراتب والأحوال[٤] فهو أمر يشهد له العقل فضلاً عن النقل. وفيه ورد قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[٥].

الحقيقة الثالثة: أن الغاية من نزول الملائكة إليهم قد يكون لإخبارهم عن المقدرات الإلهية والمستحدثات من أمر الله سبحانه، وقد يكون لأجل عرض الأعمال عليهم كما استفاضت به الأخبار[٦]، وقد يكون لأجل التبرك بهم والتقرب إلى الله سبحانه بإطاعتهم وخدمتهم، وهذا ما يؤكده حديث

١ - معجم مقاييس اللغة: ص١٠٤٦، (وحي)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٥٩، (وحي)؛ مجمع البحرين: ج١، ص٤٣٠، (وحى).
٢ - سورة القصص: الآية ٧.
٣ - سورة النحل: الآية ٦٨.
٤ - الكافي: ج١، ص٢١٩، باب عرض الأعمال على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.
٥ - سورة التوبة: الآية ١٠٥.
٦ - الكافي: ج١، الأحاديث ٥٧٩- ٥٨٤.

الصادق عليه السلام عن الملائكة: «وما منهم أحد إلاّ ويتقرب كل يوم إلى الله بولايتنا أهل البيت»[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «قال جبرائيل يا ربّ فإني أسألك بحقهم عليك إلاّ جعلتني خادمهم. قال تعالى: قد جعلتك فجبرائيل عليه السلام من أهل البيت وإنه لخادمنا»[٢] وغيره مما هو متواتر[٣]، وهو يتوافق مع مضامين الروايات المتقدمة الدالة على أنهم عليهم السلام علمّوا الملائكة العبادة والتسبيح والتهليل.

الحقيقة الرابعة: أن قوة الناظرة تحتمل معنيين:

أحدهما: قوة البصر استناداً إلى ظهور قوله «يبصرون العرش» فيحمل على ارتفاع ما يمنع من النظر بنحو خرق العادة.

وثانيهما: قوة البصيرة استناداً إلى القرينة العقلية القاضية بامتناع إبصار الغيبيات إلاّ بنحو البصيرة، فتحمل قوة الناظرة على زيادة اليقين.

ولا مانع من حمل المعنى عليهما لعدم التنافي بينهما لاسيما مع ملاحظة ما دل على أن حقائقهم عليهم السلام نورية، وأنها مشتقة من نور الله سبحانه، والتعريف اللغوي للنظر حيث يطلق على تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته[٤]، فتأمل.

---

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٣٣٩، ح٥.
٢ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٣٤٥،ح١٧.
٣ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٣٣٥، باب فضل النبي وأهل بيته عليهم السلام على الملائكة وشهادتهم بولايتهم؛ الشفاء (للقاضي عياض): ج١، ص٧٠- ٨٢.
٤ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨١٢، (نظر).

الصنف الثالث: الروح، تؤكد الآيات والروايات على أن الروح بمعناها المصطلح[١] أحد وسائل العلم التي جعلها الله سبحانه في طريق علوم الأئمة عليهم السلام، وهذا من حيث الأصل مما لا نزاع فيه، وإنما النزاع في حقيقة الروح، والمستفاد من الآيات والروايات أنها على أنحاء:

أحدها: النفس الإنسانية الناطقة، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٢].

وثانيها: نفس قدسية خاصة يؤيد بها الله أولياءه، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[٤].

وثالثها: ملك عظيم من الملائكة يؤيد به الله أولياءه، وفيه ورد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾[٥] وقد اختلفوا فيه أنه جبرائيل أم هو ملك أعظم منه وأكرم، وذهب إلى كل جماعة، استناداً إلى أدلة صحيحة تثبت ما قالوه، والصواب هو أنه اطلق على كليهما بسبب علو الرتبة، فإن أشراف الملائكة تسمى بالروح من هذه الجهة، إلاّ أن الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد أنه اسم علم لملك عظيم أعظم من جبرائيل كما ستعرف.

---

١ – في مقابل المعنى اللغوي أي الريح ، انظر مجمع البحرين: ج٢، ص٣٥٤، (روح).
٢ – سورة الإسراء: الآية ٨٥.
٣ – سورة النساء: الآية ١٧١.
٤ – سورة البقرة: الآية ٢٥٣.
٥ – سورة النبأ: الآية ٣٨.

والذي يرتبط بموضوع البحث هنا هو القسمان الثاني والثالث؛ لأنهما يختصان بعلوم الأنبياء والأئمة عليهم السلام خاصة، وأما الروح بالمعنى الأول فهو محل قابل للعلم وفهم المعاني، كما أنه حقيقة مشتركة بين جميع البشر، والظاهر من بعض الروايات الواردة في هذا الشأن أن بعض علوم الأئمة ناشئة من أرواح مقدسة يختصهم الله سبحانه بها، وظاهر بعضها أنها ناشئة من ملك خاص يلقيها إليهم، والظاهر أن كليهما صحيح، ولا مانع عقلي أو شرعي يمنع من الاعتقاد بهما وإن كان هناك وجه للجمع بين القولين. أما الروح القدسية فقد تضافرت فيها الروايات:

منها: ما في الكافي عن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم أهو علم يتعلمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه؟

قال عليه السلام: «الأمر أعظم من ذلك وأوجب. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[1] .... بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلما أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم»[2].

ولعل الغاية من نفي دراية الكتاب والإيمان عنهم عليهم السلام ليست إثبات عدم

١ - سورة الشورى: الآية ٥٢.

٢ - الكافي: ج١، ص٢٧٣- ٢٧٤، ح٥.

العلم في مرحلة من الزمن بأن يكون جاهلاً ثم يعلم؛ لأن هذا يتنافى مع حقيقة علم النبيﷺ كما عرفته، بل في النصوص المتضافرة: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[١] وإنما تعود إما إلى نفي استقلالية العلم بالكتاب والإيمان؛ لأن كل ما لرسول الله من علوم ومعارف فهي مأخوذة من الله سبحانه، فهو عالم بهما، وعلمه ملازم لوجوده إلاّ أنه بالغير، بخلاف علمه سبحانه فإنه بالذات، أو نفي البعثة والإرسال حتى تنزل الروح القدسية، أو نفي التكليف بالوظائف الفعلية للكتاب والإيمان وإن كان يعلم بهما، ولعل قوله «علمه الفهم» يشير إليه.

ويوضح الإمام أبو جعفرعليه السلام بعض حقيقة هذه الروح بقوله: «إن الله خلق الأنبياء والأئمة على خمسة أرواح: روح القوة وروح الإيمان وروح الحياة وروح الشهوة وروح القدس، فروح القدس من الله، وسائر هذه الأرواح يصيبها الحدثان، فروح القدس لا يلهو ولا يتغير ولا يلعب، وبروح القدس علموا يا جابر ما دون العرش إلى ما تحت الثرى»[٢].

وفي رواية أبي عبد اللهعليه السلام أن هذه الروح القدسية يتوارثها الأئمة عن النبيﷺ حيث يقول: «فإذا قبض النبيﷺ انتقل روح القدس فصار في الإمام .... وروح القدس ثابت يرى به ما في شرق الأرض وغربها وبرّها وبحرها»[٣].

١ - عوالي اللآلئ: ج٤، ص١٢١، ح٢٠٠؛ الرواشح السماوية: ص٢٠٢.
٢ - بصائر الدرجات: ص٤٧٣ - ٤٧٤، ح١٢.
٣ - بصائر الدرجات: ص٤٧٤، ح ١٣.

والمنساق من هذه الروايات المباركة أن الروح حقيقة قدسية كريمة يفيضها الله سبحانه في المعصوم عليه السلام فتكون منشأ للعلوم الإلهية، وهذه الروح حقيقة أخرى غير نفوسهم الإنسانية الطاهرة، ولذا يتوارثونها، كما أنها منشأ لعصمتهم وتسديدهم.

وأما الروح بمعناها الآخر أي الملك المسمى بروح القدس فقد روي في الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث صحيح في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ قال: «خلق من خلق الله عز وجل أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة من بعده»[١] وفي رواية أخرى: «هو مع الأئمة يفقههم»[٢] وفي ثالثة: «هو من الملكوت»[٣].

وفي حديث صحيح عن أبي عبد الله عليه السلام حينما سئل بما تحكمون إذا حكمتم؟

قال عليه السلام: «بحكم الله وحكم داود، فإذا ورد علينا الشيء الذي ليس عندنا تلقّانا به روح القدس»[٤] وفي رواية أخرى: «أن الأوصياء محدّثون يحدثهم روح القدس ولايرونه»[٥] وفي رواية العسكري عليه السلام: «هذا روح القدس

١ - الكافي: ج١، ص٢٧٣، ح١.
٢ - بصائر الدرجات: ص٤٨٢، ح٨؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٦٩، ح٥٣.
٣ - الكافي: ج١، ص٢٧٣، ح١، ح٢؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٤٧، ح٢.
٤ - الكافي: ج١، ص٣٩٨، ح٣.
٥ - بصائر الدرجات: ص٤٧٣، ح٩.

الموكل بالأئمة عليهم السلام يوفقهم ويسددهم ويربيهم بالعلم»[1].

والمنساق من هذه الأخبار أن روح القدس حقيقة خارجة عن النفس البشرية تحدث الأنبياء والأئمة وتسددهم، وهو صنف من الملائكة أعظم من جبرائيل وميكائيل. إما من جهة شدة القرب الإلهي حتى جعله الله مسدداً لأوليائه، وإما من جهة عظم خلقه، أو من جهة عظم مهامه ومسؤولياته، ويظهر الفرق ين المعنيين في سببيتها للعلم، فإن المعنى الأول يتوافق مع العلم الشهودي أو الجبلي، بينما المعنى الثاني يتوافق مع العلم الوهبي كما قد لا يخفى، وربما يمكن القول بأن الروح المقدسة حقيقة واحدة، وهي جوهر لطيف لا يدركه البصر، وهو مقدس لنزاهته وطهارته المعنوية، وهو من النور الإلهي الخاص، فلذا لا يشوبه جهل أو نقص أو عصيان، وبهذا يمكن أن نجمع بين المعنيين بنحوين:

النحو الأول: أن نرجع جميع أوصاف الروح إلى الروح القدسية، ونرجع اختلاف الأسماء إلى تفاوت النزاهة والقدسية، فإن العقل والنقل يشهدان بأن العلم والعصمة؛ من الفيوضات الإلهية الخاصة، وهما لا يحلان إلاّ على المحل القابل، وقابلية المحل تتبع مدى طهارته وقدسيته ونزاهته، فإذا زكت النفوس المطهرة للأنبياء والأئمة وازداد إشراقها الإلهي يسمى بروح القدس، وإذا شملتهم عناية الله سبحانه وأحاطتهم رحمته ونعمته وفاضت عليهم أنواره القدسية يكون عمله عمل الملك الذي يحدثهم ويسددهم ولا

١ - كمال الدين: ص٤٢٩.

يرونه، ولذا قال عليه السلام: «تلقانا به روح القدس».

ولعل من هنا أطلق لفظ الروح على منشأ الحياة في آدم عليه السلام، حيث يقول سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[١] والسبب في تسمية النفس بالروح هنا هو الاصطفاء لأن الله سبحانه اصطفى روح آدم على سائر الأرواح، كما أطلق الروح على جبرائيل عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٢] وأطلق على الوحي نفسه أو القرآن في قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾[٣] بل أطلق الروح على الإيمان والهداية أيضاً، كما ورد عن الصادق عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٤].

والجميع صحيح بلحاظ اختلاف المراتب والحيثيات؛ لقيام الضرورة والإجماع، بل والمستفاد من مجموع الأدلة النقلية والعقلية أن ليس للإنسان إلاّ روح واحدة ذات مراتب بحسب درجات استعداداتها ولطافتها[٥].

وإليه يشير الحديث المبارك: «الأرواح خمسة: روح القدس، وروح الإيمان، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح البدن، فمن الناس من يجتمع فيه الخمسة الأرواح، وهم الأنبياء السابقون، ومنهم من تجتمع فيهم أربعة أرواح وهم من عداهم من المؤمنين، ومنهم من يجتمع فيه ثلاثة أرواح وهم

١ – سورة الحجر: الآية ٢٩.
٢ – سورة مريم: الآية ١٧.
٣ – سورة غافر: الآية ١٥.
٤ – سورة المجادلة: الآية ٢٢.
٥ – انظر تفسير الميزان: ج١، ص٢٤٣.

اليهود والنصارى ومن يحذو حذوهم»[١].

والمنساق منه أن تفاوت الناس ينشأ من تفاوتهم في المعارف والطاعات، فالنبي والإمام إنسان كامل تجتمع فيه جميع الأرواح، فروحه تقية نقية طاهرة، فلذا يكون معصوماً كما ورد وصفها بأنها لا تلهو ولا تلعب، ووصفها الصادق والباقر عليهما السلام لدى بيان معنى قوله تعالى: ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ بأنها روح مخلوقة خلقها الله في آدم وعيسى عليهما السلام[٢]، وأضافها إليه للتشريف وبيان علو الرتبة.

وكلما ابتعدت الروح المودعة في البشر عن الطهارة المعنوية هبطت درجاتها، فالمؤمن غير المعصوم قد يعصي الله سبحانه، ولا تصل روحه مراتب القداسة، فلذا يبقى على مستوى روح الإيمان، واليهود والنصارى ونحوهم حيث لم يؤمنوا بالله سبحانه حق الإيمان ولم يعرفوه حق معرفته تبقى أرواحهم على مستوى القوة والشهوة والبدن، وهذه الصفات تنحط بهم عن مستوى الإنسانية الكاملة، ومن هنا وصف أمثالهم القرآن بأنهم: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٣].

كما علل الأئمة عليهم السلام وقوع بعض المعاصي من ابن آدم بخروج روح الإيمان منه، ففي رواية ابن بكير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام في معنى

---

١ - مجمع البحرين: ج٢، ص٢٤٢.

٢ - انظر تفسير البرهان: ج١، ص٤٢٨.

٣ - سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا زنى الزاني فارقه روح الإيمان» قال قوله تعالى: «﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ ذلك الذي يفارقه»[١] وعلى هذا المعنى يحمل قوله عليه السلام: «من أفطر يوماً في شهر رمضان خرج منه روح الإيمان»[٢] أي فارقه نور الطاعة وطيبها.

النحو الثاني: أن نرجع جميع الأوصاف إلى الملك عليه السلام، ولا يبعد أن يكون جبرائيل عليه السلام كما احتمله البعض[٣]، وربما يؤيده قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٤] حيث وصفه بالروح الأمين؛ بداهة أن جبرائيل هو أشرف الملائكة وأقربها إلى الله سبحانه، وهو المطاع في الملأ الأعلى، حيث وصفه سبحانه بقوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٥] ومعنى ذلك أن له أعواناً وجنوداً كما يشهد له قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[٦] فإذا كان جبرائيل واسطة في علم النبي والإمام؛ أو واسطة في تسديدهم يسمى روحاً إما من باب الإضافة التشريفية إلى الباري عز وجل، أو من باب أنه واسطة فيض العلم والعصمة اللذين يشكلان روح النبي والإمام؛ وحقيقته، وإذا كان واسطة في نزول القرآن يسمى جبرائيل والنازل وحي.

١ - ثواب الأعمال: ص٢٦٣؛ وانظر من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٢٠، ح٤٩٨٧.
٢ - الهداية: ص١٨٩ - ١٩٠.
٣ - انظر مواهب الرحمن: ج٤، ص١٩٥، تفسير الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.
٤ - سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣ - ١٩٤.
٥ - سورة التكوير: الآية ٢١.
٦ - سورة عبس: الآيتان ١٥ - ١٦.

وحيث إن هذا المقام لا يناله إلاّ من اصطفاه الله وطيب نفسه وزكاها؛ لوضوح أن الفيض الإلهي لا ينزل إلاّ على المحل القابل، فإذا زكت النفس صارت محلاً مستعداً لنزول الروح الإلهية وإفاضة العلوم والمعارف الربانية، فسميت نفس النبي والإمام بروح القدس من هذه الجهة، وهذه الروح المسددة لهم هي الملك بعد تهيؤ النفس واستعدادها، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾[1].

ولا يقال إن هذا الجمع يتنافى مع وصف الروح في بعض الروايات بأنه أعظم من جبرائيل وميكائيل وهو دليل المغايرة.

إذ يجاب عنه: بأن صفة العظمة ناشئة من عظمة المهمة، وحيث إن مهام النبي والأئمة أوسع من مجرد الوحي الهابط من الملأ الأعلى إلى قلب النبي، وأعظم لما فيها من مقامات معنوية ومهام رسالية ربانية أكبر من مجرد تلقي الوحي وإيصاله إلى النبي، ولذا وصفته الروايات بأنه أعظم.

إلاّ أن في النحوين من الجمع إشكالاً؛ لأنهما مخالفان لظهور الآيات والروايات بل صريحهما في المغايرة بين الروح القدسية وروح القدس، وما دام لا يمنع من حمل الكلام على ظهوره مانع عقلي أو شرعي لا داعي لمخالفته لعدم المقتضي بل لوجود المانع.

نعم التوجيهان يتوافقان مع مسلك الحكماء القائلين بوجود حقائق

---

١ - سورة النحل: الآية ٢.

مجردة منها النفس ومنها الملائكة، أو أن الملائكة وجودات عقلانية تامة لا جسمانية، ولكن الحق هو عدم صحة هذا القول؛ لاستحالة وجود المجرد في عالم الإمكان. نعم هو صفة من خواص صفات الخالق تبارك وتعالى على ما حققناه في علم الكلام.

هذا كله أن قلنا بأن الروح من الملائكة، وأما إذا قلنا إنه مخلوق آخر غير الملائكة كما قد يستظهر من بعض الروايات نظير رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام حينما سئل عن الروح وهل هو جبرئيل أم لا؟ قال: «جبرئيل من الملائكة، والروح أعظم من الملائكة، أليس أن الله عز وجل يقول: تنزل الملائكة والروح»[1] فيحمل تعليمه على العلم الوهبي بلا إشكال.

الصنف الرابع: ملائكة القدر

تضافرت الأخبار المعتبرة في أن الملائكة تنزل على الإمام في ليلة القدر لأجل غايات عديدة نكتفي بأربع منها:

الأولى: تفصيل المجملات المودعة عندهم عليهم السلام من شؤون الخلائق كالآجال والأرزاق وسائر ما يحدث في العام.

الثانية: إمضاء المقدرات الإلهية لأجل تنفيذها من قبل الملائكة المدبرة في طول السنة.

الثالثة: ربط عالم الغيب وعالم الشهادة في تلك الليلة التي لا تضاهيها ليلة

١ - انظر تفسير البرهان: ج٤، ص٤٨١؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٣٧، ح١٠٢.

في المقام والرتبة بسبب بلوغ الإمام عليه السلام منتهى درجات القرب والعبودية للخالق تبارك وتعالى.

الرابعة: تجديد الملائكة العهد والميثاق مع الإمام المعصوم عليه السلام لكونه الحجة عليهم، وقد أمروا بإطاعته وتنفيذ أوامره وأحكامه، وهذا المضمون متواتر في الأخبار الكثيرة.

منها: رواية أبي جعفر عليه السلام في جواب من سأله عن ليلة القدر وسبب نزول الملائكة فيها. قال: «لقد خلق الله ليلة القدر أول ما خلق الدنيا، ولقد خلق فيها أول نبي يكون وأول وصي يكون، ولقد قضى أن يكون في كل سنة يهبط فيها بتفسير الأمور إلى مثلها من السنة المقبلة»[١] وقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أسري به لم يهبط حتى أعلمه الله علم ما قد كان وما سيكون، وكان كثير من علمه ذلك جملاً - أي مجملاً - يأتي تفسيرها في ليلة القدر، وكذلك كان علي بن أبي طالب عليه السلام قد علم جمل العلم ويأتي تفسيره في ليالي القدر كما كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال السائل: أوما كان في الجمل تفسير؟ قال: «بلى، ولكنه إنما يأتي بالأمر من الله في ليالي القدر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلى الأوصياء افعل كذا وكذا لأمر قد كانوا علموه أمروا كيف يعملون به» قلت: فسر لي هذا ... قال: «لم يمت نبي إلاّ وعلمه في جوف وصيه، وإنما تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بالحكم الذي يحكم به بين العباد» فقال السائل: وما كانوا علموا ذلك الحكم؟

---

١ - الكافي: ج١، ص٢٥٠، ح٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٣٦، ح١٠٠.

قال: «بلى قد علموه ولكنهم لا يستطيعون إمضاء شيء منه حتى يؤمروا في ليالي القدر كيف يصنعون إلى السنة المقبلة»[١].

ومنها: رواية أبي عبد الله عليه السلام جاء فيها جواب لسؤال عبد الله بن سنان: «فإذا كانت ليلة ثلاثة وعشرين فيها يفرق كل أمر حكيم، ثم ينهى ذلك ويمضي» قال قلت: إلى من؟ قال: «إلى صاحبكم، ولولا ذلك لم يعلم ما يكون في تلك السنة»[٢].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام قال: «أن الله يقضي فيها مقادير تلك السنة ثم يقذف به إلى الأرض» فقلت: إلى من؟ فقال لي: «مَنْ ترى يا عاجز»[٣] وفي أخرى: «يلقيها إلى صاحب الأرض وهو الحجة»[٤] إلى غير ذلك من أخبار[٥].

والخلاصة: أن أصناف الملائكة الكرام تصل إلى الإمام المعصوم عليه السلام فتخبره بالأخبار والحوادث، وتبين له المفصلات التي قدرها الله سبحانه بحكمته، فيعلم ما يكون وما يجري على الخلائق؛ لأنه حجة الله عليها وهو المأمور بإمضائها بواسطة الملائكة، وهذا كله من باب التعليم الإلهي

١ - انظر الكافي: ج١، ص٢٥١-٢٥٢، ح٨؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٤،ص٤١٤-٤١٥، تفسير الآية (٤) من سورة القدر؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٣٧، ح١٠١؛ موسوعة الإمام الجواد عليه السلام: ج٢، ص٥٩٧؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٨١، ح٦٨.
٢ - انظر بصائر الدرجات: ص٢٤٠- ٢٤١، ح٣، ح١١.
٣ - ينابيع المعاجز: ص١٥٤.
٤ - انظر بصائر الدرجات:ص٢٤١، ح٤؛ ينابيع المعاجز: ص١٥٣.
٥ - انظر بصائر الدرجات: ص٢٤٠، باب ما يلقى إلى الأئمة عليهم السلام في ليلة القدر.

والمواهب المعنوية الخاصة التي يخص الله سبحانه بها أولياءه تجليلاً وتعظيماً لهم، وإظهاراً لمقاماتهم، وتبليغاً لحجتهم، ولذا ورد في رواية علي بن أبي حمزة قال: سمعته يقول: «ما من ملك يهبطه الله في أمر إلاّ بدأ بالإمام فعرض ذلك عليه، وإن مختلف الملائكة من عند الله إلى صاحب هذا الأمر»[١].

الطريق الثالث: الوراثة

فقد ورث الأئمة عليهم السلام علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء والكتب السماوية بواسطتين:

الأولى: الوراثة المقامية، فإن مقام الإمام امتداد لمقام النبوة والرسالة، والإمامة الخاتمة كالنبوة الخاتمة ترث كل ما للنبوات والرسالات السماوية السابقة؛ لأنها تكمل أدوارها وتحقق غاياتها.

والثانية: الوراثة التلقينية، وهي تحصل بتعليم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم واملائه على الإمام عليه السلام ما يتعلق بالعلوم والمعارف الربانية، أو ما يتعلق بالمهام الرسالية التي تقتضيها وظيفة الإمام بعد النبي في تعليم الخلق وإرشادهم، أو ما يتعلق بتدبير شؤونهم الدينية والدنيوية، وكلاهما يسمى إرثاً بحسب اللغة والعرف[٢]، وهذا مما يقضي بضرورته العقل، ودل على أصله الكتاب العزيز

١ -انظر تفسير كنز الدقائق: ج١٤، ص٤١٧ تفسير الآية ٤ من سورة القدر.
٢ - انظر بصائر ذوي التمييز: ج٥، ص١٩٤- ١٩٥، بصيرة (١٨).

في آيات عديدة نصت على توارث الأنبياء والأوصياء بعضهم عن بعض.

منها: قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[١] ومن أهم ما ورثه منه هو النبوة والعلم والفضيلة[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣] والمراد أن علم الكتاب يورث إلى المصطفين من عباد الله سبحانه؛ لوضوح أن لا معنى لوراثة ذات الكتاب، والآية المباركة تشير إلى حقائق هامة:

الحقيقة الأولى: أن علوم الكتاب مما تتوارث بين الأجيال.

الحقيقة الثانية: أن ضابطة التوراث ليس الحسب أو النسب، بل العبودية الحقيقية لله سبحانه.

الحقيقة الثالثة: أن وراثة العلم لا تتم بالكسب والتحصيل، ولا بالوراثة الجسدية، بل بالمقام والرتبة؛ لأنها تتم بالاصطفاء الإلهي وهو اختيار صفو الشيء واستخلاصه على ما تفيده مادة (صفو) في اللغة[٤]، وهو المتبادر منه عرفاً، والمصداق الكامل للمصطفين من عباد الله هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ

١ - سورة النمل: الآية ١٦.
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٣، (ورث).
٣ - سورة فاطر: الآية ٣٢.
٤ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٨،(صفو)؛ لسان العرب: ج١٤، ص٤٦٢، (صفا)؛ مجمع البيان: ج٢، ص٢٧٧.

﴿عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] فإن آل إبراهيم يشمل آل محمد عليهم السلام حصراً أو امتداداً على ما تفيده اللغة والعرف[2].

ومن هنا تضافرت الروايات في الدلالة على أن وراثة الكتاب مختصة بالأئمة من آل محمد عليهم السلام [3]، وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «هي خاصة وإيانا عنى»[4] وعن أبي الحسن الأول عليه السلام: «فنحن الذين اصطفانا الله عز وجل، وأورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كل شيء»[5] وهذا ما يؤكده الواقع الخارجي لأنهم عليهم السلام أعلم الأمة بالقرآن وحقائقه ودقائقه الظاهرة والباطنة باتفاق الفريقين.

ومجموع هذه الحقائق تؤكد أن اختيار الإمام للإمامة إنما يكون بالنص والاصطفاء الإلهي لا باختيار الأمة.

ونلاحظ مما تقدم أن القرآن الكريم دل على وقوع التوارث بين الأنبياء والأئمة بالعلم والمقامات المعنوية، وهو يثبت القضية إجمالاً، وأما التفاصيل فقد جاءت بها الروايات المعتبرة، والذي يتتبع هذه الأخبار[6] يجد أنها نصت على ثلاثة أمور:

---

١ - سورة آل عمران: الآية ٣٣.
٢ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٧٨، تفسير الآية ٣٣، من سورة آل عمران.
٣ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٥٠ - ١٥١، ح٨٨، ح٩٠، ح٩٤، ح٩٦.
٤ - انظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٥٠، ح٨٩.
٥ - الكافي: ج١، ص٢٢٦، ح٧.
٦ - انظر تفاصيل هذه الأخبار في الكافي: ج١، ص٢٢٣، باب أن الأئمة ورثوا علم النبي صلى الله عليه وآله وجميع الأنبياء والأوصياء الذين قبلهم.

الأول: أن علوم الأنبياء السابقين وما أودع الله في كتبهم من علوم قد اجتمعت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والثاني: أن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قد ورث عترته عليهم السلام هذه العلوم وأودعها فيهم.

والثالث: أن العلوم التي أودعها الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم جعل خزائنها ومفاتيحها بأيديهم عليهم السلام، فهم ورثة الأنبياء في علومهم ومقاماتهم، ومن هنا صاروا أئمة وحججاً على الخلق أجمعين.

والمستفاد من الروايات أن وراثتهم لعلوم الأنبياء السابقين بنحو الوراثة المقامية، وأما وراثتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت بالوراثتين المقامية والتلقينية، وقد جاءت في وراثة الأنبياء روايات معتبرة كثيرة:

منها: ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام: «أن الله جمع لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم علم النبيين بأسره، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صبّ ذلك كله عند أمير المؤمنين عليه السلام»[1] وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام: «فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه»[2].

ومنها: ما رواه الكليني قدس سره في الكافي بسند عن أبي الحسن الأول عليه السلام أنه سأله أحد أصحابه فقال: جعلت فداك أخبرني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورث النبيين كلهم؟ قال: «نعم» قلت: من لدن آدم حتى انتهى إلى نفسه؟ قال: «ما بعث

---

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٦٧، ح٢١.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٥٥- ٢٥٦، ح١.

الله نبياً إلاّ ومحمدﷺ أعلم منه، قال: قلت: إن عيسى بن مريم كان يحيي الموتى بإذن الله. قال: «صدقت» وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير وكان رسول اللهﷺ يقدر على هذه المنازل؟ قال: فقال: «إن سليمان بن داود قال للهدهد حين فقده وشك في أمره: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾[1] حين فقده، فغضب عليه فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[2] وإنما غضب لأنه كان يدله على الماء، فهذا ـ وهو طائر ـ قد أعطي ما لم يعط سليمان، وقد كانت الريح والنمل والإنس والجن والشياطين والمردة له طائعين، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء وكان الطير يعرفه، وإن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[3].

وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسيّر به الجبال، وتقطع به البلدان، وتحيا به الموتى، ونحن نعرف الماء تحت الهواء، وإن في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر إلاّ أن يأذن الله به مع ما قد يأذن الله مما كتبه الماضون، جعله الله لنا في أم الكتاب، إن الله يقول: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾[4] ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾[5] فنحن الذين اصطفانا

١ – سورة النمل: الآية ٢٠.
٢ – سورة النمل: الآية ٢١.
٣ – سورة الرعد: الآية ٣١.
٤ – سورة النمل: الآية ٧٥.
٥ – سورة فاطر: الآية ٣٢.

الله عز وجل، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء»[١] ومضمون الرواية يشير إلى قضية بديهية يحكم بها العقل، وهي ضرورة وجود ملازمة دائمة بين شمولية العلم وشمولية الحجية.

وتوضيح ذلك: أن الله سبحانه جعل الأئمة حججاً على الخلق، ولازم الحجية أن يكون الإمام عالماً بكل ما يحتاجه الخلق، وإلاّ بطلت حجيته، ولزم منه الخلف ونقض الغرض، وفي هذا جاءت صحيحة هشام بن الحكم في حديث بُرَيْه وكان من علماء النصارى، حيث لقي أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام في حكاية مفصلة، فابتدأ أبو الحسن عليه السلام يقرأ الإنجيل؟ فقال بُرَيْه: إياك كنتُ أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك، فآمن بُرَيْه، وحسن إيمانه، وآمنت المرأة التي كانت معه، فدخل هشام وبُرَيْه والمرأة على أبي عبد الله عليه السلام فحكى له هشام الكلام الذي جرى بين أبي الحسن موسى عليه السلام وبين بُرَيْه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» فقال بُرَيْه: أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء؟ قال: «هي عندنا وراثة من عندهم نقرؤها كما قرؤوها، ونقولها كما قالوا، إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول لا أدري»[٢].

وفي رواية أخرى لهشام بن الحكم قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك يا هشام لا

١ - الكافي: ج١، ص٢٢٦، ح٧.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٢٧، ح١.

يحتج الله تبارك وتعالى على خلقه بحجة لا يكون عنده كل ما يحتاجون إليه»[١].

ومنها: ما رواه في الكافي بسنده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سأله عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾[٢] ما الزبور وما الذكر؟ قال: «الذكر عند الله والزبور الذي أنزل على داود، وكل كتاب نزل فهو عند أهل العلم ونحن هم»[٣].

ومنها: رواية عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه في كفيّ، فيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. قال الله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٤]»[٥].

وأما وراثة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله المقامية فالروايات الواردة فيها متواترة لفظاً ومعنى بطرق الفريقين وقد صرحت جميعها عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن علياً عليه السلام هو وارث النبي صلى الله عليه وآله وهو وصيه وخليفته[٦].

منها: ما في كنز الحقائق: «لكل نبي وصي ووارث، وعلي وصيي ووارثي»[٧]

---

١ - الكافي: ج١، ص٢٦٢، ح٥.
٢ - سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.
٣ - الكافي: ج١، ص٢٢٥- ٢٢٦، ح٦.
٤ - سورة النحل: الآية ٨٩.
٥ - الكافي: ج١، ص٢٢٩، ح٤.
٦ - انظر التفاصيل في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٣٥، وما بعدها.
٧ - كنز الحقائق: ص١٢١؛ وانظر الرياض النضرة: ج٢، ص١٧٩؛ وانظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٤٠.

وإطلاق الوراثة هنا يشمل ما يتعلق بشؤون النبي الحقوقية ومقاماته المعنوية؛ إذ لا معنى لوراثته في الأموال ونحوها من الشؤون الحقيقية، لوجود من هو أقرب إليه نسباً وهو بنته الطاهرة وأولادها عليهم السلام، وبهذا صرحت رواية ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام: «والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارث علمه، فمن أحق به مني؟»[1].

وفي مستدرك الصحيحين روى بسندين عن أبي إسحاق قال: سألت قثم ابن العباس كيف ورث علي رسول الله صلى الله عليه وآله دونكم؟ قال: لأنه كان أولنا به لحوقاً، وأشدنا به لزوقاً[2]، وهذه الرواية تشهد على أن وراثته عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله كانت مسلمة بين الصحابة حتى إن السؤال كان عن السبب لا عن الأصل، بل يظهر من أكثر من رواية أنه صلى الله عليه وآله أوضح بعض مضامينها أيضاً حينما سئل عن معنى وراثة علي عليه السلام له قال: «ما ورثت الأنبياء من قبلي» وحينما سئل عن معنى ما ورثت الأنبياء من قبله؟ قال: «كتاب ربهم وسنّة نبيهم»[3].

وأما الوراثة التلقينية فهي أيضاً متواترة بطرق الفريقين ورواياتها كثيرة:

١ - المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٢٦؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٣٤؛ الرياض النضرة: ج٢، ص٢٢٦؛ وانظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٤٦.

٢ - المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٢٥؛ وانظر كنز العمال: ج٦، ص٤٠٠؛ والخصائص (للنسائي): ص٢٨.

٣ - الغدير: ج١٠، ص١٠٤؛ انظر الرياض النضرة: ج٢، ص١٧٨؛ كنز العمال: ج٥، ص٤٠، ونسب إلى جماعة من الرواة والمحدثين؛ انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٤٧.

منها: الروايات الكثيرة التي تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم علياً من العلم ألف باب يفتح له من كل باب ألف باب[١]، وصّرح صلى الله عليه وآله في مواطن عديدة وبألفاظ مختلفة أن علياً عليه السلام هو باب مدينة علوم الرسول صلى الله عليه وآله، وأنه كان يلقمه العلم ويزقه زقاً منذ نعومة أظفاره[٢]، وهذه الحقيقة لم تكن غامضة أو مجهولة على أحد من الصحابة، بل شهد بها أولياؤه وخصماؤه معاً، ومن هذا ما روي في كنز العمال أن عماراً خطب في الناس في بيان فضل علي عليه السلام فقال: يا أيها الناس! إنكم والله إن أتبعتموه وأطعتموه لم يضل بكم عن منهاج نبيكم قيس شعرة – أي مقدار – وكيف لا يكون ذلك وقد استودعه رسول الله صلى الله عليه وآله المنايا والوصايا وفصل الخطاب على منهاج هارون بن عمران؛ إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي» فضلاً خصه الله به أكراماً منه لنبيه صلى الله عليه وآله، حيث أعطاه ما لم يعطه أحداً من خلقه[٣].

وروى في الاستيعاب أن معاوية كان يكتب فيما ينزل به ليسأل له علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعني عنك[٤].

١ – انظر ينابيع المودة: ص٧٧؛ تفسير الرازي: في تفسير الآية ٣٣ من سورة آل عمران؛ كنز العمال: ج٦، ص٣٩٢؛ فتح الباري: ج١٦، ص١٦٥؛ بصائر الدرجات: ص١٧٢، ح٣.
٢ – صحيح الترمذي: ج٢، ص٢٩٩؛ حلية الأولياء: ج١، ص٦٤؛ المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١٢٦؛ تاريخ بغداد: ج٤، ص٣٤٨؛ وانظر مزيد المصادر في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٢٧٩، وما بعدها.
٣ – نهج السعادة: ج١، ص٣٦٣؛ كنز العمال: ج١٦، ص١٨٥ – ١٨٦، ح٤٤٢١٦.
٤ – الاستيعاب: ج٢، ص٤٦٣.

وروى المأمون العباسي عن آبائه عن عبد الله بن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كفوا عن ذكر علي بن أبي طالبعليه السلام، فلقد رأيت من رسول اللهصلى الله عليه وآله فيه خصالاً لأن تكون لي واحدة منهن في آل الخطاب أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، وعد منها أنه «أعلمهم بأيام الله» والحديث طويل. قال ابن عباس في آخره: ولقد فاز عليعليه السلام بصهر رسول الله، وبسطة في العشيرة، وبذلاً للماعون، وعلماً بالتنزيل، وفقهاً للتأويل[١].

إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة التي تشهد بأن علياًعليه السلام هو الوارث الوحيد لعلوم رسول الله وعلوم القرآن دون غيره من الصحابة، وهذا أمر مشهود معروف، حتى قال الحرالي: قد علم الأولون والآخرون أن فهم كتاب الله منحصر إلى علم علي، ومن جهل ذلك فقد ضل عن الباب الذي من ورائه يرفع الله عن القلوب الحجاب حتى يتحقق اليقين الذي لا يتغير بكشف الغطاء[٢].

و «ألف باب» في قوله: «علمني رسول الله ألف باب، كل باب يفتح ألف باب»[٣] قد يحمل على معناه الظاهر، فيكون المراد من (الألف) العدد والكمية، ومعنى ذلك أن يكون قد علم (ألف ألف علم) بعضها ذكروها مثل علم المنايا والبلايا والوصايا وفصل الخطاب وأنساب العرب ومولد الإسلام

١ - كنز العمال: ج١٣، ص١١٧، ح٣٦٣٧٨.
٢ - الغدير: ج٦، ص٧٢؛ فيض القدير: ج٣، ص٦١؛ وانظر الرياض النضرة: ج٢، ص٢٢١؛ فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٢٦٩.
٣ - مجموعة الرسائل: ج٢، ص٣٨؛ المناقب (لابن شهر آشوب): ج١، ص٣١٥.

كما في الأخبار المعتبرة[١]، وبعضها سكتوا عنها لقصور في المتعلمين[٢]، وقد يحمل على غير الظاهر، أي الكناية عن الكثرة، وحينئذ يحتمل أكثر من معنى:

أحدها: أنه ناظر إلى القواعد والكليات، فإن القاعدة إذا طبقت على مصاديقها الكثيرة يصدق عليها أنها باب يفتح منها ألف باب.

ثانيها: أنه ناظر إلى الاستنتاجات التي يستنبطها العالم من كل قضية بواسطة ملازماتها وآثارها، فمثلاً حينما يتوصل الباحث إلى ضرورة نفي الجسمية عن الخالق تبارك وتعالى فإنه يستنتج منها الكثير من النتائج الأخرى، فيحكم باستحالة النظر إليه، واستحالة لمسه أو القرب المكاني أو الزماني منه، واستحالة الحجم والوزن والشكل وكل ما يتعلق بالجسم والجسماني من خواص وآثار فإنه ينفيه عنه، فتكون النتيجة الواحدة فاتحة للعديد من أبواب العلم والمعرفة.

ثالثها: أنه ناظر إلى التسلسل المنطقي للعلوم والمعارف، فإن بين العلوم ترتب طولي في المبادئ والمقدمات، أو في الموضوعات، أو في الغايات والمقاصد، ولا يمكن الإحاطة بالعلم اللاحق قبل الاطلاع على العلم السابق، فيكون كل علم مفتاحاً للعلم اللاحق وطريقاً إليه، فمثلاً علم التفسير يتوقف على معرفة علوم اللغة والبلاغة والقراءة والتاريخ، ومن دونها لا يمكن معرفة التفسير، فالعلوم المذكورة تدخل كمبادئ ومقدمات

١ - انظر بصائر الدرجات: ص٣٤٩ وما بعدها الأحاديث ١- ١٦.

٢ - انظر بصائر الدرجات: ص٣٤٠- ٣٤١، ح١- ٥؛ ص٥٥١، ح١- ٣.

لعلم التفسير، بينما الموضوع في علم اللغة متقدم على الموضوع في علم النحو، وكلاهما متقدم على الموضوع في علم التفسير.

فإن موضوع علم اللغة هو الكلمة من حيث معناها، بينما في علم النحو هو الكلمة من حيث حالاتها الإعرابية. أما التفسير فموضوعه هو الكلمة القرآنية من حيث معناها ومقاصدها، ونلاحظ أن بين مواضيع هذه العلوم الثلاثة ترتب طولي؛ إذ لا يمكن معرفة الكلمة القرآنية قبل معرفة معناها وحالاتها في الجملة.

نعم علم التفسير متقدم رتبة من حيث الغاية، إلاّ أن حصول هذه الغاية في الخارج متأخر عن غاية اللغة والنحو، وهذا شأن كل العلوم التي يقع بعضها في نظام السلسة الطولية لبعضها الآخر؛ لأن الغاية هي أول ما تحصل في الفكر، إلاّ أنها آخر ما تتحقق في الخارج، فغاية علم اللغة طريق إلى الغاية من علم النحو، وهي الأخرى طريق توصل علم التفسير إلى غايته وهكذا.

ويتحصل: أن الباحث إذا أحاط بالعلم السابق سيفتح له باباً إلى العلم الآخر الذي يتبعه في السلسلة الطولية، فيقال كل علم يفتح باباً لعلم آخر وهكذا.

رابعها: أنه ناظر إلى كمية العلوم الواقعية التي أودعها الله سبحانه في كتابيه التكويني والتشريعي والتي قد لا يدركها الناس؛ لأنهم قاصرون عن بلوغ مداها من دون معلم ومرشد، أو يتوقف بلوغهم لها على مزيد من التعلم والتحصيل والتحقيق، كما نلاحظه في العلوم البشرية، فإن في كل يوم

تفتح للبشر أبواب للعلم لم تكن معروفة لهم سابقاً هذه الأبواب العلمية التي لا يحصل عليها البشر العاديون إلاّ بمزيد من البحث والتحقيق، ولا يبلغون مداها إلاّ بالكسب والتحصيل، وفي عين الحال هي في أحيان كثيرة مشوبة بالغموض أو الخطأ في المقدمات أو النتائج، وذلك للقصور في المعلم أو المتعلم، أو التقصير في المقدمات المنتجة لهذه العلوم الواقعية، بينما أحاط بها أمير المؤمنين عليه السلام إحاطة تامة؛ لأنه أخذ مفاتحها من رسول الله صلى الله عليه وآله وبحسب نورانية روحه وسعة قلبه، رآها رأي حضور ومكاشفة لا بحث وتحقيق، ويمكن تقريبه بعلم من ينظر إلى القصر من خارجه ويخبر عن هندسته وشكله ومحتوياته من خلال ترتيب المقدمات المستندة إلى الأشباه والنظائر والاحتمالات، بالقياس إلى من يمتلك مفاتيح القصر فيفتح أبوابه ويدخل في جوفه ويخبر عما فيه من خلال ما يراه بمشاهداته.

ومن الواضح أن إخبار الأول لا يتلازم مع الصواب، بخلاف الثاني، كما أن الأول مبني على الظن بينما الثاني على اليقين، كما أن الأول محدود بخلاف الثاني؛ لأن الدخول إلى القصر يفتح أمام المشاهد أبواباً جديدة للمعرفة لم يكن يدركها الأول وهكذا، وإليه يشير قول الصادق عليه السلام في رواية عبد الأعلى مولى آل سام: «والله إني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه في كفي، فيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. قال الله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1]»[2].

١ - سورة النحل: الآية ٨٩.

٢ - الكافي: ج١، ص٢٢٩، ح٤.

والفرق بين هذه الاحتمالات الأربعة أن الثلاثة الأول تستند إلى العلم التلقيني بخلاف الرابع فإنه مبني على العلم التلقيني والشهودي معاً، فإن ما أخذ من النبي صلى الله عليه وآله بناء على أنه نوع من التعليم يكون تلقينياً إلاّ أن الوصول إلى النتائج والآثار المترتبة عليه يكون عبر المشاهدة القلبية.

والذي يقوى للنظر هو الرابع، وتقوي هذا الاحتمال الأحاديث النبوية الأخرى التي وصفت العلم بالمدينة، ووصفت علياً عليه السلام بأنه بابها، وأما الاحتمالات الثلاثة الأول فهي غير وجيهة؛ لأنها تعود إلى أنحاء العلم الحصولي، وعلوم الأنبياء والأئمة ليست حصولية باتفاق الكلمة، بل تتنافى مع غاية بعثتهم وتنصيبهم حججاً وأئمة على الخلق؛ لأن العلم الحصولي من ملازمات الحاجة والجهل والقصور؛ لتوقفه على الكسب والتحصيل، وبالتالي حاجة النبي والإمام إلى معلم ومرشد أعلم منه، وهو خلف، ومن هنا قال مولانا الصادق عليه السلام: «إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول لا أدري»[١].

وفي رواية أبي بصير قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام جعلت فداك بم يعرف الإمام؟ قال: فقال: «بخصال: أما أولها فإنه بشيء قد تقدم من أبيه فيه بإشارة إليه - أي النص- لتكون عليهم حجة، ويسأل فيجيب، وإن سكت عنه ابتدأ، ويخبر بما في غد، ويكلم الناس بكل لسان» ثم قال لي: «يا أبا محمد! أعطيك علامة قبل أن تقوم» فلم ألبث أن دخل علينا رجل من أهل خراسان

---

١ - الكافي: ج١، ص٢٢٧، ح١.

فكلمه الخراساني بالعربية فأجابه أبو الحسن بالخراساني فقال له الخراساني: والله - جعلت فداك - ما منعني أن أكلمك بالخراسانية غير أنني ظننت أنك لا تحسنها، فقال: «سبحان الله إذا كنت لا أحسن أجيبك فما فضلي عليك؟» ثم قال لي: «يا أبا محمد! إن الإمام لا يخفى عليه كلام أحد من الناس ولا طير ولا بهيمة ولا شيء فيه الروح، فمن لم يكن هذه الخصال فيه فليس هو بإمام»[١].

وفي رواية أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: «الله أجل واعز وأكرم من أن يفرض طاعة عبد يحجب عنه علم سمائه وأرضه»[٢] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة. هذا وهناك احتمالات أخرى لتوجيه هذه الطائفة من الأحاديث نتركها للمباحث المفصلة.

ومنها: الروايات التي تحدثت عن العلوم التي أخذها علي أمير المؤمنين عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله، ودونها في كتاب اسمه الجامعة، وقد وصفه الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله: «فيها كل حلال وحرام، وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرش في الخدش»[٣] والظاهر أنه مختص بالأحكام والفضائل ونحوها مما يتعلق بعالم التشريع.

ومنها: الروايات التي تحدثت عن العلوم الربانية التي دونها الإمام أمير

١ - الكافي: ج١، ص٢٨٥، ح٧.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٦٢، ح٦؛ بصائر الدرجات: ص١٤٤،ح٢.
٣ - الكافي: ج١، ص٢٣٩، ح١؛ بصائر الدرجات: ص١٦٣، ح٤.

المؤمنين عليه السلام، وسميت بعلم الجفر الأبيض، وقد جمعت في وعاء من آدم فيه علم النبيين والوصيين، وفيه زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم، ويظهر من الأخبار أنه تضمن تفاصيل علوم الشرائع السابقة وشرائع الإسلام بما فيها تفاصيل الحدود والتعزيرات كالجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش[١].

ولعل المراد من الزبور والتوراة والإنجيل والصحف أحد أمرين:

الأول: الكتب الصحيحة كما أنزلت عليهم عليهم السلام في مقابل ما موجود من التوراة والإنجيل وغيرهما التي حرّفت.

الثاني: العلوم المودعة في هذه الكتب.

ومنها: الروايات التي تحدثت عن العلوم التي سمعتها الصديقة الطاهرة٢ من النبي المصطفى صلى الله عليه وآله ومن الملائكة المحدثين لها، ودوّنها أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب سمي بمصحف فاطمة[٢]، وهو ليس قرآناً بل أكثر من القرآن بثلاث مرات، تضمن ما يتعلق بعالم التكوين من العلوم والمعارف، كما تضمن علم ما كان وما يكون وما هو كائن كما في الخبر الصحيح[٣]، وقد تحدث الصادق عليه السلام عن منبع العلم في هذا المصحف في الخبر الصحيح قال: «إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً، وكان دخلها حزن

١ - انظر الكافي: ج١، ص٢٤٠، ح٣.
٢ - انظر الكافي: ج١، ص٢٣٩، ح١.
٣ - انظر بصائر الدرجات: ص١٧٧، ح١٨.

شديد على أبيها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيّب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك»[١].

وفي رواية فضيل بن سكرة قال: «ليس من ملك يملك الأرض إلاّ وهو مكتوب فيه - أي مصحف فاطمة - باسمه واسم أبيه»[٢].

ومن كل ما تقدم نتوصل إلى نتائج:

النتيجة الأولى: أن للإمام عليه السلام إحاطة تامة بكل ما سوى الله سبحانه من عوالم التكوين والتشريع، فلا يغيب عن علمه شيء من التكوين أو من الشرائع السماوية أو مواريث الأنبياء وخصوصياتهم الإلهية.

وهذه الإحاطة التامة بهذه العوالم جعلته حجة الله سبحانه على خلقه، وبيده زمام الكون، فلا يعزب عن علمه ولا عن قدرته شيء من المخلوقات بإذن الله تبارك وتعالى وتعليمه؛ بداهة أن العلم منشأ لكل الكمالات والفضائل الربانية، وقد عرفت أن لهذا العلم مراتب ثلاث بعضها ترجع إلى الجبلة والخلقة، وبعضها إلى الرقي والتسامي والعناية الإلهية، وبعضها إلى التوسيط ، كما عرفت أن لكل مرتبة من هذه المراتب طرقاً، وقد أشارت إلى بعض هذه الطرق أكثر من رواية.

منها: قول الصادق عليه السلام: «إن علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب،

١ - الكافي: ج١، ص٢٤١، ح٥.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٤٢، ح٨.

ونقر في الأسماع، أما الغابر فما تقدم من علمنا، وأما المزبور فما يأتينا، وأما النكت في القلوب فإلهام، وأما النقر في الأسماع فأمر الملك»[١].

ولعل المراد من علمهم الغابر هو الباقي، ففي اللغة غبرَ أي بقي، والغابر الباقي[٢]، وحينئذ ينطبق على علومهم الجبلية واللدنية والشهودية ونحوها من العلوم التي لازمت وجوده عليه السلام ولا تتغير ولا تتبدل.

وأما (المزبور) فهو المأخوذ وراثة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وما دوّن منه في الجامعة ومصحف فاطمة، وما أخذ من القرآن الكريم، فإن المزبور في اللغة هو المكتوب[٣]، وحينئذ يكون قوله «ونكت في القلوب ونقر في الأسماع) عطف بيان لتفسير كيفية العلم وتوضيحه، وربما تكون عطف مغايرة، وحينئذ يحمل الغابر على العلم الجبلي، والمزبور على التوسيطي، والنكت والنقر على اللدني، وأصرح من هذه الرواية روايته الأخرى إذ قال عليه السلام: «إن منّا لمن يعاين معاينة، وإن منّا لمن ينقر في قلبه ... وإن منا لمن يسمع»[٤] وظاهر الخبر أن مراتب العلوم تختلف من إمام لآخر، إلاّ أنه يحمل على اختلاف الحالات لا الأشخاص؛ لقيام النص والضرورة على أن ما ثبت لأحدهم من

١ - الكافي: ج١، ص٢٦٤، ح٣.
٢ - معجم مقاييس اللغة: ص٧٨١، (غبر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤١٩،(غبر)؛ وانظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠١، (غبر).
٣ - انظر لسان العرب: ج٤، ص٣١٥، (زبر)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٧٧، (زبر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص ٣١٤، (زبر).
٤ - بصائر الدرجات: ص٢٥١، ح١.

الكمالات هو ثابت لغيره أيضاً.

ومنها: ما عن الصادق عليه السلام قال: قلت أخبرني عن علم عالمكم؟ قال عليه السلام: «وراثة من رسول الله صلى الله عليه وآله ومن علي عليه السلام» قال: قلت: إنا نتحدث أنه يقذف في قلوبكم وينكت في أذانكم؟ قال: «أو ذاك»[1] وقريب منه ورد عن أبي جعفر عليه السلام [2]، وفي صحيح الحارث سأل أبا عبد الله عليه السلام عن علمهم عليهم السلام؟ قال: «وحي كوحي أم موسى»[3] إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة[4] التي تشير وتؤكد المراتب المذكورة.

النتيجة الثانية: أن علم الإمام عليه السلام حقيقة واحدة إلاّ أنها مشككة ذات مراتب، وهي إذا تعلقت بما سوى الله تبارك وتعالى من المخلوقات اتصفت بالأوصاف الثلاثة المتقدمة، وأعلى مراتبها العلم الجبلي، وأدناها العلم التوسيطي، والمرتبة المتوسطة منها العلم اللدني، ومن هنا تنطبق عليه خصوصيات الحقائق المشككة، وعمدتها ثلاث وهي:

الأولى: خصوصية وحدة الحقيقة.

الثانية: خصوصية اختلاف الآثار في الوجود بحسب مراتب قربها من مصدر الوجود.

---

١ – الكافي: ج١، ص٢٦٤، ح٢.

٢ – بصائر الدرجات: ص٣٢٧، ح٦.

٣ – الاختصاص: ص٢٨٦؛ بحار الأنوار: ج٢٦، ص٥٨، ح١٢٨.

٤ – انظر بصائر الدرجات: ص٣٠٥ وما بعدها؛ مرآة العقول: ج٣، ص١٣٦؛ بحار الأنوار: ج٢٦، ص٥٩، ح١٣٠، ح١٣١.

الثالثة: خصوصية الإحاطة، فإن الرتبة الأشد محيطة بكمالات الرتب الأدنى منها دون العكس، وعلى هذا الأساس ترجع المرتبتان الثانية والثالثة من العلم إلى العلم الجبلي؛ لأنها تحيط بهما إحاطة تامة كما هو الحال في سائر الحقائق المشككة؛ إذ إن المرتبة الأدنى هي امتداد للمرتبة الأعلى وانبعاث عنها في الحقيقة والآثار، وهذا القانون عام يحكم الماديات كما يحكم المعنويات، فالرتبة الدانية من النور هي ذات الرتبة الأعلى ولكن بأوصاف وآثار أقل، فلذا يقال هذا نور شديد، وذاك نور ضعيف، كما يقال هذا لون غامق أي شديد اللونية، وذاك لون غير غامق أي لونيته ضعيفة، ولا تغاير بين الرتبتين من حيث الحقيقة والذات، وإنما المغايرة من حيث الآثار والأوصاف. هذا في التكوينيات المادية، وهكذا في المعنويات، فيقال هذا الشخص كريم، وذاك أشد كرماً، وهذا شجاع، وذاك أكثر شجاعة، وهكذا العلم.

فالعلم الجبلي هو أقوى مراتب العلوم وأشدها آثاراً؛ لأنه يعود إلى ذات العالم وانكشاف ذات المعلوم لديه، ثم بعده العلم اللدني ثم العلم التوسيطي.

كما أن الذي يمتلك العلم الجبلي فإنه يمتلك العلم اللدني والتوسيطي بالضرورة، كما أن الذي يمتلك العلم اللدني فانه يمتلك العلم التوسيطي بالضرورة وليس العكس.

وهذه إحدى جهات اختلاف مراتب الأنبياء والأولياء، كما أنها تظهر الوجه المنطقي في سعة علم رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من علوم سائر الأنبياء والأولياء؛ لأن الله سبحانه اشتق أرواحهم من نوره، وهم أول من

خلق الله سبحانه، فامتلكوا أعلى مراتب العلم وأقربها من الخالق تبارك وتعالى.

النتيجة الثالثة: أن اختلاف مصادر العلم لديهم ليس من باب الحاجة؛ لأن العلم ذاتي لهم مجبول بأرواحهم؛ إذ خلقهم الله سبحانه أنواراً والنور ظاهر في نفسه لا يحتاج واسطة للكشف والشهود، ولذا كانوا أول من عرفوا الله وعبدوه وسبحوه وهللوه، ومنهم تعلمت الملائكة التسبيح والتهليل، كما جعلهم حججاً على خلقه قبل أن يخلق الدنيا وما فيها، بل وآدم بين الماء والطين على ما عرفته من بعض الروايات المتقدمة[1].

فهم أكمل من عرف الله سبحانه على أحسن ما يمكن أن يعرفه نبي أو وصي، وبواسطتهم عرف الملائكة والأنبياء التوحيد والعبادة، كما قال رسول الله ﷺ: «يا علي ما عرف الله إلاّ أنا وأنت، وما عرفني إلاّ الله وأنت، وما عرفك إلاّ الله وأنا»[2] وفي رواية أخرى قال ﷺ: «ثم جُعلنا عن يمين العرش، ثم خلق الملائكة فهللنا فهللت الملائكة، وكبرنا وكبرت الملائكة، وكان ذلك من تعليمي وتعليم علي، وكان ذلك في علم الله السابق أن الملائكة تتعلم منا التسبيح والتهليل، وكل شيء يسبح لله ويكبره ويهلله

١ - انظر الفضائل (ابن شاذان): ص٣٤؛ سنن الترمذي: ج٥، ص٥٨٥؛ المعجم الكبير: ج٢٠، ص٣٥٣.

٢ - مختصر بصائر الدرجات: ص١٢٥؛ المختصر: ص٣٨.

بتعليمي وتعليم علي»[١] ونحو ذلك من أخبار كثيرة[٢].

وواضح أن الروايات التي أشارت إلى اختلاف جهات العلم عندهم كالروايات التي تحدثت عن عمود النور، أو الروح والملائكة، أو النقر والنكت أو التلقين ونحوها ليست من باب الحاجة، بل من باب التجلي والإظهار بحسب مقتضيات الحكمة واللطف الإلهي.

وتوضيح ذلك: قد عرفت أن الذي يمتلك العلم الجبلي لا يحتاج إلى المراتب الأدنى منه، لاسيما التوسيط والسببية، إلاّ أنهم أكدوا وجود هذه الجهة من علومهم، والظاهر أنه لم يكن من باب حاجتهم إليها، وإنما من باب حاجة الخلق إليها؛ لقصور عقول البشر عن إدراك حقيقة علومهم على ما هي عليه إلاّ بالنحو المذكور، ويمكن أن نلخص جهات الحكمة التي تقتضي بيان جهة التوسيط والسببية في العلم في أربع:

الجهة الأولى: محاكاة الناس على قدر عقولهم، ومخاطبتهم بحسب مستوياتهم. يشهد لهذه الحقيقة الكثير من الروايات التي يلحظ الأئمة عليهم السلام عدم تحمل المستمع أو السائل إلى عمق الجواب، فيلطف في جوابه، ويحاكيه بما يفهمه من باب الإرفاق أو المداراة أو التقية، وهذه الموانع يشير إليها الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام حينما يتحدث عن بعض أسرار هذا العلم بقوله:

١ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٣٤٥، ح١٨؛ مشارق أنوار اليقين: ص٤٠.

٢ - انظر التوحيد: ص٣١٩، ح١؛ بحار الأنوار: ج١٥، ص١٦، ح٢٢؛ الكافي: ج١، ص٤٤٢، ح١٠.

«أنا العالم بأنساب الناس في الأصلاب، أنا أعلم بسرائركم وظواهركم وما أنتم صائرون إليه، علم منحنا به من قبل خلق الخلق أجمعين، وبعد فناء السموات والأراضين، ولولا تظاهر أهل الباطل ودولة أهل الضلال ووثوب أهل الشك لقلت قولاً تعجب منه الأولون والآخرون» ثم وضع يده الشريفة على فيه وقال: «يا محمد! اصمت كما صمت آباؤك من قبل»[1].

وقال الإمام العسكري عليه السلام لمن سأله عن القائم المنتظر عجل الله تعالى فرجه: «ألسنا قد قلنا لكم لا تسألون عن علم الغيب فنخرج ما علمنا منه إليكم فيسمعه من لا يطيق استماعه فيكفر»[2] والذي لا يطيق استماعه يشمل الموالي القاصر عن دركه فيكفر غلوا أو إنكاراً، والمعادي الذي يجحده وينكره.

ويؤكد هذه الحقيقة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كما في حديث الأصبغ بن نباتة قال سمعته يقول: «إن حديثنا صعب مستصعب، خشن مخشوش، فانبذوا إلى الناس نبذاً، فمن عرف فزيدوه، ومن أنكر فامسكوا، لا يحتمله إلاّ ثلاث: ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»[3].

وهذا المضمون متواتر في رواياتهم عليهم السلام[4]، وفي روايات كثيرة قسمت هذا

---

١ - بحار الأنوار: ج٥٠، ص١٠٨، ح٢٧؛ مشارق أنوار اليقين: ص٩٨؛ الهداية الكبرى: ص٢٩٦.

٢ - الهداية الكبرى: ص٣٣٤، باب١٣.

٣ - بصائر الدرجات: ص٤١، ح٥؛ مختصر بصائر الدرجات: ص١٢٤.

٤ - انظر الكافي: ج١، ص٤٠٢، ح٥؛ المختصرك ص١٥٤؛ بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٨٥-٣٨٦، ح٤٤.

العلم إلى قسمين: قسم وصفته بالسر الإلهي الذي لا يحتمله حتى الملك المقرب والنبي المرسل والمؤمن الممتحن في الإيمان؛ لذا أمرهم بحفظه والتكتم عليه، وقسم آخر هو أيضاً من الأسرار إلاّ أنهم كلفوا ببيانه للناس؛ لتوقف ضرورة المعرفة والتوحيد عليه، وخصصت قابلية هذا العلم بالمؤمنين الممتحنين فقط الذين اسلموا وجوههم وقلوبهم لأولياء الله وحججه، ففي صحيحة أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا أبا محمد! إن عندنا والله سراً من سرِّ الله، وعلماً من علم الله، والله ما يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلف الله ذلك أحداً غيرنا، ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا، وإن عندنا سراً من سر الله وعلماً من علم الله أمرنا الله بتبليغه، فبلغنا عن الله عز وجل ما أمرنا بتبليغه، فلم نجد له موضعاً ولا أهلاً ولا حمّالة يحتملونه حتى خلق الله لذلك أقواماً خلقوا من طينة خلق منها محمد وآله وذريته ... فبلغنا عن الله ما أمرنا بتبليغه فقبلوه واحتملوا ذلك فبلغهم ذلك عنا فقبلوه واحتملوه»[1].

وتكشف هذه الروايات المباركات حقائق عديدة:

الحقيقة الأولى: أن علومهم عليهم السلام فيما يتعلق بالخلق تسع جميع الخلق كما أنها سابقة على وجود الخلق، وليست تابعة للخلق أو متأخرة عنه، كما أن هذا العلم ليس قديماً ولا أزلياً بالمعنى الفلسفي للقدم والازلية، بل هو ممنوح

١ - الكافي: ج١، ص٤٠٢، ح٥؛ بصائر الدرجات: ص٤٠، باب في أئمة آل محمد عليهم السلام حديثهم صعب مستصعب.

من الله سبحانه وراجع إليه، ويؤكد هذه الحقيقة قول الإمام الرضاعليه السلام: «علمت كل لسان وكل كتاب وما كان وما سيكون بغير تعلم، وهذا سرّ الأنبياء أودعه الله فيهم، والأنبياء أودعوه إلى أوصيائهم، ومن لم يعرف ذلك ويتحققه فليس هو على شيء، ولا قوة إلاّ بالله»[١].

الحقيقة الثانية: أن علومهم ليست كسائر العلوم مما تتوقف على التعليم والكسب، بل تتوقف على قوة قدسية في البصيرة والإيمان بمقامات الأئمةعليهم السلام ودرجاتهم عند الله تبارك وتعالى؛ لأنها لا تعتمد على البراهين العقلية فقط، بل تقوم على طهارة القلب وقوة اليقين ورسوخ الإيمان والعقيدة، ولذا وصفوها بأنها صعبة مستصعبة؛ لأن محتواها صعب عميق في نفسه، يستصعبه من لم يبلغ درجة اليقين، ومن هنا فإن الناس ينقسمون تجاهها إلى ثلاثة أصناف:

صنف يضيق قلبه بها فينكرها، فيختل إيمانه، ويكفر بهم، وقد وصفهم الجواد بأهل الباطل، وصنف يشك بها، وحينئذ إما ينكرها عليهم فيكفر بهم، أو يغالي بهم و يخرج عن الإيمان أيضاً، وصنف ثالث يقبلها منهم في ميزانها الصحيح، بسبب قوة إيمانه وشدة يقينه وقدرته على الموازنة فيها بين صفاتهم وصفات خالقهم تبارك وتعالى، وهو الذي وصفوه بأنه (مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان) وبحسب درجات الإيمان واليقين تختلف درجات العلم والمعرفة، وتتفاوت المراتب بين أفراد هذا الصنف، وإلى هذه الحقيقة

١- الخرائج والجرائح: ص٣١٦.

أشار الصادقعليه السلام في رواية أبي بصير فراجع[1].

الحقيقة الثالثة: أن كتمان هذه العلوم كان سياسة متوارثة عند الأئمةعليهم السلام كما يؤكده قول الجوادعليه السلام: «أصمت كما صمت آباؤك من قبل» كما أن هذه السياسة جعلوها منهجاً لشيعتهم وأوليائهم، فأوصوهم بأن لا يبيحوا علومهم الإلهية حذراً من الجحود أو الغلو؛ لأنها علوم خشنة مخشوشة أي صعبة عسيرة يتوقف فهمها وإدراكها على قابلية واستعداد كبيرين، وهو ما يشير إليه قول أمير المؤمنينعليه السلام: «فانبذوا إلى الناس نبذاً، فمن عرف فزيدوه، ومن أنكر فأمسكوا» أي اطرحوه على سبيل الكشف السريع من دون إظهار الاعتداد به؛ ليكون اختباراً للمتعلمين، فإن وجد فيهم من يملك الاستعداد لتحمله يزيدوه، وإن وجد من يضيق صدره به تركوه، وهو ما يفيده معنى النبذ في اللغة[2]، كما أنه أسلوب عقلائي حكيم يتبعه كل من يريد البوح بسر عميق قد لا يحتمله المستمعون.

الحقيقة الرابعة: أن هناك مرتبة من علومهم تعد من الأسرار بينهم وبين الله سبحانه لم يطلع عليها غيرهم حتى الأنبياء والملائكة المقربون، فضلاً عن المؤمنين المخلصين. بهذا السر استعبدهم الله سبحانه، وخصهم بعبوديته، فكانوا أقرب عباده إليه، وأحبهم إليه، وأكرمهم عنده، وبها امتازوا عن سائر

---

١ - انظر الكافي: ج١، ص٤٠٢، ح٥.

٢ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٨٨، (نبذ)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص١٨٩، (نبذ)؛ وانظر معجم مقاييس اللغة: ص٩٧١، (نبذ).

الأنبياء والملائكة، وصاروا أئمة عليهم وعلى الخلق أجمعين.

وبهذا يظهر أن إخلاصهم وعبوديتهم لله سبحانه ناشئة من علمهم بالله سبحانه ودرجة يقينهم، كما أن إمامتهم على الأنبياء والملائكة وحجتهم على الخلق أجمعين ناشئة من هذا العلم.

والمرتبة الثانية من الأسرار الإلهية المودعة عندهم قد أودعوها عند مواليهم العارفين بهم؛ لوجود مسانخة حقيقية بينهم وبين العارفين بهم ناشئة من وحدة الطينة، فقد نصت الأخبار المتضافرة على أن أرواح المؤمنين بالأئمة عليهم السلام والعارفين بفضلهم ومقاماتهم الإلهية خلقوا من فاضل طينتهم، وهي طينة طيبة أخذت من أشرف مكان في الجنة يسمى بعليين، خلقت منها أبدان الأئمة عليهم السلام، ومن هذه الطينة اشتقت أرواح شيعتهم ومحبيهم العارفين بهم[1].

منها: رواية أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن الله خلقنا من أعلى عليين، وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا، وخلق أبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوي إلينا؛ لأنها خلقت مما خلقنا»[2] ومن هنا تنشأ علاقة المسانخة والارتباط بحيث حظي شيعتهم بالقابلية والاستعداد لتحمل بعض أسرارهم الإلهية، والمراد من القلوب الارواح. عبّر عنها بالقلوب لأنها محل المعرفة، ومن هذه الفضيلة يظهر أمران:

الأول: أن أرواح العارفين بالأئمة عليهم السلام وشيعتهم المطيعين لهم هي أفضل

١ - انظر الكافي: ج١، ص٣٨٩- ٣٩٠، ح١-٤.
٢ - الكافي: ج١، ص٣٩٠، ح٤.

الخلق وأشرفه، وهذه الأفضلية ناشئة من أفضلية الطينة التي خلقت منها هذه الأرواح، والتمايز بينهم إنما يكون بالعلوم التي يحملونها وبالأعمال.

الثاني: أن معرفة الأئمةعليهم السلام والطاعة لهم والتسليم لأمرهم هي ضابطة معرفة الله وطاعته والقرب من الله سبحانه، كما أن الجهل بهم أو إنكارهم والتمرد عليهم هو ضابطة الجحود والبعد من الله سبحانه، ولذا ورد في الزيارة المباركة: «من عرفهم فقد عرف الله، ومن جهلهم فقد جهل الله»[1] وفي رواية علي بن جعفر عن أخيه عن أبيه: «لولانا ما عبد الله»[2] وستمر عليك العديد من الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة.

الجهة الثانية: إظهار مقاماتهم المعنوية التي خصهم الله سبحانه بها؛ إذ جعلهم مستودع علم النبي صلى الله عليه وآله دون غيرهم من صحابته، وبهذا يظهر فضلهم وإمامتهم على الخلق، فإن من الواضح أن العلوم الجبلّية تحتاج إلى إظهار إلى الخلق، وحيث إن البشر قاصرون عن إدراك مثل هذه العلوم إلاّ بالتوسيط والسببية أكدوا لهم بأن علومهم مأخوذة من رسول اللهصلى الله عليه وآله؛ إذ فتح رسول الله لعلي ألف باب من العلم من كل باب يفتح ألف باب.

مع أن هذا الفتح بالنحو المذكور يتوافق مع تشكيكية العلم؛ لأن علم رسول اللهصلى الله عليه وآله في الرتبة الأعلى، وقد عرفت أن الرتبة الأعلى محيطة بالرتبة الأدنى، فيكون علم رسول اللهصلى الله عليه وآله في السلسة الطولية لعلومهمعليهم السلام، كما

١ - المزار (للشيخ المفيد): ص٢٠٥؛ المزار (لمحمد بن المشهدي): ص٩٩؛ المزار (للشهيد الأول): ص٢١٥.

٢ - الكافي: ج١، ص١٩٣، ح٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٤٠، ح١٢.

يتوافق مع التوسيط والتلقين، وعليه فإن إظهار جهة التوسيط في علومهم يستلزم إظهار وصايتهم ووراثتهم للنبيصلى الله عليه وآله في علومه، فيكون مقدمة لإرجاع الناس إليهم في الإمامة والخلافة، ولا يرجعون إلى غيرهم ممن لا يحظى بهذه المنزلة.

الجهة الثالثة: حفظ علوم النبيصلى الله عليه وآله وما يريد الله سبحانه وصوله للخلق من المعارف والأحكام إلى الناس؛ ليكون مصباحهم في الدين والدنيا عند فقدان شخص النبيصلى الله عليه وآله وانقطاع الوحي عنهم، فلابد وأن تكون علومه باقية في أمته تهديهم إلى الحق، فكان لابد من بيان أن الإمامعليه السلام هو الحافظ لعلوم النبيصلى الله عليه وآله ووارثه، وهو مستودع سره ومقامه، وذلك من خلال جمع ما أملاه النبيصلى الله عليه وآله في مثل الجامعة والجفر ومصحف فاطمة ونحوها من علوم أخذها الإمامعليه السلام عن رسول اللهصلى الله عليه وآله، أو حدثت بها الملائكة.

الجهة الرابعة: بيان التفاصيل التي أجملت في القرآن الكريم، أو إظهار المقدرات التي أودعها الله سبحانه في اللوح المحفوظ ، وإيصالها إلى مرتبة الفعلية، وكذلك الأحكام في مواضع يدركها عموم الناس بحواسهم، تقريباً لهم إلى الإيمان، لاسيما وأن غالب الناس لا يؤمنون بالغيب إلاّ عن طريق الحواس من باب إدراك المعقول بالمحسوس، ولهذا ضرب القرآن الكريم الكثير من الأمثلة الحسية لإثبات الخالق ووحدانيته، كما أن سبحانه أرسل لهم الأنبياء ليكونوا المثلين لأخلاق الله سبحانه ومظاهر آياته وإرادته، ولولا ذلك لم يؤمن أكثر الناس، أو لم يدركوا واقع الصفات الإلهية وآثارها.

المطلب الثاني: في سعة علم الإمام عليه السلام

أن علوم الأئمة عليهم السلام واسعة المدى في عالمي التكوين والتشريع، محيطة بكل ما سوى الله من الحقائق والحوادث، فلا يتحدد علمهم بزمان أو مكان أو حالة أو مجال؛ لما تقتضيه طبيعتهم النورية التي ذاتيها العلم والإحاطة بالأشياء أولاً، وما يقتضيه مقام حجيتهم على الخلق ثانياً، وهذا ما نصت عليه الروايات المعتبرة.

منها: ما روي في الكافي عن جماعة سمعوا أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إني لأعلم ما في السموات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة، وأعلم ما في النار وأعلم ما كان وما يكون» ثم مكث هنيئة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه فقال: «علمت ذلك من كتاب الله عز وجل، إن الله عز وجل يقول فيه: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]»[2].

وفي رواية أخرى نسب هذا العلم إلى الوراثة عن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لما رأى صعوبة المعنى على سامعه[3].

---

١ - سورة النحل: الآية ٨٩.

٢ - الكافي: ج١،ص٢٦١، ح٢.

٣ - الكافي: ج١، ص٢٦٠- ٢٦١، ح١.

وفي رواية ثالثة نسبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى إذن الله، فقد روي عن أبي ذر أنه قال: كنت سائراً في أغراض مع أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ مررنا بواد ونمله كالسيل الساري فذهلت مما رأيت فقلت: الله أكبر جل محصيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تقل ذلك ـ يا أبا ذر ـ ولكن قل: جل بارئه، فو الذي صوّرك إني أحصي عددهم، وأعلم الذكر منهم من الأنثى بإذن الله عز وجل»[١].

ومنها: رواية المفضل بن عمر قال: دخلت على الصادق عليه السلام ذات يوم، فقال لي: «يا مفضل! هل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم» قلت: يا سيدي وما كنه معرفتهم؟ قال: «يا مفضل! من عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السنام الأعلى».

قال: قلت: عرفني ذلك يا سيدي قال: «يا مفضل! تعلم انهم علموا ما خلق الله عز وجل وذرأه وبرأه، وأنهم كلمة التقوى وخزان السموات والأرضين والجبال والرمال والبحار، وعرفوا كم في السماء من نجم وملك، ووزن الجبال وكيل ماء البحر وأنهارها وعيونها وما تسقط من ورقة إلاّ علموها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين، وهو في علمهم، وقد علموا ذلك، وقال: «يا مفضل! إن العالم منا يعلم حتى تقلب جناح الطير في الهواء، ومن أنكر من ذلك شيئاً فقد كفر بالله من فوق عرشه»[٢] وقوله عليه السلام: «من أنكر ذلك فقد كفر بالله من فوق عرشه» يشير إلى ثلاث حقائق:

---

١ – تأويل الآيات: ج٢، ص٤٩٠، ح٨؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٤٢.
٢ – بحار الأنوار: ج٢٦، ص١١٦، ح٢٢؛ وانظر مجمع النورين: ص٢٨٦.

الحقيقة الأولى: أن هذا العلم الواسع الذي عندهم هو بعطاء الله لهم وبقدرته، ولذا عد من أنكر ذلك كافراً بالله من فوق عرشه، أي كافراً بقدرته وسلطته سبحانه في أن يعطي لعباده ما يشاء من العلم والمعرفة كما يفيده المعنى الباطن للعرش.

الحقيقة الثانية: أن القول بسعة علمهم وإحاطتهم بكل ما سوى الله سبحانه لا يستلزم الغلو، لأن كل ما لهم من الكمالات والفضائل ومنها العلم فهو من الله سبحانه لا من أنفسهم، ولذا وصفهم بخزان السماوات، وإنهم علموا بما خلق الله سبحانه.

الحقيقة الثالثة: أن السر في نسبة المنكر لذلك إلى الكفر يعود لوجهين:

أحدهما: الكفر العقيدي، وهذا يتحقق لمن أنكر هذه الحقيقة بسبب إنكاره للأئمة عليهم السلام والجحود بمقاماتهم التي جعلهم الله سبحانه فيها وقد نسب القرآن الكريم كل من أنكر شيئاً مما جعله الله سبحانه إلى الكفر، فوصف من أنكر الكتاب ودلالاته بالكافر، وكذا من أنكر الرسول، أو أنكر حكم الإسلام، ففي الأول قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾[1] وآيات الله حججه ودلالاته[2]، وفي الثاني قال جماعة من المسلمين هموا بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على رواية، أوهموا بإخراجه من المدينة على رواية أخرى[3]:

١ - سورة آل عمران: الآية ٤.

٢ - انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٣٦، تفسير الآية المزبورة.

٣ - انظر مجمع البيان: ج٥، ص٩١، تفسير الآية ٧٤ من سورة التوبة.

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٢].

وفي الثالثة قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٣] وهو يشمل من ينكر حكم الله لجحوده بالله سبحانه، ومن يؤمن بالله ولكنه يحكم بغير حكمه[٤]؛ لانطباق عنوان الكفر عليه، فالكفر في اللغة ستر الشيء وإخفاؤه[٥]، وهو يشمل ستر العقيدة وستر الحكم كما يشمل الستر بالعمل.

ثانيهما: الكفر العملي، وهو ينسب لمن آمن بالأئمة عليهم السلام وجحد مقاماتهم الإلهية، أو وضعهم في غير مراتبهم التي رتبهم الله بها، وقد نسب القرآن مَن ينكر بالعمل إلى الكفر؛ لوجود ملازمة بين الجحود في العمل والجحود في الفكر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٦] حيث نسب من لم يحج إلى الكفر مع أنه مؤمن، ولذا نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من استطاع ولم يحج متعمداً إلى غير المسلمين[٧]، كما يطلق على من لم يشكر النعمة الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي

١ – سورة التوبة: الآية ٧٤.
٢ – سورة التوبة: الآية ٨٤.
٣ – سورة المائدة: الآية ٤٤.
٤ – انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٤٢، تفسير الآية المزبورة.
٥ – معجم مقاييس اللغة: ص٨٩٧، (كفر)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧١٤، (كفر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٧٤، (كفر).
٦ – سورة آل عمران: الآية ٩٧.
٧ – انظر مجمع البيان: ج٢، ص٣٥٠، تفسير الآية المزبورة.

﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[١] للملازمة بين الشكر والإيمان وعدم الشكر والكفر؛ بداهة أن الشكر يستلزم الاعتراف بالنعمة، وحقها أن تشكر، ولازم عدم الشكر هو ستر الحق والتغطية على النعمة، وهذا المعنى ينطبق على ما نحن فيه أيضاً؛ لأن للإمام حقوقاً على الأمة تستدعي الشكر، ومن هذه الحقوق أن يعرفه الناس حق معرفته، ويضعوه في مكانته التي أرادها الله تبارك وتعالى، فإذا قوبل بالنكران أو الجحود كان كفراً بحقه وبنعمة وجوده.

وربما يستصعب البعض امتلاك الإمام المعصوم لمثل هذا العلم الواسع، ويجده من الأمور المنكرة، فنقول في مناقشته: إن البحث في ثبوت مثل هذا العلم للإمام يقع في مرحلتين: مرحلة الإمكان ومرحلة الوقوع الخارجي. وفي المرحلة الأولى نقول: إن من الثابت أن امتلاك الإمام عليه السلام لهذا المستوى من العلم الواسع ليس من الأمور الممتنعة عقلاً كأمتناع إجتماع النقيضين، بل هو في نفسه من الحقائق الممكنة الوجود؛ إذ لا يمتنع على الله سبحانه أن يعطي لبعض عباده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة؛ لمصالح تقتضيها حكمته تعالى، وحيث إن الأمر يعود إلى قدرة الله فلا ينبغي الشك فيها، وقد اثبت هذه الحقيقة الإمام أبو جعفر عليه السلام حينما قال له بعضهم: أن شيعتك تدعي أنك تعلم كيل ما في دجلة، وكانا جالسين على دجلة، فقال له أبو جعفر عليه السلام: « يقدر الله عز وجل أن يفوض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه؟» قال: نعم، فقال عليه السلام: «أنا أكرم على الله من بعوضته»[٢].

١ - سورة النمل: الآية ٤٠.

٢ - إثبات الوصية: ١٩١- ١٩٢.

وعليه فما أمكن أن يعطى لبعوضة مع ما لها من ضعف القوى وضعة الحال فإنه يمكن أن يعطى لأوليائه واشرف خلقه وأقرب عباده إليه، فإعطاء العلم الواسع لهم وجعلهم خزائن الأسرار الإلهية في التكوين والتشريع أمر ممكن في نفسه، ولا محذور فيه. هذا ما يتعلق بمرحلة الإمكان وأما مرحلة وقوعه بالفعل فهو ما تواترت به الأدلة النقلية فضلاً عن العقلية، وقد عرفت مما تقدم بعض هذه الأدلة، ونضيف عليها الأدلة الكثيرة الدالة على أن علومهم عليهم السلام هي من تعليم الله سبحانه، فقد فتح لهم أبواب عالم الغيب، وأطلعهم عليه، وملكهم زمامه وجعلهم المحيطين بخفاياه وأسراره، وبهذا شهد القرآن في العديد من الآيات، وعضدتها الروايات:

منها: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾[1] فإن إطلاق الآية يدل على أنه سبحانه علم رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم سائر العلوم الإلهية التي هي من أسرار عالم الغيب، وعطف العلم على إنزال الكتاب والحكمة يفيد المغايرة، فيدل على أن هذا العلم ليس من قبيل علم الكتاب ولا الحكمة، والمراد من الحكمة معناها الظاهر وهو حسن التدبير ووضع الأشياء في مواضعها، ومن الكتاب القرآن الكريم، وكلاهما علم آتاه الله نبيه بالنبوة، وأما العلم الذي لم يكن يعلمه فهو العلم بحقائق الأشياء وأسرار الوجود ومفاتيح الرموز التي علمها الله سبحانه رسوله بالمباشرة كما يقتضيه إطلاق قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾.

١ - سورة النساء: الآية ١١٣.

وبهذا وردت الروايات بالطريقين، فقد روي عن قتادة في معنى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ قال: علمه الله بيان الدنيا والآخرة(١)، وفي رواية أخرى عن الضحاك قال: علمه الخير والشر(٢)، وقد مر عليك ما ورد بطرقنا في معناه. هذا وقد اتفقت كلمة أكثر مفسري الفريقين(٣) على أن تعليم النبي ﷺ تم بنحوين:

الأول: التعليم بالوحي السماوي، وقد ذكرته الآية بإنزال الكتاب والحكمة.

والثاني: التعليم الإلهي اللدني، ويتم في رتبته الدانية بالمكاشفة والشهود، وفي رتبته العالية بالعلم الجبلي الذي أودعه الله سبحانه في روح النبي منذ أن شق نوره، وأودع فيه النبوة قبل الخلق كما مر عليك، ويؤكد هذا المعنى (كان) التامة التي تفيد وقوع ذلك منذ خلقه، ومقام الامتنان الذي أظهره سبحانه بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ولذا قال في مجمع البيان في معناها: فضله عليك منذ خلقك إلى أن بعثك عظيم؛ إذ جعلت خاتم النبيين وسيد المرسلين، وأعطاك الشفاعة وغيرها(٤).

---

١ - جامع البيان: ج٢٧، ص١٥٠، ح٢٥٤٢٩؛ الدر المنثور: ج٢، ص٢٢٠، تفسير الآية المزبورة؛ فتح القدير: ج١، ص٥١٤.

٢ - الدر المنثور: ج٢، ص٢٢٠، تفسير الآية المزبورة؛ فتح القدير: ج١، ص٥١٤.

٣ - انظر مجموعة رسائل الغزالي- الرسالة اللدنية: ج٣، ص٦٩؛ تفسير الكشاف: ج١، ٤٨٩؛ مجمع البيان: ج٣، ص١٨٩؛ تفسير الميزان: ج٥، ص٨١؛ مواهب الرحمن: ج٩، ص٢٦٧؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج١، ص٥٤٣، تفسير الآية المزبورة.

٤ - مجمع البيان: ج٣، ص١٨٩، تفسير الآية المزبورة.

وكيف كان، فإن الآية تنص على أن النبي المصطفى ﷺ قد رفعت عنه حجب العلم، وقد علمه الله سبحانه أسرار كل شيء، وكذلك سائر حججه المعصومين عليهم السلام، ففي الحديث: «فما علمني شيئاً إلاّ علّمه علي عليه السلام»[١] وقال ﷺ: «معاشر الناس! ما من علم إلاّ علمنيه ربّي، وأنا علمته علياً عليه السلام»[٢] ومن هذه الجهة ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام بلسان النفي المطلق: «ما يخفى على الإمام شيء»[٣] وعن العسكري عليه السلام: «أن الله أعطى حجته معرفة كل شيء»[٤].

ومنها: الآيات العديدة التي صرحت بأن الله سبحانه يطلع أولياءه على علم الغيب، كقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٥] وقد دلت على أن بعض أولياء الله يظهرهم الله على غيبه، ولم تحدد حدود هذا الإظهار، فتحمل الآية على إطلاقها، وهو يفيد الشمول لكل أسرار ذلك العالم، وبهذا احتج الإمام الرضا عليه السلام على عمر بن هذاب الذي نفى عن الأئمة عليهم السلام علم الغيب فقال: «إن رسول الله هو المرتضى عند الله، ونحن ورثة الرسول الذي أطلعه على غيبه، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»[٦].

ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[٧]

---

١ - لمناقب (لابن المغازلي): ص٥٠ - ٥١، ح٧٣.
٢ - تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٣٧٩.
٣ - الخرائج والجرائح: ص٢٧٩.
٤ - أعلام الورى: ص٣٥٧.
٥ - سورة الجن: الآيتان ٢٦ - ٢٧.
٦ - بحار الأنوار: ج١٢، ص٢٢، ج١٥، ص٧٤.
٧ - سورة آل عمران: الآية ٤٤.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾[١] وإطلاق الآيتين يثبت أن الوحي يكشف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أسرار الغيب، ويطلعه عليه إخباراً وتعليماً، ولم يختص بالقرآن أو الأحكام، بل يشمل كل العلوم والمعارف الغيبية، وهذا ما يقضي به العقل أيضاً؛ لأنه حجة الله على خلقه، وأنه الهادي والمرشد الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وبهذا احتج الإمام الصادق عليه السلام حينما قال له رجل من أصحابه: جعلت فداك أعندكم علم الغيب؟ فقال عليه السلام: «ويحك إني لأعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء، ويحكم وسّعوا صدوركم، ولتبصر أعينكم، ولتع قلوبكم، فنحن حجة الله تعالى في خلقه، ولن يسع ذلك إلاّ صدر كل مؤمن قوي قوته كقوة جبال تهامة إلاّ بإذن الله، والله لو أردت أن أحصي لكم كل حصاة عليها لأخبرتكم»[٢].

ومثله ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ألاّ وإني مفضيه إلى الخاصة»[٣] وقوله: «تكفروا في رسول الله» يحتمل معنيين:

أحدهما: أنهم يقولون بعلو رتبة الإمام على رتبة الرسول ولازمه الكفر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

١ - سورة هود: الآية ٤٩.

٢ - بحار الأنوار: ج٢٦، ص٢٨، ح٢٨؛ المناقب (لابن شهر اشوب): ج٣، ص٣٧٤.

٣ - نهج البلاغة: ص٢١٥، الخطبة ١٧٥.

ثانيهما: أنهم لا يحتملون هذه العلوم فيكفرون بالإمامعليه السلام، ولازمه أن يكفروا برسول اللهصلى الله عليه وآله؛ لأنه معلمه، وقد مر عليك أن هذه العلوم من الأسرار الصعبة التي لا يتحملها إلاّ ذو قلب واسع ومعتقد راسخ، ولذا قال: «مفضيه إلى الخاصة».

ويبين الإمام الصادقعليه السلام بعض السر في إطلاع الإمامعليه السلام على عالم الغيب في حديثه مع المفضل، قال فيه: «يا مفضل .... إذا كانت الروح وارتاض البدن أشرقت أنوارها، وظهرت أسرارها، وأدركت عالم الغيب»[1] ويشرح الإمام أمير المؤمنينعليه السلام هذه الحقيقة في خطبة له يقول فيها: «والإمام.... بشر ملكي وجسد سماوي، وأمر إلهي، وروح قدسي، ومقام علي، ونور جلي، وسر خفي، فهو مَلك الذات، إلهي الصفات، زائد الحسنات، عالم بالمغيبات خصاً من رب العالمين، ونصاً من الصادق الأمين»[2].

وهناك أكثر من حقيقة يشير إليها هذان الحديثان:

الحقيقة الأولى: أن الإطلاع على عالم الغيب ليس بممتنع في نفسه، بل هو مفتوح للجميع إذا توفرت أسبابه، وأهم أسبابه القابلية النفسية والاستعداد الروحي، فلذا يتفاوت بتفاوت الاستعداد، والذي يوفر الاستعداد نورانية الروح، وحيث إن الروح محبوسة في البدن فإن ترويضها وتربيتها وسموها يتوقف على الترويض والاجتهاد.

وقولهعليه السلام: «ظهرت أسرارها» يحتمل معنيين:

---

١ - مشارق أنوار اليقين: ص١٣٨.

٢ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٧٢، ح٣٨.

أحدهما: أن علوم الغيب ارتكازية مودعة في النفس، ولكن تخفيها ظلمانية النفس، فإذا ارتاضت وأشرقت ظهرت أسرارها.

ثانيهما: أن الرياضة تظهر قوة النفس وسموها، فتوجب ارتباطها بعالم الغيب، وتدرك أسراره ولا مانع من الأمرين؛ لما عرفت غير مرة من أن الأسرار الإلهية لها مراتب، ويمكن أن يكون لكل مرتبة طريق، ومفتاح فتأمل.

الحقيقة الثانية: أن شخصيّة الإمام مكونة من ثلاثة عناصر:

أحدها: بشري، وهو صورته وشكله وأفعاله، وفيه قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2].

ثانيها: سماوي وهو بدنه، وقد مر عليك أن جسد الإمام عليه السلام مخلوق من أشرف طين في الجنة، أي من عليين، بخلاف سائر الخلق فإنهم خلقوا من طين الأرض[3].

ثالثها: ملكي وهو روحه الزكية وذاته النورية؛ إذ وصفها عليه السلام بأنها «ملك الذات إلهي الصفات» وقوله «ملك الذات» من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، نظير (جميل الوجه) وأصله (الوجه جميل) و(الذات الملكية) يقرأ بنحوين:

١ - سور الكهف: الآية ١١٠.

٢ - سورة الفرقان: الآية ٧.

٣ - انظر الكافي: ج١، ص٣٨٩- ٣٩٠، ح١- ٤.

أحدهما: فتح الميم وكسر اللام أي مَلِك، وهو من يملك التصرف بالأمر عن قوة وسلطة وعزة[١]، ويطلق على المملوك له في الماديات الملك، وأما في المعنويات فيسمى بالملكوت، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[٢] أي آثار قدرته وعظمته، وآيات ربوبيته وإلوهيته[٣]، فالملكوت في رتبته وأثره فوق الملك[٤]، وعليه يكون المعنى أن الإمام ملكوتي الذات؛ لأنه يملك عوالم الغيب والمعاني، ويتصرف فيها بإذن الله تعالى، ودلالته على المطلوب ظاهرة؛ لأن الذي يملك الأمر ويتصرف فيه يكون محيطاً به وعالماً بأسراره.

ثانيهما: بفتح الميم واللام نسبة إلى الملائكة، ولا شك في أن حقيقة روح الإمام وذاته غير الملك، بل هي أزكى وأنقى وأعلى رتبه، ولعلعليه السلام وصفها بالملكية يعود لوجهين:

الأول: الشباهة في المنشأ فإن روح الإمام مخلوقه من نور، وكذلك الملك فإنه حقيقة نورية لطيفة، ولاشك في أن النور الذي خلقت منه أرواح الأئمةعليهم السلام هو أشرف الأنوار، وأعلاها رتبة، وأنقاها ذاتاً؛ لأنه مشتق من نور الله، إلا أنه عليه السلام نسبه إلى الملك وهو الأدنى رتبة من باب محاكاة عقل السامع ومخاطبته بما يفهمه؛ لأنه يسلم بلطافة الملائكة ومكانتهم عند الله، أو

١ - معجم مقاييس اللغة: ص٩٦٠، (ملك)؛ وانظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٧٤، (ملك)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٢٩٠، (ملك).
٢ - سورة الأنعام: الآية ٧٥.
٣ - انظر مجمع البيان: ج٤ص ٩٠ ؛مواهب الرحمن: ج ١٤ص ٢٤ تفسير الآية المزبورة.
٤ - انظر مجمع البحرين: ج ٥ص ٢٩٠ (ملك).

تقريب المعنى العميق في محتواه، والأصعب على الذهن بالمعنى الأقرب إليه، كمن يشبه حقيقة الروح في جسم الكائن الحي بالطاقة البرقية (الكهربائية) لوجود مشابهة بينهما من حيث مجهولية الحقيقة وظهور الأثر، وان كان معنى الروح أعمق وألطف من الطاقة البرقية، ومن الواضح ان الذات النورية الملكية محيطة علماً بالأشياء، ولا يشوبها جهل أو غفلة أو نسيان، كما لا يشوبها نقص أو قبح أو عصيان، فهي عالمة بالعوالم، ومعصومة من الأخطاء والقبائح.

الثاني: الشباهة في الفعل، فإن الملائكة حقائق لطيفة نورانية تحيط بعالم الغيب، ولها من العلم والقدرة ما يمكنها من تدبير شؤون العالم والاطلاع على أسراره وخفاياه بإذن الله، ولذا وصفها الله سبحانه بـ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾[1] وهي في عين الحال معصومة من الأخطاء والقبائح، وشأنها الطاعات، ومسكنها السماوات، وهم عباد مكرمون لا يعصون ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهذه الخصوصيات لا تختص بالملائكة، بل هي ثابتة للائمة عليهم السلام في رتبة أعلى وأشرف من الملائكة؛ لما عرفت من أنهم عليهم السلام حجة على الملائكة، وهم أولياء عليها، إلا أن حدود فهم السامع أو تسليمه بخصوصيات الملائكة أوجبت التشبيه بهم .

وأما قوله عليه السلام: «إلهي الصفات» فهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وأصله «الصفات الإلهية» وحينئذ تفيد دلالتين:

إحداهما: بيان حقيقة الصفات التي يتصف بها الإمام عليه السلام، وإنها من قبيل

١ - سورة النازعات: الآية ٥.

الصفات الإلهية التي لا يشوبها جهل أو نقص أو عجز بإذن الله سبحانه.

وثانيتهما: أن منشأ هذه الصفات هو الله سبحانه، فإن الإمام لا يحظى من دون الله بكمال أو جلال، بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، إلاّ أن الله سبحانه أعطاه بعض صفاته وكمالاته في العلم والقدرة والعصمة؛ ليكون خليفته في الأرض، ونوره بين عباده، ووجهه الذي منه يؤتى، والعلم الهادي الذي يعكس صفات الخالق وأخلاقه.

وهذا ما يؤكده قوله عليه السلام في الفقرة الأخيرة من الحديث: «خصاً من رب العالمين، ونصاً من الصادق الأمين» بداهة أن مقام الإمامة وكل كمالاتها وأوصافها الإلهية هي بالتخصيص والاصطفاء الإلهي، وبيان اختيار الإمام وتنصيبه على الناس هو بنص النبي صلى الله عليه وآله لا باختيار الأمة.

والحاصل: أن كمالات الإمام عليه السلام العلمية واطلاعه على عالم الغيب وإحاطته النورية نشأت من اختلاف حقيقته وجوهره عن سائر الناس، فهو في روحه وقلبه كيان نوري ملكوتي، وفي شكله ومظهره بشري، ولذا أعطاه الله سبحانه من الكمالات والفضائل ما لم يعطه لأحد غيره، ومن هنا صار إماماً وحجة على الناس والخلق أجمعين.

وقد عرفت أن هذا مما نص عليه الكتاب والسنّة، ويحكم به العقل، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «إن الله أطلعني على ما شاء من غيبه وحياً وتنزيلاً، وأطلعك عليه إلهاماً»[1] وقد عرفت أن هذا النحو من الاطلاع هو أحد جهات العلم بالغيب لا جميعها.

---

١ – مشارق أنوار اليقين: ص١٣٥– ١٣٦.

وفي خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الإمام يقول فيها: «ويلبس الهيبة وعلم الضمير، ويطلع على الغيب، ويعطى التصرف على الإطلاق»[١] ووجه ذلك الإمام زين العابدين عليه السلام بما يقربه إلى الأذهان، فقال عليه السلام: «ألا إن للعبد أربع أعين: عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته»[٢] وقد ورد ما يقارب هذا اللفظ بطرق الجمهور أيضاً عن المتقي الهندي[٣]، وتؤكد الأخبار والوقائع أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يعلمون بهذه الحقيقة، وينسبون إلى الأئمة عليهم السلام علم الغيب حتى إن عائشة قالت للحسن عليه السلام بعد أن أخبرها بما فعلته يوم شهادة أمير المؤمنين عليه السلام ولم يطلع عليه أحد سواها: يا ابن خبوت! جدك وأبوك في علم الغيب، فمن ذا الذي أخبرك بهذا عني[٤]، وقولها (خبوت) أي ادخرت علومهم المستورة وأسرارها كما في اللغة[٥].

وفي مورد آخر لما أخبرها عليه السلام بخفايا أسرارها وما تكنه في ضميرها وما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وآله عن حرب الجمل قالت له: جدك أخبرك بذلك أم هذا من غيبك؟

١ - مشارق أنوار اليقين: ص١١٥.
٢ - الخصال: ص٢٤٠ ح٩٠.
٣ - انظر كنز العمال: ج٢، ص٤٢، ح٣٠٤٣.
٤ - الهداية الكبرى: ص١٩٧ - ١٩٨، ذيل الباب الرابع.
٥ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٧٤، (خبأ)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣٢٣، (خبأ)؛ مجمع البحرين: ج١، ص١١٩، (خبأ).

فأجابها: «هذا من علم الله وعلم رسوله وعلم أمير المؤمنين عليه السلام»(١).

وروى ابن عبد البر بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لنسائه: «أيتكن صاحبة الجمل الأدبب يقتل حولها قتلى كثير، وتنجو بعدما كادت؟»(٢) وقال: إن هذا الحديث من إعلام نبوته عليه السلام (٣)؛ لما فيه من إخبار بالغيب قد صدقه الواقع، وأقرته عائشة حينما بلغت الحوأب ونبحتها كلابها، فذكرت قول النبي صلى الله عليه وآله حينما حذرها من أن تكون هي كما في متضافر الأخبار(٤).

وروى الأصبغ بن نباتة فقال: أتينا مع علي عليه السلام فمررنا بموضع قبر الحسين عليه السلام فقال علي عليه السلام: «ها هنا مناخ ركابهم، وها هنا موضع رحالهم، وها هنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد صلى الله عليه وآله يقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض»(٥) وهو ما وقع فعلاً في قتل الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في كربلاء، ومضمون الرواية المذكورة متواتر(٦).

وفي قصة أبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة مع الإمام الكاظم عليه السلام ما يؤكد هذه الحقيقة؛ إذ قال أحدهما لصاحبه: جئنا لنسأله عن الفرض والسنّة وهو أجابنا بشيء من علم الغيب، فسألاه من أين أدركت

---

١ - الهداية الكبرى: ص١٩٧- ١٩٨.

٢ - انظر الاستيعاب: ج٢، ص٧٤٥.

٣ - انظر الاستيعاب: ج٢، ص٧٤٥.

٤ - انظر المستدرك على الصحيحين: ج٣، ص١١٩؛ كنز العمال: ج٦، ص٨٤؛ تاريخ ابن جرير: ج٣، ص٤٨٥؛ مسند أحمد: ج٦، ص٩٧؛ الإصابة: ج١، ص١١١؛ مجمع الزوائد: ج٧، ص٢٣٤، وغيرها.

٥ - الرياض النضرة: ج٢، ص٢٢٢.

٦ - انظر الصواعق المحرقة: ص١١٥، فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢، ص٢٨٨.

أمر هذا الرجل الموكل بك أنه يموت في هذه الليلة؟ قال: «من الباب الذي أخبر بعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام»[١] وقريب منه ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في جواب ابن هذاب[٢].

وأما الروايات التي نقلت إخباراتهم بالغيب فهي كثيرة جداً، بل متواترة، وقد نسب القاضي عياض تواتر ذلك عن النبي[٣] صلى الله عليه وآله، وقد ورد في مصادر أعلام العامة الشيء الكثير عن علم النبي صلى الله عليه وآله بالغيب، وكذلك علم علي أمير المؤمنين[٤] عليه السلام، وأما ما ورد عن الصديقة الزهراء عليها السلام وسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام من إخباراتهم الغيبية فيفوق الحصر[٥].

وبذلك نستخلص عدة نتائج:

النتيجة الأولى: أن نسبة علم الغيب إلى الأئمة عليهم السلام بإذن الله وإرادته أمر ممكن في نفسه، بل واقع في الخارج، وقد نص عليه القرآن وتواتر وقوعه بطرق الفريقين.

النتيجة الثانية: أن الأدلة النافية لعلمهم للغيب تحمل على نفي العلم من جهة ذاتهم واستقلالهم عن إرادة الله سبحانه، فالنفي للعلم الاستقلالي، وأما

١ - كشف الغمة: ج٣، ص٤٢؛ الخرائج والجرائح: ج١، ص٣٢٣، ح١٤.
٢ - الخرائج والجرائح: ج١، ص٣٤٣، ح٦.
٣ - الشفا: ج١، ص٣٣٦.
٤ - انظر تفاصيل ذلك في فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج١، ص١١٢ وما بعدها؛ الطبقات الكبرى: ج٣، ص٢٢؛ الاستيعاب: ج٢، ص٤٧٠؛ كنز العمال: ج٦، ص٤١٢؛ الصواعق المحرقة: ص٨٠.
٥ - انظر مثل مدينة المعاجز للمحدث البحراني لتجد الشيء الكثير من ذلك.

الأدلة المثبتة له فهي تثبته على نحو التبعية والمأذونية، وهذا ما يقتضيه الجمع الدلالي بين الأدلة المثبتة والأدلة النافية، وعليه اتفقت كلمة الفريقين في علم رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام، وبه صرح جماعة منهم[1]، بل هو مما تقضي به قواعد العقل السليم.

النتيجة الثالثة: أن إحاطتهم العلمية بعوالم الغيب لا يؤدي إلى التفويض بمعناه الباطل، ولا إلى القول بالقدم الذاتي، ولا الغلو؛ لأن الأول مبني على استقلاليتهم في العلم، وقد عرفت أن علومهم بتعليم من الله وإذن منه تبارك وتعالى، والثاني مبني على عدم مسبوقية الشيء بالعدم، أو عدم مسبوقيته بالغير على اختلاف الأقوال فيه، وقد عرفت أنهم مخلوقون فقراء إلى الله سبحانه ومحتاجون، وكل ما ثبت لهم من كمالات وفضائل فهي من الله سبحانه؛ لما يملكونه من استعداد وقابليات إلهية.

والثالث مبني على نسبة صفات الخالق إلى أنفسهم، أو جعلهم أرباباً من دون الله، وقد عرفت أن أوصافهم الكمالية من الله وليست من عند أنفسهم، كما أنهم عباد لله مكرمون وليسوا بأرباب، بل نالوا هذه المقامات المعنوية العالية بسبب عبوديتهم لله سبحانه وشدة طاعتهم كما عرفته من الروايات المتقدمة.

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج٢٦، ص١٠٣، ح٦؛ الغدير: ج٥، ص٥٢ وما بعدها.

المطلب الثالث: في حقيقة علم الإمام عليه السلام

إن علم الإمام عليه السلام ليس من قبيل العلم الحضوري فقط ، كما انه ليس من العلم الحصولي، بل هو قسم ثالث من العلم يعبّر عنه في النصوص الشرعية باليقين، وهو يستند إلى الإدراك والرؤية القلبية الجازمة لا الحصول ولا الإحاطة الحضورية، ويقوم بركنين هما ذواتهم النورية والافاضات الربانية، وباجتماعهما يتحقق اليقين بالمعلوم.

وتوضيح ذلك يتم ببيان أمرين:

الأمر الأول: أن أهل المعقول قسموا العلم على قسمين:

الأول: العلم الحصولي، وأرادوا به العلم الناشئ من حصول صورة المعلوم في ذهن العالم، وهو الغالب في العلوم والمعارف الإنسانية، كعلم الطب والهندسة واللغة والرياضيات ونحوها، فإن تحصيل هذه العلوم يتوقف على تصور مسائلها في الذهن، ثم الإذعان لنتائجها، ولذا يسمى بالعلم الانطباعي أيضاً؛ لأن حصول العلم بالشيء متأخر عن حصول صورة الشيء وانطباعها في الذهن.

الثاني: العلم الحضوري، وأرادوا به العلم الناشئ من حضور المعلوم لدى العالم، كعلمنا بذواتنا وحالاتها وأوصافها، فإن وجدان كل عاقل يشهد بأن علم الإنسان بنفسه وبعلمها وجهلها وبحياتها وقدرتها ناشئ من حضور النفس وأوصافها، ولا يتوقف على تصور ذهني، ومن هذا القبيل علم الخالق تبارك وتعالى بمخلوقاته[1]، وكذا علم العلة المختارة بمعلولاتها كعلم النفس بالصور الذهنية التي تخلقها، وعلم الإنسان بكل ما يحضر عنده من أفعاله، والموجودات الخارجية التي تحضر عنده بوجوداتها العينية، كعلمه بالنهار والشمس عند طلوعهما وهكذا.

وبهذا تظهر خصوصية كل من العلمين، فإن تحصيل العلم الحصولي يتوقف على تصور المعلوم، فالعلم في الحقيقة هي الصورة الحاصلة في الذهن عن الشيء، فإذا طابقت الصورة صاحبها في الخارج كان علماً وإلاّ كان جهلاً مركباً.

ومن الواضح أن الجزم بنتائج هذا العلم متوقف على إحاطة الذهن بالصورة الحاصلة فيه، ولولا هذه الإحاطة لا يمكن أن يحصل العلم، فحدود العلم من حيث السعة والضيق تتوقف على درجة إحاطة ذهن العالم بالصور الحاصلة فيه، فإذا كانت الإحاطة تامة كانت المعرفة تفصيلية، وإلاّ كانت إجمالية

١ - انظر عيون مسائل النفس (للحكيم السبزواري): ص٥١٩؛ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٢٢٠؛ تفسير الميزان: ج٦، ص١٧١- ١٧٢، تفسير الآية ١٠٥ من سورة المائدة؛ منطق المظفر: ج١، ص٧، الهامش.

ولذا قسموا هذا العلم إلى قسمين، إجمالي وتفصيلي، وأرادوا من الأول الإحاطة الناقصة بالشيء، كمن يعلم بأن بين زيد وعمر هناك نسبة موجودة، ولكن لا يعلم أن هذه النسبة هي الأبوة أو البنوة أو الأخوة مثلاً، فإذا تشخص عنده الأمر وعلم بالجزم بأنها نسبة الأخوة يكون العلم تفصيلياً، ولذا فرقوا بين العلم بالشيء بالوجه وبين العلم به من وجه[1]، فإن الأول علم تفصيلي؛ لأنه فيه يتم حصول صورة الشيء حصولاً تاماً، بخلاف الثاني.

ومن الواضح أن التصور من الحقائق التشكيكية التي تقبل الشدة والضعف، ومثلوا له بمن تراءى له شبح من بعيد فتصوره تصوراً ما ثم يزداد انكشافاً كلما اقترب منه حتى يحصل في ذهنه كمال حقيقته، وحينئذ إن طابق الصورة التي رسمها في ذهنه عنه أولاً كان الواقع علماً، وإلاّ كان جهلاً مركباً.

وعلى هذا الأساس لا يأمن العلم الحصولي من الخطأ والاشتباه عادة، وهذا ما تؤكده النتائج العلمية في الكثير من العلوم، كما أنه أحد وجوه التطور العلمي؛ لأن نتائجه قابلة للتغيير والتنمية والتصحيح.

كما أن لهذا العلم مرتبتين هما: التصور والتصديق، والمراد من الأول مجرد تصور الشيء بإحضار صورته في الذهن وحالاته وأوصافه، فإذا أيقنت النفس بمطابقة الصورة لذي الصورة أو لحالاته وأوصافه سمي تصديقاً؛ لأن الواقع صدّق الصورة وطابقها، فمثلاً إذا تصورت النار وتصورت أنها

١ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٢٢٨.

حارقة يكون علمك بها في رتبة التصور، فإذا وجدت النار في الخارج حارقة يكون جزماً وتصديقاً بأن النار حارقة، وهكذا الأمر في سائر النتائج العلمية.

كما أن الجاهل بالشيء لا يمكنه تحصيل هذا العلم إلاّ بواسطة التعليم والاكتساب؛ إذ إن حقائق الأشياء تكون غامضة أو مبهمة على الجاهلين، ولا يمكنهم معرفتها إلاّ بواسطة إزالة الغموض والإبهام عنها، وهذا ما لا يمكن إلاّ بواسطة العالمين بها، ولهذا فإن تحصيل العلوم الحصولية يتوقف على الحضور في المعاهد والجامعات لاكتسابها، وإلاّ تعذر تحصيلها، وذلك كله على خلاف العلم الحضوري؛ لأن العلم الحضوري يتحقق بحضور ذات الشيء عند العالم، فلا يتوقف على تصور ولا تصديق، بل حضور ذات الشيء لديه كاف للجزم واليقين به.

كما أنه لا يتوقف على مطابقة الصورة لذي الصورة، فلذا تكون نتائجه مطابقة للواقع، فلا يشوبه جهل أو خطأ، ولا تغير أو تبديل؛ لأنه يتم بحضور ذات الشيء لدى العالم. كما أن تحصيل هذا العلم لا يتوقف على تعليم في معهد أو جامعة. نعم يتوقف تحصيله على سعة في نفس العالم بحيث تحيط بالمعلوم إحاطة وجودية.

ونتوصل من مجموع ما تقدم إلى وجود جهة مشتركة بين العلمين الحصولي والحضوري، وجهة فارقة. أما جهة الاشتراك فهي أن كلا العلمين يتوقفان على إحاطة للعالم بالمعلوم، سوى أن الإحاطة في العلم الحصولي تكون بصورة الشيء، بينما في العلم الحضوري تكون بالشيء نفسه، ومن هنا يمكن تعريف العلم الحصولي بأنه حضور صورة المعلوم لدى العالم، وأما الحضوري فهو

حضور المعلوم لدى العالم. وأما اليقين الذي ذكرناه فيمتاز عن الحصولي والحضوري بثلاث خصوصيات:

الأولى: أنه يتقوم بالإفاضات الإلهية على نفس العالم وايجاد المعلوم لديه وإحضاره عنده، فالعلم في حقيقته ينتسب إلى الباري عز وجل نسبة السببية والتشريف، وحيث أنه لا يتنزل إلاّ على النفوس الطاهرة والقلوب الصافية أختص به أولياء الله سبحانه، ولذا وصف الباري عز وجل علومهم بالعلوم اللدنية كما في القرآن؛ لكونها نازلة من لدن عليم خبير قال تعالى في وصف الخضر حيث أرسله لتعليم موسى عليه السلام أنه عبد من عبادنا: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1] وتعليمه سبحانه له يتم بخلق العلم في قلبه أو بالبيان الذي يورده عليه، ولكن حيث نسب التعليم إلى لدنه سبحانه دل على الأول، ويتحقق بالالهامات والكشف عن المعلوم بما يوجب اليقين بالمعلوم[2]، والسر فيه يعود إلى العبودية التي تجعل العبد مقبولًا مرضياً مقرّباً لدى ربه فيفيض عليه من انواره واسراره ما يجعله عالماً مطلعاً على العوالم الحسية والغيبية[3].

الثانية: أنه يقيني الحدوث والبقاء والمطابقة، فلا يشوبه الوهم والظن والشك، ولا ايحاءات الشيطان ولوابسه حدوثاً، ولا تعرضه بقاءً، كما لا

---

١ - سورة الكهف: الآية ٦٥.

٢ - انظر تفسير التبيان: ج٧، ص٥٨- ٥٩؛ مجمع البيان: ج٦، ص٣٦٨؛ تفسير الميزان: ج١٦، ص٣٣٨.

٣ - تنظر تفسير كنز الدقائق: ج٨، ص٩٦.

يقبل الخطأ بل هو عين الواقع. فهو علم صادق لا يصيبه زيغ، ولا يحده حجاب، تنزيل من رب العالمين.

الثالثة: أنه يقبل الزيادة بزيادة الإفاضات والتي هي الأخرى تنشأ من مزيد القرب والعبودية واشراقات النفس بها أنها مستودع العلوم الربانية بحسب استعدادها، فهو باعتبار حدوثه يكون ثابتاً لا ينقص، وباعتبار دوامه يكون قابلا للزيادة، وبالأولى يشترك مع العلم الحصولي، وبالثانية يشترك مع العلم الحضوري، ولكنه يزيد عليهما في الكيف والكم، وبذلك يتضح أن علم المعصوم منحصر بالعلم الحضوري والعلم الإفاضي، وأما الحصولي فهو بعيد عن مقاماته وكمالاته الإلهية.

الأمر الثاني: إن العلم لا يكون على نحو واحد عند الجميع، بل يختلف بحسب مراتب الإحاطة والحضور ومقامات العالمين، ويمكن تصنيف ذلك على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: علم الخالق بمخلوقاته، وهو برمته من قبيل العلم الحضوري، وذلك لأنه سبحانه منشأ لوجود الأشياء وتكوينها، فهو محيط بها إحاطة وجودية حضورية تامة، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[1]؛ لأنه ربها وخالقها، فقولهم: الله تعالى عالم بكل معلوم، أي عالم بكل معلوم على ما هو عليه من كونه واجباً أو ممكناً أو ممتنعاً وكلياً أو

١ - إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سورة يونس: الآية ٦١.

جزئياً، وهكذا باقي صفاته وخصوصياته وآثاره؛ لوضوح أن نسبة ذاته تعالى لجميع الممكنات بالسوية، فما زعمه الحكماء من عدم علمه بالجزئيات الزمانية باطل، وشبهاتهم في هذا القول ضعيفة لا مجال لتناولها هنا[١].

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[٤] ولا يمكن احتمال أن يكون علمه سبحانه من قبيل العلم الحصولي؛ لأنه يستلزم النقص والحاجة، ويتنزه الباري عز وجل عنهما، خلافاً لبعض المتوهمين الذين أنكروا العلم الحضوري، ونسبوا علم الباري عز وجل للعلم الحصولي[٥].

الصنف الثاني: علم الناس بمعلوماتهم، وهو بالنسبة إلى أنفسهم وصفاتها علم حضوري، وكذلك علمهم بخالقهم إذا تم من خلال الفطرة، بناء على أن العلوم الفطرية من مصاديق الإلهامات الربانية أو الإشراقات الروحانية، بينما علمهم بغير ذلك فالغالب فيه هو العلم الحصولي، ومنه علمهم بربهم تبارك وتعالى؛ لأن تحصيله يتوقف على تصور وتصديق وتعليم بالصفات والنسب والأحكام كما عرفت تفصيله.

---

١ - انظر مجمع البحرين: ج٦، ص١٢١، (علم).

٢ - سورة الأنعام: الآية ٥٩.

٣ - سورة الملك: الآية ١٤.

٤ - سورة فصلت: الآية ٥٤.

٥ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٢٢٠.

الصنف الثالث: علم النبي والإمامعليهما السلام، وقد اختلفوا فيه، فذهب بعضهم إلى أنه علم حصولي[1]، وبطلانه ظاهر؛ لأنه يتنافى مع صريح الآيات والروايات التي نصت على أن علومهم ليست تحصيلية اكتسابية، وإنما جبلية لدنية كما عرفت، بل نسبة العلم الحصولي إليهم ممتنع عقلاً؛ لأنه يستلزم حاجتهم إلى غيرهم من المعلمين والمربين، وهو يتنافى مع مقام النبي والإمام ويستلزم الخلف؛ لأن العلم الحصولي لا يؤمن من الجهل والخطأ والتبديل والكل يتنافى مع غرض البعثة وعصمة النبيصلى الله عليه وآله والإمامعليه السلام وحجيتهما على الخلق.

وذهب الأكثر إلى أنه علم حضوري ناشيء من إحاطتهم الوجودية بالموجودات؛ لأن الله سبحانه اصطفاهم حججاً على خلقه، فخلق أرواحهم قبل الخليقة، وجعلهم وسائط الفيض الإلهي إلى سائر المخلوقات بنحو المجرى السببي أو الغائي أو كليهما على ما حققناه في محله[2]، وهو وجيه، ونزيد عليه ما عرفته من العلم الافاضي، فعلم النبي والإمامع لا ينحصر طريقه بالحضور، بل يشمل الإفاضات الإلهية، وقد مرت عليك الكثير من شواهده، ويكفينا هنا أن ننقل ما رواه حذيفة حيث قال: سمعت الحسين بن عليعليه السلام يقول: «والله ليجتمعن على قتلي طغاة بني أمية، ويقدمهم عمر بن سعد» وذلك في حياة النبيصلى الله عليه وآله، فقلت له: أنبأك بهذا رسول اللهصلى الله عليه وآله؟ فقالعليه السلام: «لا» فأتيت النبي فأخبرته فقالصلى الله عليه وآله: «علمي علمه، وعلمه

١ - انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١٢٢٠.
٢ - انظر كتاب المظاهر الإلهية في الولاية التكوينية فقد فصلنا الكلام فيه بأدلته النقلية والعقلية.

علمي؛ وإنا نعلم بالكائن قبل كينونته»[1] وهذا المعنى يتوافق مع النصوص المتقدمة التي دلت على أنهم يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، كما يتوافق مع رتبة العلم الجبلي الذي يلازم أرواحهم النورانية.

وظاهر كلمات القائلين بعلمهم عليهم السلام الحضوري أنه لا يختص بعلمهم بالمخلوق، بل يجري حتى في علمهم بالخالق تبارك وتعالى، فيكون علمهم به سبحانه علماً حضورياً، إلاّ أنه مما يقبل التأمل والمناقشة، وذلك لما عرفت من أن هذا النحو من العلم يتوقف على الإحاطة الوجودية بعين المعلوم؛ لكونه يتقوم بحضور المعلوم لدى العالم، وهذه الإحاطة لا تنطبق على العلم بالخالق تبارك وتعالى؛ لاستحالة إحاطة المحدود باللامحدود، وعليه فإنه يمكن القول بالتفصيل بين علمهم بغيره سبحانه فيكون حضورياً لانطباق سمات هذا العلم عليه، ولا دليل عقلي أو نقلي يستدعي إنكاره، فالمقتضي له موجود والمانع منه مفقود.

وأما علمهم بالله سبحانه من حيث صفاته وأفعاله تبارك وتعالى فهو يمكن تسميته بالعلم اللدني؛ لأنه ينبع من لدن ذات الإمام وليس من خارجها، وهذا النحو من العلم قسم ثالث لا تنطبق عليه ضوابط العلم الحصولي ولا الحضوري؛ لأنه يقوم:

أولاً: على طهارة النفس ونورانية القلب.

---

١ - دلائل الإمامة: ص١٨٣، ح٦؛ فرج المهموم: ص٢٢٧؛ بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٨٦، ح١٤.

ثانياً: أنه لا يتوقف على حضور المعلوم لدى العالم، بل مشاهدة المعلوم مشاهدة قلبية أو بصرية، وقد عرفت بعض الشيء عن هذه المشاهدة في مرتبة العلم اللدني، ولعله إليه يشير قول الكاظم عليه السلام لهشام: «من لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه»[١].

ثالثاً: أن هذا العلم مما يقبل الزيادة؛ لأنه يخضع لدرجات اليقين، ولذا قسموه إلى ثلاث مراتب هي: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين[٢]، بخلاف العلم الحضوري فإنه مما لا يتفاوت؛ لأنه يتقوم بالحضور، وهو يدور بين الوجود والعدم على ما قرروه في تعريفه، نعم ربما يقال بأنه يختلف بحسب مراتب الحضور، فيكون من الحقائق المشككة، وحينئذ يمكن أن يزيد أو ينقص لكنهم لم يصرحوا به.

رابعاً: أن منشأ هذا العلم هو الاصطفاء والقرب من العلم المطلق من جهة الفاعل والعبودية المطلقة والإخلاص فيها للمعبود تبارك وتعالى من جهة القابل، فهو علم خاص يختص به الله سبحانه بعض عباده الصالحين ويكرمهم، به فيطلعهم على سره، ويؤمنهم على خزائنه، وهذا سر إلهي مقدس لا يتوفر في العلم الحضوري فضلاً عن الحصولي. ومن هنا أجاب الإمام الرضا عليه السلام يونس حينما سأله عن حقيقة اليقين قال: «التوكل على الله،

١ - الكافي: ج١، ص١٨،ح١١.
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٩٣، (يقن)؛ بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٣٥، أقول.

والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله»[١].

ولا يخفى أن هذا من باب تعريف الشيء بلوازمه وآثاره؛ لوضوح أن حصول اليقين في القلب ينعكس على العمل، فمن أيقن بالله سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته فإنه لا يملك إلاّ أن يتوكل عليه، ويسلّم لأمره، وهو ما يعبر عنه بمرتبة الفناء في الله[٢]، وبهذا يمكن أن نوضح مرادنا من اليقين هنا فنقول: هو الاعتقاد الجازم بالخالق تبارك وتعالى وبصفاته وأفعاله المطابق والثابت، وبالاعتقاد خرّج الشك والوهم، وبالجازم خرّج الظن، وبالمطابق خرّج الجهل بنحويه، وبالثابت خرّج الاعتقاد الذي يزول بتشكيك المشكك، واعتقاد المقلد الذي يزول بتبدل التقليد أو شك المقلد أو تبدل رأي المقلَّد، ومن خصوصيات هذا الاعتقاد أنه ملازم للاطمئنان القلبي والوثوق، وقد حكي عن المحقق الطوسي قدس سره القول: بأن اليقين مؤلف من علمين العلم بالمعلوم والعلم بأن خلاف ذلك العلم محال[٣].

وإلى هذا يشير قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[٤] أي لم يزدد إيماناً على إيمانه؛ لبلوغه حد الكمال، وهو لا

١ - الكافي: ج٢، ص٥٢، ح٥.
٢ - انظر بعض التوضيح عن ذلك في بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٣٨، بيان؛ بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٩٤، (علم).
٣ - انظر بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٤٣، بيان؛ تفسير الأمثل: ج٢٠، ص٣٣١، تفسير سورة التكاثر.
٤ - شرح نهج البلاغة: ج١١، ص١٨٠؛ ينابيع المودة: ج١، ص٢٠٣؛ المناقب (للخوارزمي): ص٣٧٥، ح٣٩٥؛ كشف الغمة: ج١، ص١٧٠؛ المناقب (لابن شهر أشوب): ج٢، ص٣٨.

يتنافى مع زيادة العلم والمعرفة؛ لما عرفت من أن علومهم الإلهية بخالقهم تبارك وتعالى مما تقبل الزيادة بحسب درجات القرب والإنكشاف والتجلي، وهو ما نصت عليه الأدلة كما مر عليك بعضها ويحكم به العقل بسبب لا محدودية الخالق في صفاته وكمالاته جل وعلا، وتشهد له رواية صفوان عن الرضا عليه السلام حينما سأله عن قول الله لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] أكان في قلبه شك؟ قال: «لا، كان على يقين، ولكنه أراد من الله زيادة يقينه»[2].

وعلى هذا فإن درجات اليقين تختلف بحسب درجات العباد ومقاماتهم، فالشخص الذي يعلم بأن الله سبحانه موجود وواحد من خلال استدلاله العقلي أو فطرته الأولية وتصديق النبي مثلاً له الدرجة الدنيا من الإيمان واليقين وهو علم اليقين، وأما الذي تكشفت له الحقائق وزالت عنه أوهام الفكر وظلمات النفس وأشرق قلبه بنور المعرفة يصل إلى درجة عين اليقين.

وأما من تجلت عنده حقائق الربوبية وصار يرى ربه سبحانه في كل شيء، وينقطع إليه وحده، ولم يشك قيد أنملة أن كل شيء هو منه وبه وإليه تبارك وتعالى يكون قد بلغ حق اليقين، فلذا تنعكس على قلبه وأفعاله الصفات الإلهية والآثار الربانية، فيكون ولي الله وحجته والقرآن الناطق للعيان الذي يعكس الصفات الإلهية الغيبية، ويكون وعاء المشيئة الإلهية ومظهر القدرة الربانية[3].

١ - سورة البقرة: الآية ٢٦٠.
٢ - المحاسن: ج١، ص٣٨٥، ح٨٥١.
٣ - انظر بصائر الدرجات: ص٩٢، الأحاديث ١-١٦.

وقد ورد في هذا المجال أنه قد ذكر عند رسول الله ﷺ أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يمشي على الماء فقال ﷺ: «لو زاد يقينه لمشى في الهواء»[١] وهو يدل على أن الأنبياء عليهم السلام والمقربين يتفاوتون في مقاماتهم بحسب درجات يقينهم، وتؤكد هذه الحقيقة مجموعة الأدلة النقلية والعقلية، فإن الذي يتتبع الآيات والروايات التي تعرضت إلى مقامات الأنبياء والأئمة عليهم السلام وبينت مزاياهم المعنوية على سائر الخلق يجد حقيقتين ماثلتين أمامه:

الحقيقة الأولى: أن الاعتقاد الجازم بالله سبحانه وبكمالاته وآثاره الخيرة هو السبب الأكبر الذي يقف وراء اختيار الأنبياء والأئمة كأخلاء لله سبحانه وحجج على خلقه وخلفاء له في أرضه، ويشهد لهذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢] حيث نصت الآية على أن العلة الأساس التي من أجلها اختار الأئمة ونصبهم حججاً أمناء على رسالاته وبريته اليقين بآيات الله سبحانه، وأما الصبر فهو الآخر ناشئ من اليقين، فاليقين هو العلة الحقيقية التي تقف وراء الصبر كما تقف وراء الإمامة، وقد مر عليك في بحث الضرورة التكوينية للإمامة ما يعزز هذه الحقيقة.

والحقيقة الثانية: أنها أطلقت على الاعتقاد الجازم بالخالق تبارك وتعالى لفظ اليقين، كما أطلقت على الاعتقاد الأدنى رتبة بالمعرفة مع أن كليهما من مراتب العلم، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ

١ - انظر مصباح الشريعة: ص٥٩؛ بحار الأنوار: ج٧٠، ص١٧٩، ح٤٥.
٢ - سورة السجدة: الآية ٢٤.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[1] إذ جعلت الآية المباركة الغاية من إطلاع إبراهيم على أسرار عالم الغيب هو بلوغ اليقين، والوجه في عدم تسميته بالعلم هنا ناشئ من الاختلاف في الرتبة والسبب والأثر. أما الرتبة فمن جهة أن اليقين أعلى درجة من العلم، وحيث إنه جُعل بالمشاهدة ناسب أن يكون يقيناً لا علماً؛ لأن العلم المستند إلى الرؤية راسخ لا يتزعزع، وثابت لا يزول، وحق لا يخطأ.

وأما السبب فلأن اليقين يحصل من طريقين هما المشاهدات البصرية والانكشافات القلبية، وكلاهما يحصلان بالعناية الإلهية واللطف الرباني، بخلاف العلم فإنه يحصل بطريق واحد هو إما الاستدلال والنظر كما في الحصولي، أو الحضور والمشاهدة كما في الحضوري.

وهذه الحقيقة شهد لها القرآن الكريم في العديد من الآيات، حيث نص على أن الحقائق الغيبية محجوبة عن أصحاب القلوب المظلمة، فلا يطلع عليها إلاّ المقربون بنحو الشهود القلبي، وربما يضاف إليها المشاهدة البصرية، فمثلاً كتاب الأبرار الذي ضم القضاء الإلهي المحتوم في شأن الصالحين من عباده، أو الذي دونت فيه صحائف أعمالهم ليجزيهم الله عليها يفتحه الله سبحانه أمام بصيرة المقربين فيشهدونه؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[2] والعليون كناية

---

١ - سورة الأنعام: الآية ٧٥.

٢ - سورة المطففين: الآيات ١٨ - ٢١.

عن الدرجات العالية ومنازل القرب منه تبارك وتعالى محفوفة بالجلالة[١]، والمقربون هم الذين يطلعون على هذا الكتاب الإلهي بالمشاهدتين معاً، وأعلى درجاتهم الأنبياء والأئمة ثم الملائكة[٢].

ويؤكد هذا المضمون من الوجه الآخر مصير الفجار، فإنهم في الآخرة محجوبون عن كرامة القرب والشهود؛ لأن عمى بصائرهم الناشئ من كثرة الذنوب يمنعهم من شهود الحق والاطلاع على أسراره، ولا تنالهم رحمة أو مغفرة، ولذا سيكون مصيرهم الحتمي إلى النار، وقد فصّل الباري تعالى هذا المصير بقوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾[٣].

وأما الأثر فلأن اليقين يتجاوز في رسوخه العقل ليصل إلى القلب بحيث ينكشف له الواقع بزوال الحجب الحسية أو النفسية، فيرى الأشياء كما هي، وقد أشار الخالق تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله سبحانه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ

---

١ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩٠؛ تفسير الميزان: ج٣٠، ص٢٦٠؛ مواهب الرحمن: ج١٤، ص٢٥؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٥، ص٦٣٨، تفسير الآية المزبورة.

٢ - انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩٠؛ تفسير الميزان: ج٣٠، ص٢٦٠؛ مواهب الرحمن: ج١٤، ص٢٥؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٥، ص٦٣٨، تفسير الآية المزبورة؛ وانظر تفسير نور الثقلين: ج٨، ص١٤٦، ح٤٣.

٣ - سورة المطففين: الآيات٧- ١٦.

﴿ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[١] وعلم اليقين هنا العلم الذي يثلج به الصدر بعد اضطراب الشك فيه، وعين اليقين هنا هو حق اليقين؛ لأنهم يرون النار بالمشاهدة والعذاب[٢]، وقد مرت عليك بعض الأخبار التي تعضد هذا المضمون. وهو ما يقره العقل أيضاً؛ لاستحالة إدراك ذات الخالق تبارك وتعالى أو الإحاطة بها، فلابد وأن تكون معرفته عبر صفاته وآثاره، وهي من الحقائق الغيبية، فلا تدرك بالحضور ولا بالحصول وإنما برؤية القلب ومشاهدة النفس.

ومن الثاني أي المعرفة قولهم عليهم السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[٣] وقولهم عليهم السلام: «معرفة الله تعالى تصديقه تعالى، وتصديق رسوله وموالاة علي عليه السلام، والإئتمام به وبأئمة الهدى والبراءة إلى الله تعالى من عدوهم، هكذا يعرف الله»[٤] وقولهم: « أدنى ما يكون العبد مؤمناً أن يعرفه الله تعالى نفسه فيقر له بالطاعة، ويعرفه نبيه فيقر له بالطاعة، ويعرفه إمامه وحجته في أرضه وشاهده على خلقه فيقر له بالطاعة»[٥].

ونلاحظ أن الحديث هنا يشير إلى المعرفة لا إلى العلم ولا إلى اليقين مع أن المعرفة من العلم مصداقاً؛ لأنها تشير إلى المرتبة الأولية من العلم، وهي أدنى ما يكون به العبد مؤمناً، كما نص عليه الحديث الثالث، وما يترتب عليه من

---

١ – سورة التكاثر: الآيات ٥–٧.
٢ – انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٤٣٢.
٣ – عوالي اللآلئ: ج١، ص٥٤، ح٧٩؛ الجواهر السنية: ص١١٦.
٤ – انظر الكافي: ج١، ص١٨٠، ح١؛ تفسير أبي حمزة الثمالي: ص٨٠.
٥ – الكافي: ج٢، ص٤١٤– ٤١٥، ح١.

أثر وهو التصديق والطاعة كما نص عليه الحديث الثاني، والوجه في تسمية هذه الرتبة من العلم بالمعرفة يعود لوجوه عديدة[١] عمدتها اثنان:

أحدهما: أنها تتم بالحواس الظاهرة، فلذا يقول من سمع متحدثاً عرفته، وكذلك إذا رآه أو لمسه ولا يقول علمته.

ثانيهما: أنها تتم بالحواس الباطنة، فلذا يقال للنتائج العلمية المستنبطة من مقدماتها وآثارها معرفة، ولا يقال لها علم؛ لأنها تدرك بقوة النظر والتدبر في الآثار لا بارتسام الصور الذهنية ونحوها، كما يقال عرفت الله ولا يقال علمته[٢]، وذلك لأن معرفة البشر لله سبحانه تتم عبر التدبر في آثاره دون إدراك ذاته، بينما يقال: الله يعلم ولا يقال يعرف؛ لأنه يدرك المعلوم بالحضور والإحاطة لا بالتفكر والتدبر، وعلى هذا الأساس يقال لمن اختص بمعرفة الله سبحانه ومعرفة ملكه وملكوته بأنه عارف ولا يقال له عالم.

وتارة تدرك بواسطة الحواس الظاهرة وأخرى بالحواس الباطنة والشهود القلبي، وبحسب اختلاف الواسطة تختلف درجة المعرفة، وأعلاها هي ما تمت بالواسطتين معاً، وهو ما عرفت بعضه في مرتبتي العلم الجبلي واللدني، وهي من حيث الأثر علم خاص تتعلق بما هو أخفى من متعلق العلم وأدق، ولذا قالوا: إن كشف المعرفة أتمم من كشف العلم؛ لأنها بمنزلة الأمور

١ - انظر معجم الفروق اللغوية: ص٥٠١-٥٠٢، (٢٠٣٤).
٢ - انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٠- ٥٦١، (عرف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٩٦، (عرف)؛ لسان العرب: ج٩، ص٢٣٦، (عرف).

الوجدانية، فلا يمكن لصاحبها أن يشك فيها ولا ينتقل عنها[١]، كما أنها توجب سكون النفس واطمئنانها[٢]، وبهذا يتضح أن العلم والمعرفة واليقين مراتب ثلاث لمعرفة الله سبحانه وصفاته وأفعاله كلها.

ومن هنا قسموا المعرفة إلى مراتب أربع، ومثلوا لها بمراتب معرفة النار[٣]، فإن أدناها من سمع أن في الوجود حقيقة حارقة تحرق كل شيء تلاقيه تسمى بالنار، وهذه المرتبة مستندة إلى الحس السمعي فقط ، ومن هذا القبيل معرفة المقلدين في معرفة الله سبحانه، فإنهم اكتفوا فيها بتصديق الأنبياء والمخبرين عنه من غير وقوف على برهان أو دليل.

وأعلى منها مرتبة من شاهد النار عن بعد أو وصل إليه دخانها، فإن من هذه المشاهدة يحكم بوجود النار أيضاً، نظراً للملازمة بين الأثر والمؤثر، ومن هذا القبيل معرفة أهل الاستدلال والنظر الذين توصلوا إلى وجود الصانع وصفاته الجلالية والجمالية عبر البراهين القاطعة.

وأعلى منها مرتبة من وصل إلى النار وأحس بحرارتها بسبب مجاورته لها، ومن هذا القبيل معرفة المؤمنين المخلصين الذين أطمأنت قلوبهم بالله تبارك وتعالى وآلائه.

وأعلى منها مرتبة من دخل النار واحترق بها وذاق حقيقتها، وهذه هي أقصى رتبة في معرفة النار؛ لأنها بلغت درجة اليقين بوجودها وصفاتها

١ – انظر بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٩٢، بصيرة (٣٦).

٢ – انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٣٢، (عرف).

٣ – انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٩٦– ٩٧، (عرف).

وآثارها، ومن هذا القبيل معرفة أهل اليقين الذين شهدوا الله سبحانه بقلوبهم وبصائرهم، وشهدوا آثاره وكمالاته في كل شيء.

ومن الواضح: أن الذي يبلغ هذه الرتبة من المعرفة سيكون أقرب الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وتتجلى فيه آيات عظمته، وتشع عليه أنواره، فيكون حجته على خلقه، وأمينه على سره، ومظهر قدرته ومشيئته، والوسيلة إلى معرفته وطاعته كما نصت عليه الأخبار المتضافرة.

منها: قول أبي عبد الله عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى انتجبنا لنفسه، فجعلنا صفوته من خلقه، وأمناءه على وحيه، وخزانه في أرضه، وموضع سره، وعيبة علمه، ثم أعطانا الشفاعة، فنحن أذنه السامعة، وعينه الناظرة، ولسانه الناطق بإذنه، وأمناؤه على ما نزل من عذر ونذر وحجة»[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: « وبنا عُبد الله، ولولانا ما عرف الله، ونحن ورثة نبي الله وعترته»[٢] وقريب منه ورد عن الباقر عليه السلام [٣].

وهذا مما يقضي به العقل السليم لدى الاقتراب من مصدر الخير والفيض العظيم، وربما يوضحه الحديث القدسي في وصف الأولياء إذ يقول: «أقبل عليهم بوجهي، أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه، ثم قال عز وجل: أوّل ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون

١ - بصائر الدرجات: ص ٩٣ـ ح٧.
٢ - بصائر الدرجات: ص ٨١، ح٣؛ بحار الأنوار: ج٢٦، ص٢٤٦- ٢٤٧، ح١٤.
٣ - بصائر الدرجات: ص٨٤، ح١٦؛ وانظر بعض التوضيح لذلك في بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٩٤، بصيرة (٣٦).

عني كما أخبر عنهم»[١] وهنا نؤكد على حقائق:

الحقيقة الأولى: أن معرفة الله سبحانه لا تتعلق بالذات؛ لأنه من الممتنعات، ولذا قالوا في دعائهم عليهم السلام: «يا من لا يعلم ما هو ولا كيف هو ولا أين هو ولا حيث هو إلاّ هو»[٢] وذلك لأن البشر مهما بلغ من الرتبة والمقام عند الله فهو يبقى في حيطة عالم الإمكان الذي يتسم بالعجز والقصور والحاجة، بينما حقيقة الخالق تبارك وتعالى لا محدودة، ويستحيل أن يحيط المحدود باللامحدود.

الحقيقة الثانية: أن معرفته سبحانه تتعلق بكمالاته وصفاته الجلالية والجمالية، وتبلغ عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام رتبة اليقين، وتتفاوت درجاتهم بحسب تفاوتهم في مراتب اليقين.

الحقيقة الثالثة: أن المعرفة اليقينية بالخالق تبارك وتعالى تكون من وجه لا من كل الوجوه، أي بمقدار ما تسعه الطاقة البشرية، ومن هنا فصّل الأئمة عليهم السلام هذه المعرفة وصنفوها بحسب قابليات الناس المتعلمين، فبينوا لمن له الاستعداد الكبير، وهو ما عبروا عنه: «بالمؤمن الممتحن قلبه للإيمان»[٣] أو المؤمن النجيب، أو الصفوة من عباد الله[٤] من جهة العلم

١ - المحجة البيضاء: ج٥، ص٣٩؛ حقيقة علوم آل محمد وجهاته: ص٥٤؛ المبدأ والمعاد: ص٦١٢.

٢ - المصباح (للكفعمي): ص٢٦٠.

٣ - انظر الكافي: ج١، ص٤٠١، ح١؛ بصائر الدرجات: ص ٤١، ح١ و ح٣؛ معاني الأخبار: ص١٨٨.

٤ - انظر التهذيب: ج٦، ص٩٢، ح١٨٩؛ بصائر الدرجات: ص ٤٣، ح٦؛ مجمع البحرين:

الجبلي، ولمن لم يصل إلى تلك الدرجة من جهة العلم اللدني، وللأدنى رتبة من جهة العلم التوسيطي، مع أن المعرفة واحدة، فاختلاف التسمية لم ينشأ من اختلاف المعرفة أو انقسامها، وإنما من جهة بيان جهة المعرفة، فالذي يعرفهم عليهم السلام بالحقيقة النورية والروح القدسية يدرك الرتبة الأولى، والذي يعرفهم عليهم السلام بمقام النبوة والإمامة والدرجة الرفيعة عند الله سبحانه يدرك الرتبة الثانية، والذي يعرفهم في رتبة البشر الذين صير الله قلوبهم أوعية لعلم الكتاب وعلوم النبي يدرك الرتبة الثالثة، وهم عليهم السلام بيّنوا لكل صنف ما يدركه ويستوعبه.

وبهذا يتضح الوجه في اختلاف الروايات الواردة في بيان حقيقة علومهم ومصدرها، وبه يرتفع ما يتصور من التعارض أو الإبهام أو الإجمال، كما يتضح أن الروايات التي دلت على أنهم متى ما أرادوا العلم علموا كما في قول الصادق عليه السلام: «إن الإمام إذا شاء أن يعلم أعلم»[1] و:«علم»[2] وفي ثالثة وهي رواية عمار الساباطي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: «لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك»[3] ونحوها مما هو متضافر.

فإن كل هذه الروايات محمولة على قصور فهم السامع أو بيان جهة العلم،

ج١، ص١٦٨، (نجب).

١ - الكافي: ج١، ص٢٥٨، ح٢.

٢ - بصائر الدرجات: ص ٣٣٥، ح٢.

٣ - أصول الكافي: ج١، ص٢٥٧، ح٤؛ وانظر بصائر الدرجات: ص٣٣٥، ح٤؛ بحار الأنوار: ج٢٦، ص٥٧، ح١١٩.

أو بيان الالتفات إلى فعلية العلم، كالعالم الذي يحفظ الشيء الكثير من العلم ولكنه يحضره في ذهنه متى ما أراد ذكر المسألة أو الإجابة عن سؤال، ولا تحمل على نقص علمهم أو حاجتهم إلى التعليم كما عرفت.

الحقيقة الرابعة: أن أكثر أهل المعرفة من الفريقين اصطلحوا على علم النبي والإمام عليه السلام بالعلم اللدني، وظاهر كلماتهم يفيدنا أنهم أرادوا الرتبة الثانية التي ذكرناها عن العلم، ولم يتعرضوا إلى الرتبة الأولى منه، وعلى هذا فإن العلم عندهم له رتبتان اللدنية والتوسيطية[١]، إلّا أنك عرفت أن مقتضى التحقيق المستفاد من النصوص الكثيرة هو ثبوت رتبة ثالثة أعلى من العلم اللدني لديهم، وهي العلم الجبلي المستند إلى نورانية أرواحهم.

نعم لعل البعض يحتمل أن تعرضهم للعلم اللدني دون اليقين من باب أنه المصداق الأجلى عند عموم الناس، وأما اليقين فهو الأجلى عند الخواص، وحينئذ يتوافق القولان.

هذا وربما يمكن أن نجمع بين قولنا وبين قول الأكثر الذين ذهبوا إلى أن علم الإمام عليه السلام بالله سبحانه من قبيل العلم الحضوري بنحوين:

أحدهما: أن نرجع اليقين إلى العلم الحضوري، باعتبار أن العلم الحضوري

---

١ - انظر مجموعة رسائل الغزالي (الرسالة اللدنية): ج٣، ص٧٠؛ جامع الأسرار: ص٤٤٩، ح٩٠٥؛ المواهب اللدنية: ج٢، ص٤٩٣؛ شرح أصول الكافي: ص٢٠٦؛ الأصول الأصيلة (للفيض الكاشاني): ص٣٠- ٣١، الأصل الثاني (وصل)؛ وانظر المحجة البيضاء: ج٥، ص٤٣؛ تفسير الميزان: ج٦، ص١٧١- ١٧٢، تفسير الآية ١٠٥ من سورة المائدة.

يتقوم بحضور المعلوم لدى العالم، ومرادهم من الحضور ما يشمل الحضور العيني والحضور الإدراكي، والأول يختص بحضور الأشياء المادية عند العالم بها، كما لو أخبر شخص بطلوع الشمس؛ لأنه رآها طالعة، والثاني يختص بالحقائق البعيدة عن الحس، كما هو الحال في المؤمنين بحقائق الغيب، فإنهم يؤمنون بالجنة والنار والملك والبرزخ ونحوها من الغيبيات حيث يستشعرونها حاضرة لديهم ويعايشونها، ولا يشكون فيها، وعلى أساسها يتعاملون في حياتهم الخاصة والعامة، وهذا الاستشعار اليقيني يعد من مراتب العلم الحضوري، وكذلك فيما يتعلق بمعرفة الله تبارك وتعالى، ولعل إليه يشير قولهعليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1] بلحاظ أن نفسه حاضرة لديه، ومن حضور نفسه لديه يستشعر حضور ربه تبارك وتعالى في كل شيء، كما قال مولانا أمير المؤمنينعليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه»[2] وبهذا التفسير يصبح اليقين من المراتب العالية للعلم الحضوري.

ثانيهما: أن نرجع العلم الحضوري إلى اليقين، وذلك لأن نتيجة حضور المعلوم لدى العالم هو اليقين به، وبهذا يصبح الحضور واليقين وجهان لحقيقة واحدة أو رتبتان لها، وإن كان منشأ العلم الحضوري هو الإحاطة التامة بالمعلوم كما في علم الخالق بالمخلوق، أو الإحاطة الإدراكية، أو الإحاطة من وجه كما في علم المخلوق بالخالق، بينما منشأ اليقين هو الجبلة النورية

---

١ - عوالي اللآلئ: ج١، ص٥٤، ح٧٩؛ الجواهر السنية: ص١١٦.
٢ - اللمعة البيضاء: ص١٦٩.

والمكاشفة الربانية التي تحصل للقلوب التقية والنفوس القدسية للعالمين بالله سبحانه، وهي نفوس الأنبياء والأئمةعليهم السلام، ولذا تكون المعرفة فيها على قدر استعداد القلب والقابلية على مشاهدة التجلي الإلهي، وهذه نكتة مهمة تفرق بين علم الخالق وعلم المخلوق.

فإن يقين المخلوق يدور مدار وجود المقتضي وانعدام المانع؛ إذ لا يحصل اليقين إلاّ للقلوب النقية الطاهرة بمزيد العبودية والإخلاص للخالق[١]. هذا من حيث المقتضي، وأما من حيث رفع المانع فإنه يتوقف على رفع الحجب الظلمانية التي تمنع من وصول الفيض الرباني وقذفه في القلب، وإليه تشير الروايات المباركة: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات»[٢].

الحقيقة الرابعة: يمكن تصنيف علم النبي والإمامعليهما السلام بلحاظ آخر إلى ثلاث مراتب هي:

العلم الحضوري والعلم الإفاضي والعلم اللدني، والأول يتقوم بحضور المعلوم لديهم، والثاني يتقوم بعطاء الله سبحانه وفتح أبواب الغيب أمام أبصارهم وبصائرهم فيزدادون علماً ومعرفة به وبآياته وجلاله وجماله، والثالث يتقوم بإشراقات ذواتهم النورية وقلوبهم القدسية، وهذا العلم أشرف من غيره؛ لأنه بمنزلة السبب لغيره؛ بداهة أن إشراقات النفس توجب انعكاس حقائق الأشياء وحضورها لديها، كما أنها توجب ارتقاء

١ - انظر بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٣٩ - ١٤٢، ح٥.
٢ - انظر بحار الأنوار: ج٥٦، ص١٦٣.

العبد مراتب العبودية فيكون محلاً للإفاضات الإلهية، ولكل منها دلالات في الأدلة الشرعية، ولكن الجوهر واحد، واختلاف الحيثية وأن أوجب تعدد العنوان إلاّ أن ثمرته علمية لا عملية لا تحادها في المبدأ والغاية والأثر، والمسألة قابلة للبحث والتفصيل لا يسعه المجال هنا.

المطلب الرابع: في علم الإمام عليه السلام بشهادته

عقدنا هذا المطلب للإجابة عن سؤال قد يخطر في أذهان البعض وخلاصته: إن الإمام عليه السلام يعلم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، ومما يعلمه أيضاً زمان قتله ومكانه ووسيلة القتل، وقد صرحوا بذلك كثيراً[1]، بل تواتر النقل في أن أمير المؤمنين عليه السلام كان قد صرح بزمان قتله، وعيّن قاتله، وأبى أن يقتص منه قبل الجناية[2]، وكان الحسين عليه السلام يعلم بذلك، وحدد أرض شهادته، واصطفى أصحابه، وبين كيفية شهادته والحوادث التي تجري على أهل بيته، وأكد لمن طلب منه أن لا يذهب إلى كربلاء، فقال: «شاء الله أن يراني قتيلاً» ولمن طلب منه أن يترك عياله في المدينة قال: «شاء الله أن يراهن سبايا»[3].

وكذلك أمه الصديقة قامت واغتسلت وأوصت وأخذت تتلو القرآن حتى قضت شهيدة مظلومة[4].

وقال الإمام الرضا عليه السلام لابن الجهم في قاتله المأمون العباسي: «فإنه

---

١ - انظر بصائر الدرجات: ص٥٠٠- ٥٠١، باب في الأئمة عليهم السلام أنهم يعرفون متى يموتون.

٢ - الخرائج والجرائح: ج١، ص٢٠١، ح٤١.

٣ - انظر الهداية الكبرى: ص٢٠٣- ٢٠٤؛ مشارق أنوار اليقين: ص٨٨.

٤ - انظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٣، ص١٩٨؛ مقتل الخوارزمي: ج١، ص٨٥؛ فضائل الصحابة: ج٢، ص٦٢٩؛ كشف الغمة: ج٢، ص٤٢.

سيقتلني بالسم وهو ظالم لي، أعرف ذلك بعهد معهود إليّ من آبائي عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فاكتم هذا عليّ ما دمت حياً»(١) وهكذا تحدث سائر الأئمة عليهم السلام، بل قال الصادق عليه السلام: «أي إمام لا يعلم ما يصيبه وإلى ما يصير فليس ذلك بحجة لله على خلقه»(٢).

وباختصار: أن الإمام عليه السلام يعلم بزمان قتله ومكانه وكيفيته كما يعلم بقاتله فكيف مضى لسبيله ولم يدفع عن نفسه ذلك وألا يعد هذا من إلقاء النفس في التهلكة الذي نهى عنه الباري عز وجل بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(٣) ؟ ولا يخفى أن السؤال المذكور يستبطن إنكارين هما إنكار علم الإمام عليه السلام بالمقدرات الإلهية تخلصاً من محذور الإقدام على التهلكة، وإنكار العصمة تخلصاً من محذور عدم العلم.

وقد أجيب عن هذا التساؤل بأجوبة عديدة لا يخلو العديد منها من إشكال(٤)؛ لاستنادها إلى روايات وردت في مقام التقية المداراتية أو الخوفية كالتي نصت على أن الله سبحانه يُنسي الإمام الأمر لينفذ فيه حكمه(٥)، أو ينقطع عنه المحدث الذي يخبره بالحدث(٦)، أو أنه يفعل ذلك من باب الاضطرار ونحوها(٧). أو لمخالفتها لحكم العقل والنقل كالقول بنفي الحجية

١ - بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٣٦، ح٦؛ جامع كرامات الأولياء: ج٢، ص٢٥٦.
٢ - الكافي: ج١، ص٢٥٨، ح١؛ بصائر الدرجات: ص٥٠٤، ح١٣.
٣ - سورة البقرة: الآية ١٩٥.
٤ - انظر آل محمد عليهم السلام بين قوسي النزول والصعود: ص١٦٣ وما بعدها.
٥ - انظر بصائر الدرجات: ص٣٨١، ح٣؛ بحار الأنوار: ج٤٨، ص٢٣٥- ٢٣٦، ح٤٢
٦ - رجال الكشي: ص٣٧١؛ بحار الأنوار: ج٤٨، ص٢٤٢، ح٥٠.
٧ - انظر المسائل العكبرية: المسألة العشرون، ص٧٠.

عن علومهمعليهم السلام الحاصلة من غير الطرق المتعارفة؛ لأن الدنيا دار الاختبار والعمل بالظاهر لا الواقع، أو بعدم التفاتهمعليهم السلام إلى العلم والمعلوم بسبب استغراقهم في محبة الخالق وقربهم منه كما يكشف عنه إخراج النصل عن رجل أمير المؤمنينعليه السلام في الصلاة مع عدم التفاته وانقطاعه إلى ربه إذ مع فرض عدم الالتفات لا يصدق الالقاء في التهلكة، أو بعدم علمهم بانطباق المجمل على المفصل، بدعوى أنهمعليهم السلام أخبروا بما يقع عليهم ويكون سبباً لقتلهم ولكن لا يعلمون الوقوع تفصيلاً لتعدد احتمالات الوقوع وانطباقه على موارد عديدة، والعقل يقضي بلزوم الاجتناب في الشبهة المحصورة لا غير المحصورة إلى غير ذلك من أجوبة لا تتوافق مع القواعد والأصول الصحيحة[1].

لأن الجواب الأول مخصص للقاعدة العقلية القاضية بحجية العلم مطلقاً ومفكك بين الذات وذاتياتها على أن نفي الحجية لا ينفي عنه عنوان الالقاء في التهلكة.

والجواب الثاني متناقض؛ إذ لا يعقل اجتماع العلم مع عدم الالتفات على أن عدم الالتفات ينافي العصمة، ومثله يقال في الجواب الثالث فضلاً عن منافاة الجميع لصريح الأدلة النقلية التي نصت على شمول علمهم واحاطته وفعليته فيما كان ويكون وما هو كائن.

ولعل الإجابة الأوفق بالقواعد والأصول العقلية والنقلية تتلخص في جواب نقضي بمثل المجاهدين في سبيل الله الذين أمروا بالجهاد مع علم

١ - انظر الؤلؤة الغالية: ص٢٨- ٤٤، لؤلؤة (٤).

الكثير منهم بالشهادة، وجواب حلي هو الخروج الموضوعي عن التهلكة، ويمكن بيانه من وجوه:

الوجه الأول: فقهي، فإن التهلكة موضوعاً تتحقق في صورة الإقدام على ضرر القتل من دون حكمة و نفع أكبر، وهذا غير متحقق هنا؛ لأن الإمامعليه السلام يقدم على الشهادة ومصلحة الشهادة وكرامة الشهيد أكبر من ضرر القتل، وعلى هذا الأساس يقدم جميع العقلاء عليها دفاعاً عن العرض والوطن والدين، وتعد الشهادة من أقدس قيم البشر، والشهيد من أنبل أبنائهم عند جميع أهل الأديان والمذاهب والملل، فما بالك بمن يضحي بنفسه لأجل دين الله وأحكامه.

فإقدام الإمامعليه السلام للتضحية في سبيل الله خارج موضوعاً عن آية التهلكة؛ لأنه شهادة وليس بتهلكة، وهذا ما تؤكده الروايات العديدة التي تنص على أنّ الله سبحانه خيّرهم بين الموت وبين لقاء الله سبحانه، فاختاروا لقاء الله تبارك وتعالى حباً وشوقاً وتحصيلاً للمثوبات ومزيد الدرجات.

فعن أبي جعفرعليه السلام قال: «أنزل الله تعالى النصر على الحسينعليه السلام حتى كان ما بين السماء والأرض، ثم خيّر بين النصر أو لقاء الله فاختار لقاء الله تعالى»[1].

ويمكن إخراج الإقدام على القتل من التهلكة موضوعاً بوجه آخر ذكره العلامة المجلسيقدس سره.

وخلاصته: أن الإمامعليه السلام يعلم بأنه سوف يقتل بما هو أشد وأشنع مما جرى عليه لو لم يقدم على القتل، فيختار الأخف؛ بداهة أن مثل المأمون

١ - الكافي: ج١، ص٢٦٠، ح٨؛ بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٢.

العباسي ونحوه الذي يقتل الرضا عليه السلام بالسم النقيع لا يمنعه مانع من قتله بما هو أشد من ذلك، وحيث إن الإمام عليه السلام يعلم بذلك فيقدم على الأخف لكي لا يقع الأشد، وعليه يكون الإقدام على القتل من باب دفع الضرر الكبير بالأقل منه[١].

أو لعل الإمام عليه السلام يعلم بأنه إذا لم يقدم هو على القتل ستبتلى شيعته بالظلم الفظيع من قبل السلطة، وهذا أمر معهود في سياسات الظلمة حينما يفتكون بمخالفيهم، فإنهم إذا نالوا من الزعيم يخف ضغطهم على الأتباع، ولعل هذا ما يشير إليه قول الإمام الكاظم عليه السلام بأنه وقى شيعته بنفسه بسبب ما يمكن أن ينزل عليهم من البلاء، ولا يخفى ما في هذا المعنى من تضحية ورأفة كبيرتين[٢]، وهذه قاعدة عامة تجري لدى التزاحم بين المنافع والأضرار في كل الأمور وبها يندفع الإشكال.

الوجه الثاني: قيادي، فإن الله سبحانه نصبهم عليهم السلام أئمة للناس وحججاً عليهم ليكونوا قدوة لهم في كل شيء، لاسيما في مواطن الضراء والصبر والتضحية في سبيله؛ وذلك لأجل إتمام سنّة الاختبار والامتحان التي جبل الله سبحانه عليها الدنيا وما فيها لتربية الناس إعداداً لهم للآخرة.

ولازم هذه الحكمة أن يتعامل النبي والإمام عليهما السلام مع ما ينزل عليهما من آلام ومصائب بحسب ظاهر الحال كما يتعامل سائر الناس، لا بحسب

---

١ - انظر بحار الأنوار: ج ٤٨، ص ٢٣٦، بيان.

٢ - انظر الكافي: ج١، ص٢٦٠، ح٥.

الواقع؛ ليكونوا قدوة وأسوة[١]، وإلّا بطلت سنّة الامتحان، ولم يبق وجه للاقتداء بهم؛ وأمكن أن يقال بأن علياًعليه السلام - مثلاً- أقدم في الحروب وبات على فراش رسول اللهصلى الله عليه وآله وبرز لعمرو ابن عبد ود ونحوه لأنه يعلم بعدم موته وهكذا سائر الأئمةعليهم السلام.

فهمعليهم السلام مأمورون بالعمل بحسب الظواهر بما في ذلك من اضرار ومتاعب ويشاركون الناس في الأحكام والوظائف ليكونوا قدوة لهم بما أنهم أئمةً وحججً.

الوجه الثالث: معرفي، فإن الإمامعليه السلام يعلم بالمقادير الإلهية في اللوح المحفوظ ، ويعلم أن مما قدره الله سبحانه لمصلحة دينه وأحكامه أو لمصلحة خلقه أن يكون الإمامعليه السلام مقتولاً بالسيف أو بالسم بالتفاصيل التي قدرتها المشيئة الإلهية، فلذا لا يملك إلاّ أن يكون مستجيباً للمشيئة، ومحققاً لما أراده الله سبحانه منه؛ إذ لا يكون الإمام إماماً إلاّ أن يكون عبداً لله، مستجيباً لإرادته، ومسلماً لأمره في كل شيء، فلذا يقدم على القتل لأن الله يحب أن يراه مقتولاً، ويقدم على شرب السم لأن الله سبحانه يحب أن يراه مسموماً.

وفي هذا ينال الإمامعليه السلام علو الدرجات ومزيد القرب الإلهي، كما يبدي غاية الخضوع والطاعة لرب العالمين، ويصبح القتل عنده عبادة وامتثالاً لا تهلكة، وإلى هذا يشير قول سيد الشهداء: «خير لي مصرع أنا لاقيه»[٢] وقوله:

١ - انظر بحار الأنوار: ج ٤٨، ص٢٣٦؛ الفقه (البيع): ج٤، ص٢٧١.
٢ - مثير الأحزان: ص٢٩؛ لواعج الاشجان: ص٧٠؛ معالم المدرستين: ج٣، ص٣٠٤.

«شاء الله أن يراني مقتولاً»(١) و: «شاء الله أن يراهن سبايا»(٢) فإن الخيار والمشيئة هنا تشريعيان لا تكوينيان، بمعنى أنه عليه السلام علم بأن الله سبحانه اختار له القتل بالسيف في سبيله، وأحب أن يراه قتيلاً وعياله سبايا، وهو لم يألوا جهداً أن يحقق هذا الحب، ويمتثل لأمر الله، وبه يظهر بعض وجوه العناية الإلهية بسيد الشهداء عليه السلام حتى عوض بشهادته بمزيد من الألطاف والفيوضات التي لم يعطها حتى للأنبياء، حيث جعل قبره موضعاً لمختلف الملائكة، وتربته شفاء من الأمراض، وقبته موضع استجابة الدعاء، وجعل بيده مفاتيح العلم والرحمة والمحبة في قلوب المؤمنين؛ لأنه أعطى لله كل ما يملك حباً وكرامة، فأعطاه الله الكثير مما يملك حباً وكرامة، كما تنص عليه الروايات، ويشهد به الواقع الخارجي.

كما يظهر أن تضحيات الأئمة عليهم السلام وإقدامهم على القتل ليس من باب الجبر أو الاضطرار، بل هو من باب الاختيار لأفضل العطاء وتقديمه في سبيل الله سبحانه، ولا شك في أن أفضل ما يبذله العبد في سبيل ربه هو روحه ودمه.

ولعل مما يشهد له ما ورد عن مولانا الرضا عليه السلام في بيان سبب إقدام أمير المؤمنين عليه السلام على الصلاة في المسجد مع علمه بما يجري فيها. قال: « ذلك كان ولكنه خيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير الله عز وجل»(٣).

لاسيما وهم المشتاقون إلى لقاء الله سبحانه، والمتفانون في حبه، ويجهدون

١ - بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٣١؛ لواعج الاشجان: ص٣١.

٢ - مختصر بصائر الدرجات: ص١٣٢؛ المحتضر: ص٤١؛ بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٦٤؛ لواعج الاشجان: ص٧٣؛ اللهوف في قتلى الطفوف: ص٤٠.

٣ - الكافي: ج١، ص٢٥٩، ح٤.

لأجل وصاله، وقد طلقوا الدنيا وعادوها لما فيها من بعد عن محبوبهم، وإشغال عن عبادته، وأرادوا الموت في سبيله للوصول إليه، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه»[1] لما فيه من سمو وراحة إليه، وقال عليه السلام: «فلولا الآجال التي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى لقاء الله والثواب»[2].

ففراق الله سبحانه بالنسبة إليهم عذاب يلوعهم، ويكوي قلوبهم، ولذا كان يقول في مناجاته: «إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك؟»[3] وبهذا يظهر أن راحتهم وسرورهم في الشهادة في سبيل الله؛ لأنهم يحققون بها الإرادة الإلهية، وينجزون المقدرات التي أحب الله أن تجري في الوجود، وفي عين الحال توصلهم إلى ربهم، وتخلصهم من سجن الدنيا وظلماتها.

كما وروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «والله ... لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار ولا سر ولا علانية، ولولا أن لأهلي عليّ حقاً ولسائر الناس من خاصهم وعامهم عليّ حقوقاً لا يسعني إلاّ القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي إلى السماء وبقلبي إلى

١ - تذكرة الخواص: ص١٢١؛ بحار الأنوار: ج ٢٨، ص ٢٣٤، ح٢٠؛ المحاسن والمساوئ: ص٤٨٣؛ نضد القواعد الفقهية: ص٧٢؛ بحار الأنوار: ج٧١، ص٥٧، ح١٦.

٢ - بحار الأنوار: ج ٦٥، ص١٩٣، ح٤٨؛ كنز الفوائد: ص٣٢؛ وانظر كتاب سليم بن قيس: ص٣٧٢؛ تحف العقول: ص١٥٩.

٣ - إقبال الأعمال: ج٣، ص٣٣٥.

الله ثم لم أردهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين»[١].

وبهذا يظهر أن معيشتهم عليهم السلام في الدنيا ومعاشرتهم للناس هي عبارة عن إيفاء للحقوق، حق الله في العبادة، والعمل لرضاه وكسب ثوابه، وحق الناس في تربيتهم وتعليمهم وهدايتهم إلى الله سبحانه حسبما أراد الله سبحانه، وحق الأهل لمثل ذلك، ولولا هذه الحقوق لانقطعوا إلى خالقهم ولم يلتفتوا إلى شيء من الدنيا طرفة عين أبداً، وهذه هي العبودية الحقيقية لله، فالعبودية المخلصة للعبد هي أن يتفانى في سبيل ربه حباً وشوقاً وامتثالاً.

وهذا ما يؤكده قول الصادق عليه السلام: «العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه.... فلا مؤنس له سوى الله، ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلاّ بالله، ولله ومن الله ومع الله، فهو في رياض قدسه متردد، ومن لطائف فضله إليه متزود»[٢].

ويتحصل مما تقدم: عدم التنافي بين علم الإمام عليه السلام واحاطته بعوالم الغيب التي أعطاها الله له وبين إقدامه على الشهادة في سبيله؛ لأن بإقدامه على الشهادة يمتثل أمر الله سبحانه في الجهاد والتضحية في سبيله، وينقاد إلى المقدرات الإلهية التي قررها الباري عز وجل لخلقه، وبهذا الانقياد يكون الإمام عليه السلام في غاية العبودية والتسليم والانقطاع لربه عز وجل، فإقدامه على التضحية خارج موضوعاً عن التهلكة المنهي عنها، وداخل في موضوع الجهاد والطاعة للخالق تبارك وتعالى، وهو مقتضى العلم والعصمة لا نفيهما.

١ - مستدرك الوسائل: ج١، الباب ١٨ من أبواب مقدمة العبادات، ص١٢٦، ح١١؛ آل محمد بين قوسي النزول والصعود: ج٢، ص١٧٠.

٢ - بحار الأنوار: ج ٣، ص١٤، ح٣٥؛ مصباح الشريعة: ص١٩١.

الفهرست

الفصل الأول: في حقيقة الإمامة وضروراتها واختلاف الآراء فيها......٧
المبحث الأول: في حقيقة الإمامة وضروراتها..........................٩
المطلب الأول: في حقيقة الإمامة...................................٩
المطلب الثاني: في ضرورات الإمامة..............................٢٠
المبحث الثاني: الآراء في الإمامة..................................٨٤
المطلب الأول: مكانة الإمامة عند المسلمين ٨٤
المطلب الثاني: في طرق تنصيب الإمام ٨٨
الفصل الثاني: في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام
بالأدلة العقلية والنقلية ١٣١
التمهيد ١٣٣
المبحث الأول: في إمامة علي عليه السلام ونفي الإمامة عن غيره ١٣٥
المطلب الأول: في الأدلة العقلية على إمامة علي وأولاده عليهم السلام ١٣٥
المطلب الثاني: في نفي إمامة غير علي عليه السلام ١٥٣
المبحث الثاني: في ثبوت إمامة علي وأولاده عليهم السلام بالأدلة النقلية ١٦٠
المطلب الأول: تعيين أسماء الأئمة عليهم السلام في روايات الفريقين ١٦٠

المطلب الثاني: في تعيين أسماء الأئمة عليهم السلام في الكتاب العزيز ٢٠١
الفصل الثالث: صفات الإمام عليه السلام ومقاماته الإلهية.................. ٢٤٩
التمهيد ٢٥١
المبحث الأول: في علم الإمام عليه السلام ٢٥٣
المقدمة الأولى: أقسام العلوم.................................. ٢٥٣
المقدمة الثانية: علوم الأئمة عليهم السلام ٢٥٧
المقدمة الثالثة: الاعتقاد بعلم الإمام عليه السلام.......................... ٢٥٨
المطلب الأول: في مراتب علم الإمام عليه السلام وطرقه ٢٦٣
المطلب الثاني: في سعة علم الإمام عليه السلام ٣٦٣
المطلب الثالث: في حقيقة علم الإمام عليه السلام ٣٨١
المطلب الرابع: في علم الإمام عليه السلام بشهادته ٤٠٠